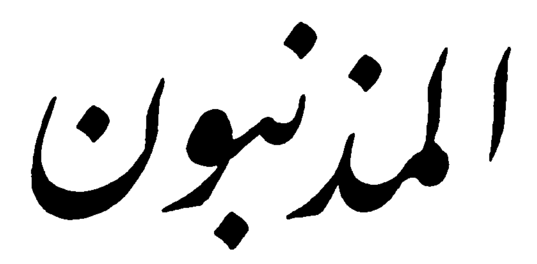
فـارس زرزور



روايـة

فارس زرزور



المذنبون

رواية

منشورات اتحاد الكتاب العرب

دمشق ١٩٧٤

تصميم الغلاف : محمود شاهين

(١)

قضى جدعان العبد الله سحابة نهاره في حفر أخاديد طويلة تصل ما بين المرتفع الجانبي والارض الصغيرة التي سيدفن في أحشائها مؤونته الشتوية ، وذلك استعدادا لاستقبال الامطار التي تأخر أوان هطولها ثلاثة أشهر ؛ فها هو ذا فصل الشتاء يزحف كالثعبان المرعب الذي لا يبشر قدومه بالخير . غريب هذا الفصل الذي أطل برأسه فجأة دون أن يحدث ضجة أو علامة تنبىء عن قدومه ، فلا ريح ولا رعد ولا قطرة ماء . حتى أن أبسط صفة من صفاته كانت معدومة وهي البرد . فالاربعينية هلت منذ يومين ، ولا يزال الهواء – هواء الخريف الدافىء يكنس الاعشاب اليابسة ويخلف التراب من تحته ظمآن جافا ، يهم أن يبتلع في هبوبه الرطوبة المختزنة في الارض والتي خلفتها وراءها سنوات الخير البعيدة .

كان رأس المعول بين يدي جدعان اليابستين يلاقي صعوبة كبيرة في شق طريقه بين كتل التراب الحمراء والاحجار المعتمة المنخورة المتناثرة في الارض بكثرة . ولم تكن هذه الصعوبة ناتجة عن كلل أو ضعف لحق بالساعدين ، بل لان المعول نفسه وجد أن لا فائدة ترجى من هذا العمل اللامجدي . فهو أولا لم يعتد في حياته كلها على حفر مثل هذه الآخاديد في مثل هذه الارض ومن أجل تلك الغاية . ولربما كان يحدث نفسه :

« – من أجل ماذا وجد المحراث اذن ؟! » .

غير أن جدعان كان يدرك كل شيء · فهو بدوره يعلم بأنه يقوم بعمل غريب من نوعه ، ولكن ماذا عليه أن يفعل اذا كانت آماله بالغيث قد تعلقت بشعرة ؟

كان رأس المعول ينفصل دائما عن نصابه ، وعلى الرغم من ضيق الوقت والتلهف الشديد على انجاز التخديد قبل استجابة السماء ، كان الفلاح الشاب ينحني على الارض بصبر وأناة وأمل كبير ، يدخل الرأس بالنصاب ويدقه بحجر ثم يستأنف عمله من جديد ، دون أن تراود رأسه فكرة ما بأن المعول يتآمر ضده مع السماء والحظ والناس الآخرين ·

وبعد العصر بقليل ، بدأ جدعان يشعر بأن التعب راح يغرس أوتاده في ظهره وخاصرتيه · فأخذ مبتئسا يستند بين آونة وأخرى بصدره على نهاية النصاب المريض ليستريح · وشرعت حبّات العرق تتجمع فوق جبينه الملفوح وتتقارب شيئا فشيئا لتحدث ساقية صغيرة تبدأ من الندبة الحمراء في الناحية اليمنى من جبينه ، وتنتهي عند التؤلولة في نهاية ذقنه ·

ورفت عيناه حين استشعر بقطرة باردة تتعلق بهدبه ، وسقطت القطرة على الارض وتوقف المعول عن الحركة · لقد ابتلع التراب قطرة العرق دون أن يترك لها أثرا · وتفاعلت في صدر الفلاح عاطفتان متناقضتان : عاطفة الام التي ترى وليدها يموت من العطش ، وعاطفتها عندما تسقيه قطرة من دموعها ، أما الانطباعة السيئة التي طغت على كل شيء ، فهي السؤال الذي ردّده في حيرة : « أفي هذا الوقت من السنة يعرق الانسان ؟ أين هو الشتاء اذن !؟ » وامتدت أصابع طويلة ذات عقد بارزة الى صدره ، ومزّقت شق القميص الذي يرتديه على اللحم ·

كان جدعان العبد الله يرتدي على اللحم سروالا وقميصا فقد كل منهما لونه الاصلي ، وأصبح لهما على مرّ السنين لون موحّد هو لون الجلد الذي يكسوانه · فقد تعاون التراب والعرق والشمس على اعطائهما هذه الصفة الخالدة · واذا صُدّق بأن اللون الاول للسروال كان أسود ولون القميص أزرق أمكن معرفة الجهد الذي قاسياه حتى تآكلت خيوطهما وتغيّر لونهما وأصبحت الرقع في كليهما ضرورة لازمة كضرورة المسمار للخشب ، وفي بعض الحالات بدت هذه الرقع كالجروح الواسعة الملتحمة من تلقاء نفسها بلا دواء · وكان

جدعان يدرك بأن الوقت قد حان منذ عهد بعيد لتغيير ملابسه بملابس جديدة ، فالافعى نفسها تغير ثوبها كل ستة أسابيع على الاكثر • علما بأن فصل الشتاء قد حلّ وعليه أن يتدارك الوقت ليدفىء عظامه • غير أنه فضّل مضطرا أن يؤجل ذلك الى اشعار آخر ، لان البائع المتجول الذي يشد الخام المصبوغ الى ظهره ويدور به في القرى قد استراح ، لانه عرف بأن الحنطة قد قومر بها ، فاختفت في باطن الارض وأصبح البيع بالدين الى ظهور البيدر غير مأمون العاقبة •

والاسهاب في مسألة اللباس أمر ضروري ، لان اللباس في أكثر الحالات يعيّن درجة الانسان الاجتماعية والاقتصادية والنفسية أيضا • وجدعان ـ بالاضافة الى ذلك ـ لم يكن ينتعل حذاء ولا يتخذ غطاء للرأس • كان يعتبر الاول من الكماليات التي يمكن الاستغناء عنها بجلد القدم • وللفلاحين في ذلك نظرية هامة ، وهي أن جلد القدم تزداد سماكة فتصبح كالنعل كلما لامست الارض وأصيبت بالرضوض ، أما غطاء الرأس فقد أطاح به مساء أمس في الهواء اثر مشاجرة عنيفة جرت بينه وبين أبناء عمه بسبب نعجة ضاع رأسها بعد أن فتك بمؤخرتها ذئب جائع •

عندما أحسّ جدعان بأن العرق بدأ يضايق عينيه ، رفع ساعده ليمسح جبينه بكم قيمصه ، فمرت يده بقسوة فوق الندبة الدامية التي سببتها مشاجرة الامس ، وأحدث على الفور ألما حادا واخزا ، فرفع المعول فوق رأسه ، وراح يخبط الارض على غير بصيرة أو هدى ، وكأنه يريد أن يتشفى لنفسه من عدوٍّ بغيض ، ولكن النصاب أفلت بعد ضربتين متواليتين فانكبّ عليه يعالج اصلاحه من جديد •

كان جدعان منذ الفجر يعمل عملا آليا في تخديد الارض وهو يفكر : ستهطل المطر بغزارة وستسير في هذه الأخاديد ثم تسقي الارض • واذا تأخر الغيث حتى الآن فلا يزال هناك أمل • فالله لا يمكن أن يحبس الغيث عن الناس فهو ليس بحاجة اليه لانه لا يأكل ولا يشرب ، وملائكته أيضا لا يشبهون البشر في صفاتهم ، وحاجاتهم ، فهي أيضا لن تخص به نفسها دون أهل الارض الاشقياء بضعفهم وحاجاتهم ، والمطر أصلا لم يخلق الا من أجل البشر ، وهو اذا لم يهطل اليوم فغداً أو بعد غد على أبعد تقدير ، وعلى هذا لا بد من العمل •

كان جدعان يصعد المرتفع الجانبي ويغرس رأس المعول في التراب ثم يرجع الى الخلف ، فيصطدم كعباه العاريان بالاحجار ، وعندئذ اما أن يقع على مؤخرته ، ـ اذا كان يرجع هرولة ـ أو يتجاوز الاحجار بهدوء . وأخيرا يصل مع الاخدود الى الارض المنبسطة ، وبعدها يستريح قليلا ويثبت رأس المعول في النصاب ، ثم يعاود الصعود قبل أن يهطل الغيث على حين غرّة .

بعيد العصر بقليل راحت الافكار المعاكسة تحط على رأسه كأسراب الذباب « واذا لم تنزل المطر ..؟ هل نخسر الارض ونموت من الجوع ؟ » كانت هذه الافكار رهيبة ، أشد رهبة من عقاب الله . ولم يجد طريقة لطرد هذه الافكار غير مناجاة نفسه « هل من المعقول !؟ لماذا ؟.. لا .. لا يمكن ذلك . ان الله ليس بحاجة الى المطر ، فهو لا يأكل ولا يشرب ، والملائكة أيضا ، انها ولا شك تحب البشر » .

ودوّى في أعماقه فجأة نذير مشؤوم : أنتم مذنبون .. أنتم مذنبون .. وسينتقم الله منكم . كانت لهجة الشيخ عبد الغفور وهو يوجه الى الفلاحين هذا الانذار تنطوي على الحقد والضغينة أكثر مما تحضّ على التقوى والورع ، كان الشيخ باختصار يلفظ حكم الله القوي القدير الجبار المتكبر شديد العقاب .

وانتشله من خواطره هذه المرّة نعيق مفاجيء ، فرفع عنقه . وكما حدث للعصفور حين رأى دموع الصياد ، أحس الفلاح بالاستبشار : ها هوذا غراب تائه يحطّ على صخرة من لونه . لا بد أن هناك مطرا في الغرب .

وفي الحقيقة كانت هناك سحابة زرقاء ملبدة عند الافق ، صبغت حواشيها حمرة قانية . كانت السماء في تلك البقعة كأنما أصيبت بجرح بليغ سال منه الدم وترك في وسطه كدمة زرقاء . واستروح الفلاح برئتيه شيئا رطبا باردا ، فامتدت أصابعه ذات العقد الى فتحة قميصه . أراد يائسا أن يؤكد هذه الحقيقة ، فتناثرت خيوط القميص نتفا كزغب الطير . كان كالمخنوق يستخلص رائحة الهواء . وأصاخ السمع ، ووهب حواسه جميعها الى أذنيه ، وتأهب لسماع قصف شديد : آه يا لكرم الله ! وهبت ريح طفيفة ، فخيّل له أنه يسمع شيئا . انه الرعد . فكوّر كفيه وبصق فيهما ريقا جافا ، وراح يجري الى الخلف كمن فوجيء بنصل حاد يوجه الى صدره ، فاصطدم كعباه

بحجر كبير ، وقع فوقه فسبب له ألما في نهاية عموده الفقري ٠ ولكنه نهض بهمة كبيرة واستأنف الجري وبيده النصاب وحده : لا بأس أيها المعول الخبيث، سأعلمك كيف تحب الارض ٠ سينزل المطر بعد قليل وسينصب جميعه على أرضنا ، ألم تدرك بعد ؟٠ هيا ٠٠ سأدق لك في الليل مسمارين طويلين جديدين ٠٠ لا تحزن ٠٠ سنعمل معا ٠٠ هيا ٠٠ غدا تمتلىء البركة ماء ٠٠ سنشرب ٠ وترتوي الماشية ونحسو الحليب الساخن ونشرب اللبن ٠ وشعر جدعان بأنه يحدث المعول بصوت مرتفع ٠ فأحس بالخجل ٠ ولاك اللعاب المترب في فمه الجاف وهو يحس بظمأ مفاجىء ٠ لا بأس ٠٠ ووصل هدير الرعد هذه المرة جلياً الى مسمعه ، فرنا بعينيه الىالغرب ٠٠ يالله ٠! ها هي ذي السحابة تتحرك ٠ وظهر قرص الشمس مدورا كبيرا باهتأ ٠ انه يتدحرج ليسقط وراء الجبل ٠ لا شك في أن صلاة الاستسقاء قد أتت أكلها : ان الله تواب رحيم ، وهو يغفر الذنوب جميعا ، انه سميع مجيب الدعوات ٠ حفظ جدعان كثيرا من الآيات خلال صلاة الاستسقاء التي أقامها الشيخ عبد الغفور بالامس ، وقد بكى الشيخ وهو يدعو الله ويتوسل اليه كي ينزل المطر ٠ ولاشك في أن الله رأى النساء يحملن جرارهن وسطولهن الفارغة مدليات أثداءهن العجاف ، يتضرعن الى السماء في ذل واستكانة ٠

ومط جدعان عنقه الى الغرب وراح يرقب السحابة وكأنها هبة من هبات الله المادية ٠ كانت تسير مع خط الافق من الشمال الى الجنوب : ستأتي كلها أو قطعة منها الى هنا ٠ لا بد من ذلك ٠ وأخذ يستعجلها بنبضات قلبه ، بلهاث أنفاسه ، ببريق عينيه ، وتمنى لو يقبض عليها بأسنانه ، بأظافره ، بشرايين قلبه ، ولكن السحابة تابعت زحفها الوئيد ، ثم ابتلعها الافق ٠

ولاول مرة أدرك جدعـان ـ باحساس يشبه الشماتة ـ أن الريح التي هبت هي ريح شمالية ٠ تلك الريح التي تطرد الغيوم وتحبس المطر ، وأحس بقشعريرة باردة تتواثب على سلسلة ظهره ٠ فامتدت أصابعه الى عنقه تحكم اغلاق الشق ٠ وأحس بمغص شديد يمزق امعاءه ، وصرخات مخنوقة تصدر عنها ، فرمى النصاب جانبا ، وحل شريط سرواله ، ومشى خطوة أو خطوتين ، ثم أقعى وراء حجر كبير ٠

ولما انتهى قذف بالحصاة التي مسح بها الى بعيد · ورفع الغراب رأسه مذعورا · فنعب نعيبا ساخرا ، ثم انتقل الى صخرة أخرى · وكأنه أبى أن يغادر المكان قبل أن يتأكد من أن كل شيء بات على أسوأ حال · ونهض الفلاح الذي استبشر بمقدم الغراب ـ وكان قد استراح من أزمة جوفه ـ وراح يحكم ربط سرواله ساهما في الغرب الضائع · فلاحظ ببرود شديد وهو يستطلع ذيول الشمس الغاربة نقطتين سوداوين تتجهان ناحية القرية ·

كانت النقطتان السوداوان تتدحرجان على الطريق الترابية الموصلة من قريــة (ازرع) ، يبتلعهما منخفض لينتشلهما مرتفــع ، وراحتا تقتربان ساحبتين وراءهما سحابة غبــار رمادية ، مثيرتين لغطاً وضحكاً صاخبــين · واتضحت لجدعان وسط تلك الضجة أصوات حوافر خيل تدق الارض بانتظام· ودقق النظر بانتباه ، فشاهد أن كلا من النقطتين قد أصبحت علامة خاصة تشبه علامة الضرب الحسابية الى حد بعيد · ها هوذا صليل المهاميز · البنادق ·· السياط ·· طبعاً هذا ما ينتجه الرعد الخلّبي ·· انه يعني القحط · ثم الثعالب والذئاب ·· ثم الدرك · البلاء يجر بعضه بعضا · فلو لم يأت الذئب مساء الامس لما جاء الدرك الآن ·· و ·· فرقع سوط على حين غرّة ، وصهل أحد الحصانين واختفى الدركيان في أسوار القرية السوداء ·

· · ·

ان أحجار قرية « الصيرة » سوداء حتى في وضح النهار ، لا ·· بل ان لون القرية يشتد قتاماً كلما ارتفعت الشمس · وهــذه القرية التابعة لقضاء (ازرع) تقع في منخفض من الارض بين ثلاثة سهول وتعدّ جزءا لا يتجزأ من أراضي « اللجاة » الشديدة الوعورة ، ذات المرتفعات والاغوار الحجرية البركانية المنخورة · وقرى هذه الاراضي تخالف القاعدة المتبعة : أن القرية توجد حيث يوجد الماء والشجر ، أو أن الشجر والماء يوجدان حيث توجد القرية ، وذلك لان المنطقة تفتقد الماء والشجر معا ·

واذا أراد المرء أن يبحث في اللجاة عن شجرة ، فعليه أن يسأل أحد الرعاة المعمّرين الذي لا بد أن يكون يوما ما ضاع في مجاهل هذا التيه · فهناك مثلا شجرة بلوط تحدّت البراكين وظلت صامدة تنتصب في العراء كما ينتصب

تمثال حي لجندي مجهول • ويقال أن من تفيأ ظلها مرة لن يصيبه الهرم في حياته ، وذلك اذا أسعفه الحظ ونجا من الافاعي والثعابين التي تحرس الشجرة في دائرة قطرها مدى قذيفة حجر متوسط الحجم • وقرية الصيرة هذه تنفرد بصفة عجيبة ، وهي أن المرء لا يجدها حتى يصبح في داخلها ، وذلك اذا صادف والتقى فيها بحي من الاحياء • فهي أولا تستريح في منخفض صغير ، وثانيا — وهذا أكثر أهمية — أنها لا تشبه القرية بأي وجه من الوجوه • والشيء الذي يسميه البدو (صيرة) عبارة عن أحجار مصفوفة بعضها فوق بعض على شكل حاجز دائري بارتفاع صدر الرجل العادي ، ومهمتها ايواء الماشية ليلا • ويبدو أن الراعي — الوافد الاول الى هذا المكان — كان قد بنى لنفسه ولزوجته — لا شك ان كان له زوجة — هذه الصيرة في يوم من الايام ، ثم تولت الطبيعة بعد ذلك تحطيم ما أمكن ثم تثبيت الباقي منها • وتناسل آدم وحواء في صيرتهما هذه التي أطلق عليها فيما بعد صفة القرية وأصبح فيها قابيل وهابيل ونسلهما • وقرية هذا شأنها يمكن للمرء في سهولة أن يخمن بالتقريب الظروف التي يعيش فيها الآدميون • اضافة الى ذلك فقد أهل الى الصيرة ذات يوم شخص غريب يرتدي ملابس خاصة ، ونزل بضيافة فلاح ميسور الحال ولكنه سيء السمعة وكان شابا اسمه (صالح الذياب) • وقد استطاع هذا الغريب أن يستولي على أراضي القرية الصالحة للزراعة مستغلا سذاجة وفقر الساكنين ، وبعدها صار ذلك الغريب يسمى (شوكتبك) • وبهذا كسب لقبا رفيعا بالاضافة الى حصوله على الاراضي • وما ان مضت سنتان على وجوده في القرية حتى رهن البقية الباقية من صخور القرية لحسابه الخاص ، وذلك لقاء بذار وخروق وحاجيات راح يبيعها للساكنين بموجب سندات مبصوم عليها بالابهامين عجز المدينون عن ايفاء أثمانها • وكان صالح الذياب المضيف هو الوسيط الاول في تمليك القرية الى من أصبح (بيكا) ويقال أيضا أنه أصبح شريكا له ، وفي جميع الاحوال فقد تكفل القحط الذي تعاقب في السنين الماضية باختفاء البيـك عن المكان • غير أن شبحه ما زال جاثما على الصدور ومخيماً في كل بقعة • فالارض هي أرضه ولا يمكن ارجاعها بأي حال من الاحوال • وزادت سنو القحط هذه الفلاحين اقتناعا بألا فائدة ترجى من استعادة الارض • وتضاءلت أهمية استيلاء ذلك الغريب على القرية وجعلت ذلك أمرا لا يستحق الاهتمام •

• • •

حمل جدعان العبد الله ـ أحد آدميي القرية ـ معوله ـ النصاب والرأس كلاً على حدة ـ واستدار راجعا الى مأواه ، متحاشيا أن يفكر بشيء • كانت جميع الاعتبارات تقوده لان يصر بأسنانه ، وهـذا كل ما كان بوسعه أن يفعله • وكان يفكر : البنت فهدة زوجتي وليست زوجتي • البنت فرحة أختي وليست أختي • النعاج لي وليست لي • وأمي والحمار بين بين •• حتى أنا نفسي لا أدري من أكون •

وفجأة •• وكان قد وصل الى بيادر القرية واتته فكرة مجنونة ، ولكنها معقولة في الوقت نفسه ، فهي تشبه كل شيء • ياالله •• فكرة مجنونة ومعقولة كيف يمكن هذا •؟ ما أهمية العقل اذن اذا كان هو الجنون •! نعم •• فليس هناك أمر وسط • حتى ان الله ذاته : انه تواب رحيم وشديد البأس والعقاب • وتساءل في حيرة : ترى هل نحن مذنبون !؟ أنا بمفردي مثلا ، هل أنا مذنب ! هل أكون مذنبا اذا تمسكت بحقوقي ولم أتنازل عن شيء منها • واذا كنت غير مذنب فكيف ينتقم اللهمني ! الله يحبس المطر عن الناس لانهم مذنبون ، وأنا لست مذنبا فلماذا أتحمل العقاب مع الآخرين ؟ يقولون ان الرحمة مخصصة والبلاء عام •• ما معنى هذا ؟

لاول مرة في حياته راح الفلاح جدعان العبد الله يناقش في نفسه فكرة العدل • وقادته هذه الفكرة الى تعليل جديد : لكي يتحقق العدل يفترض أن يكون الناس كلهم صالحين • وبما أنه يستحيل ذلك فلن يكون هناك عدل • وفجأة أحس بظلم فادح يأكل أعماقه • وحين وصل الى نهاية البيدر توقف قبل أن يقفز سوره الواطيء • وأدركه فجأة ما يشبه اليأس • وتصور فجأة سوط الدرك يهوي على عنقه : فلأهرب •• ولأصبح وحيدا •• فلأغادر القرية وأترك كل شيء ••

كانت هذه هي الفكرة الخارقة التي تملكته أثناء اجتيازه البيدر • انها فكرة مجنونة ومعقولة • فماذا عليَّ أن أفعل في القحط ؟ سأموت مع البهائم • وستموت أمي والحمار وسأموت أنا بعدهم • سادفن أمي بعد أن أراها تتضور من الجوع • والحمار سينهق مستنجدا دون أن أستطيع نجدته • نعم •• يجب أن أستدير ثم أولّي الأدبار • واذا أمكن لزوجتي فهدة في المستقبل أن تتخلص من المشكلة فستكون لي • انها بنت طيبة • لا •• بل يجب أن

أخذها معي الآن ، سأخطفها خطفاً وليحدث شجار جديد ، وليكن ما يكون ٠ سأدافع عن نفسي ٠ ان لي لسانا ، لا يلوك الطعام فقط بل يتكلم ويبصق ٠ أما اذا تدخل الدرك و ٠٠ وتوقفت أفكاره عند هذا الحد ، عند هذا السور الأملس الشاهق ٠ صحيح ٠٠ اذا تدخل الدرك في غير صالحه فماذا يكون موقفه ؟ وعادت فكرة النزوح تراوده في الحاح متواصل ، دون أن يحس بأن قدميه لم تتوقفا عن السير ، وتخطى الحجارة قُدما ٠

كانت السماء الزرقاء الصافية تعمل على تأخير الظلام الذي بدا متردداً في نشر ظله على الارض ٠ ومن حوله ـ بين الاحجار الكبيرة ـ كان بعض العائدين من الحراثة يطأطئون رؤوسهم خيبة وحسرة ، ويهمهمون ويتمخطون٠ لم يكن أي منهم يلتفت الى جانب ٠ يخبطون الارض بأقدامهم العارية ويفكرون ولا شك ب : هل نحن مذنبون حتى يجازينا الله ؟٠ كان هذا السؤال مشرعاً فوق أعناق الجميع كسيف الجلاد ٠ وكان انحباس المطر وانقشاع السحابة الخلّبية دليلا ساطعا على غضب الله ٠ وعلى هذا بات كل واحد منهم لا يرى غير وقع قدميه ، وهو يجر نفسه وراء دابته أو ظله ، متحاشيا أن يرفع رأسه المثقل باللعنة الابدية ٠ كل منهم يجرّ نفسه وكأنه عائد الى زنزانة ليقضي فيها وحيدا أيامه الطويلة ٠

والواقع أن كل شيء في الدنيا كان يوحي بهذه الصورة ٠ فالقرية باتت كمدفن مقفر ٠ يرين عليها الصمت الاخرس المترقب ٠ فلا صرخة طفل ، ولا زقاء ديك ، ولا ثرثرة عجوز ، ولا ثغاء ماعز ، حتى ٠٠ ولا رائحة دخان ٠ جمود مطبق يلف كل شيء ٠ ولو كان الوافدون غرباء ، لأسرعوا في النكوص قبل أن يتلقفهم المجهول الذي ينيخ بكلكله على كل ظل ٠ ولكن الافكار ظلت طليقة ٠ كل من العائدين يرجع بأفكاره الى أيامه الماضية ـ والتي بدت اليوم كأنها غابرة ـ الى السنين الخوالي ، أيام الخير ، الايام التي كانت فيها السماء تتلبد بالغيوم الواطئة ، ويعصف الرعد ثم يهطل المطر ٠ كان العائد من الحراثة يلتقي حينذاك بالقطيع في أوبته من المرعى ، وتشنف أسماعه جلجلة الاجراس في أعناق النعاج ٠ وبين الفينة والفينة يثقب غشاء المساء نداء (سعدو) الراعي الضرير ، وهو يلوح بعصاه المتيدة ، داعيا عنزة شاردة لتعود الى القطيع ٠ وكانت البنات يتصايحن ويتسابقن وراء الابقار المتخومة

المتورّمة الأثـداء ، يتخاطفن الروث الحار قبل أن تسقطه من مؤخراتها على الارض ، ليجبلنه بأيديهن وأقدامهن ويصنعن منه أقراص الجلة • أشياء أخـرى وصور كثيرة محببـة اختفت باختفـاء المطر ، ولم يبق هنـاك غير النكبة المرتقبة •

تسلق جدعان العبد الله كومة من الاحجار ، ثم اجتاز فناء واسعا ، وقبل أن يحني رأسه ليعبر كوّة مظلمة ، التفت ناحية المعلف ليعرف ما اذا كان الحمار قد أفسح مكانا للبقرة ، هذه البقرة التي لا يعرف الآن لمن ستكون • فهي له وليست له • انها كزوجته فهدة وكأخته فرحة لا يستطيع بالدقة أن يعرف مصيرها الغامض • وسأل صوت مرتجف انبعث من شيء يتكوّم في ركن من أركان « المغارة » يشبه خضيض ماء في قربة :

ـ ابنتي فرحة !•

فبحّ جدعان بنبرة خشنة باردة :

ـ أنا جدعان ••

وخفت الصوت من جديد :

ـ آه جدعان •• يا حظي انت •• راحت فرحة ولم تعد • أرسلتها وراءك طلبك الشيخ نواف •• لا أدري ••

وتهدج صوتها • انها سريعة البكاء :

ـ قلبي يقول لي •••

وقاطعها الابن في جفاء صار طبيعيا في الآونة الاخيرة :

ـ لا يهمك •• أعرف •• رأيت الدرك منذ قليل •• و •• سمعت سوطهم يفرقع •

وعادت الام ترجف صوتها :

ـ جدعان •• يا حظي •• سيأخذونك ولن أراك •• يا ضوء عيني ••

وهذه الام لم تر ابنها منذ عشر سنين ، أو على الاصح فقدت رؤيته شيئا فشيئا •• غاب عن ناظريها كما تغيب الغيوم ، تبعاً لخفوت ضوء عينيهـا الكليلتين • انها تشير دائما الى هذه الناحية من طرف ايجابي : دعني أراك ••

ارني ٠٠ رأيتك ٠٠ ولكنها عمياء ، أشد عمى من صرصور المطابخ ٠ وفتح أمام العجوز المجال الواسع لتحرك لسانها أقوى اعضائها ، ها هوذا مخلوق تتحدث اليه ٠ وراحت تلوك أحزانها فيشراهة كبيرة ، وتمتصها في نهم ٠ شرعت تتحدث عن عواطفها تجاه ولدها ، وعن حظها العاثر ، وعن الله والملائكة والرسل والدرك والشياطين ٠ ثم تنتقــل الى أحزانها وأفراحها الغابرة ٠ زوجها أبيها زوجة أبيها ٠ ومن طفولتها الى شيخوختها ، راحت تقنز فوق الايام والسنين وعشرات السنين ٠ راحت تشتم وتتنخم وتبصق وتدعو له وعلى أعدائه ثم على الناس جميعا ٠ أنفاسها تتلاحق في حشرجة ورتابة ، وصدرها يعلو ويهبط كالمنفاخ ، وكان حلقها الذي نبا عنه الكلل يلوك العبارات ويغترف من معين لا ينضب ٠

وقف جدعان الابن وسط الفراغ عملاقا صامتا يكاد رأسه أن يرفع أحجار الكهف المحدبــة السوداء ٠ كان متعبا ضيق الصدر ٠ وما لبث أن جعر في نفاد صبر :

ــ أين السراج ؟٠

والسراج هو الشيء الوحيد الذي يتذكره جدعان وحده في هذه الاسرة الصغيرة ، فالعجوز اعتادت الظلام ، والاخت فرحة لا يهمها بأي مقدار أن ترى أمها أو أخاها في النور ، فهي تفضل طوال الوقت أن تقبع فوق بقايا بساط من جهاز أمها المتيد ، تحك رأسها حتى تنام وهي مكوّمة في مكانها ، وذلك بعد أن ألمت بها مصائب جسيمة ٠

ومدّ جدعان يــده فوق مصطبة ترابية فعثر على شيء ٠ وبعــد لحظة خشخش الثقاب وتصاعد من علبة قصديرية صغيرة داكنة لسان أحمر متفحم ، راح يتطاول حتى لعق أحجار السقف ٠

ان اسم غرفة يطلق على حيّز محصور بين جدران وسقف ، غير أن المكان الذي راحت تتراقص فيه أشباح سوداء لم يكن له جدران أو سقف بالمعنى المتعارف عليه، أي بالمعنى الذي تدل عليه هذه التسميات ٠ ولم يكن خلاء أيضا ، غير أنه كان شيئا على أية حال ٠ فالاشياء التي لم تعرف حتى الآن يصعب تسميتها ٠ فالمكان هنا عبارة عن أحجار متراكم بعضها فوق بعض بلا نظام ، تشكل حيزا يحتاج الى تخطيط جديد ليصبح بيضوي الشكل ، تعلوه قنطرة

واطئة تصدم رأس الرجل العادي اذا وقف مستقيما · تتعانق أحجارها بطريقة ما ، وكأنها تمسك بعضها مذعورة كيلا تسقط على الارض الترابية المرصوصة ، حيث تبعثرت : قطع خروق وسخة ، وأكياس منسوجة من شعر الماعز ، وطاسة نحاسية ذات تضاريس ، وجرة ماء فارغة كانت بأذنين ، ومعجن ما يزال يحمل آثار عجين سنين تاريخية ، وبقايا أشياء كانت فيما مضى ذات مدلول · وفي الزاوية امتد لحاف يمط لسانه الى امعائه المندلقة ، وبساط فتح فمه الكبير وحملق في السقف بثلاث عيون مستطيلة ·

وصمتت العجوز ريثما تسعل سعالا شائكا ثم تذكرت شيئا · كان ابنها يسأل عن السراج :

ـ آه ·· السراج ·· اليك هو يا نور عيني ·· اليك هو ·· انه هناك الى اليمين ·

وحاولت النهوض ، وهي تفعل ذلك دائما ولدونما حاجة · ولكنها ما تلبث أن تهوي وتتمدد كقربة مليئة بالزيت · وتشرع بتحريك جفنيها التوتيين المتورمين المشدودين الى وجنتيها بالرمص · كان السراج قد أضيء منذ فترة ولكنها ظلت تنخر :

ـ اليك هو ·· ألم تجده ؟· انه هناك ·· سأريك اياه ·· أشمله ·· اشمله يا ولدي لأراك ·

وراحت تهز ركبتيها ذات اليمين وذات الشمال ، مستندة عليهما بذراعيها ، وقد ظهر منهما كوعيها الخشنين كالآجر · ورأسها ـ بعصبته الكبيرة المتفككة ـ يرتفع وينخفض ، كرأس حمار الناعورة عندما يطرد الذباب عن عينيه · كانت تهتز وتنوس بوجهها المغلق الجامد ، وكأنها تنتظر بفارغ الصبر ليضاء السراج وتلمح ظلا لهذا الكون المجهول · وشخرتْ من خلال أنفها المزكوم :

ـ ستهطل الامطار الليلة ، أليس كذلك يا ضوء عيني يا جدعان ؟ لن ينسانا الله ·· لن ينسانا ·· قادتني فرحة بالامس لأشترك بالصلاة ·· الله رحيم ·· رأيت الشيخ عبد الغفور وهو يتضرع ·· وكانت سليمانة هناك بالقرب مني ·· خذ ·· يا ولدي ·· خذ هذا الرغيف ما يزال ساخنا ·· خبزته هذا الصباح ·· خذ ·· تعشَّ ·

ومدّت الى الفراغ حلقة مدورة سميكة من الخليط(1) · ثم تنحنحت

---

(1) الخليط عبارة عن ذرة وشعير وحبوب اخرى يطحنها الفلاحون ويصنعون منها خبزا ·

وابتلعت محتويات أنفها بصوت مسموع • وعادت الى ثرثرتها التي لا تنتهي :

ـ وفرحة أصبحت عارية حاشاك •• بانت ركبتاها من السروال •• رأيت ذلك بعيني •• لا •• لمستها بيدي وأنا افحص بطنها •• أوه •• يجب الا أقول لك هذا •• ولكن عفتها تمزقت أيضا ، أصبحت امرأة بعد أن رجعت الينا •• وكبر نهداها و ••

وابتلع جدعان جزء من اللقمة في ضجة • وقال وهو يمضغ البقية :

ـ وأنا أيضا •• الست عاريا ؟•• ألم تبحث لي عن الشملة والعقال ؟ انها فقط تذهب لـ •••

وأمسك عن فضح شكوكه • ثم أردف بعد أن عض من الرغيف عضة كبيرة :

ـ انك لا تعرفين ما تفعله طوال النهار ، تغيب حتى الظهر ثم ترجع لتأكل كالدابة وتغيب مرة ثانية ••

وصاح فجأة وقد عجز عن مقاومة الشك :

ـ أنا أعرف أين تذهب •• أعرف ••

وهز رأسه في وجه أمه مؤكدا اتهامه ، وأجابت الام بنبرة متوسلة شاكية :

ـ لا تصرخ هكذا يا حظي •• لا تصرخ الله يجبر خاطرك • أشفق عليها يا ولدي •• أنت أخوها الكبير •• لم يبق لها أحد بعد أن فعلوا بها ما فعلوا •• آه يا ربي •• أنا داخلة عليك •• ابنتي الصغيرة يا ضوء عيني •• آه ••

وصر جدعان بأسنانه : ابنتي الصغيرة ! نسيت منذ لحظة أن فرحة أصبحت امرأة وكبر نهداها • انها تناقض نفسها دائما •• وتثرثر لغير فائدة ، حبأ بالثرثرة فقط وتنسى ما تقوله على الفور • وهي تكذب أيضا • ولربما هي تتستر على أشياء تعرفها كل المعرفة • أشياء فظيعة ومخجلة • وزمجر جدعان بصوت يائس :

ـ عهر • طغمة عهر ••

وناحت الام :

ـ بريئة •• وحياة ربك بريئة ••

ومضغ جدعان الكلمات مع الخليط :

ـ انك لا تفعلين شيئا سوى أن تدافعي عنها ٠٠ لماذا ؟ وتحبينها أيضا برغم كل ما جرى ٠٠ وتغفرين أخطاءها التي أدت بنا الى ما نحن عليه ٠٠

وشكت الام نادبة :

ـ يتيمة يا ولدي ٠٠ انها يتيمة وأرمل و ٠٠

وقاطعها جدعان في غيظ :

ـ وهل تطعمنا فوق ذلك خبزا ؟٠ يتيمة وأرمل ثم ماذا ؟٠ أليس لها يدان وقدمان ؟ أنا أيضا يتيم وأرمل ولكني أطعمكم ٠٠

وزمجرت الام مستنكرة :

ـ تطعمنا ! لا تكفر يا ولدي لا تكفر ٠٠ الله هو الذي يطعمنا ٠٠ ابن آدم بعوضة لا يستطيع أن يطعم أحدا ٠٠ ابن آدم فلاح ٠٠ فلاح ٠٠ وماذا يفعل الفلاح ؟٠

وهز الابن رأسه : ماذا يفعل الفلاح !٠ وماذا يفعل الله أيضا ؟٠

انه يحبس المطر استغفر الله العظيم ٠

وتذكر الدرك ، فغمغم ساخطا :

ـ الدرك الآن يطلبونني الى يوم الحساب ٠ ماذا يفعل الفلاح ؟٠ انه يتعب ويشقى ثم يجلد ويموت ٠٠ هذا كل ما يفعله ٠

وصمت عندما لمح شبحا يتسلل من الكوة ٠ كانت فرحة تدلف في سكون ٠ ووقفت في منتصف المكان حائرة تحك رأسها بأصابعها العشر ٠ كانت تطاول أخاها قامة ، برغم أنه يكبرها بعشرة أعوام ٠ وتظاهرت بأنها متعبة فراحت تصدر أنفاسا سريعة خلال صدرها المتوثب ٠ ولعلها أرادت أن تكسب عطف أحد أو تتستر على ذنب اقترفته ٠ وتمتمت العجوز في لهفة :

ـ فرحة يا كبدي ٠٠ أراك تعبانة ٠٠ تعالي الى حضني ٠٠ تعالي ٠٠

وأجابت البنت بنفس متقطع :

ـ وصل الجميع لبيت المختار ٠ والدرك يضربونهم ٠٠ سمعت صياح قاسم ونايف وهما يسترحمان و ٠٠

وانتحبت الام • وصرخ جدعان دون توقع :

ـ أين كنت يا زانية ؟•

كان احساسه وهو يلفظ كلمته وكأنه يلقي متفجرة على كل ما بقربه • واجفلت البنت ، ولم تكن تنتظر مثل هذا اللقاء ، والآن بالذات • كانت تحاول أن تشغل أخاها بمشكلته • فزمت شفتيها وبانت على وجهها على ضوء السراج مسحة حزينة ، أحالها الضوء الباهت المتراقص الى ما يشبه تعابير اجرامية مقيتة • وخلصت أصابعها من شعرها وهي تموء في خنوع :

ـ أرسلتني أمي وراءك •• طلبوك للتحقيق ••

وكشّر جدعان عن أنيابه ، وردّ في بحة غريبة :

ـ أعرف •• طلبوني للتحقيق •• والدرك هناك •• رأيتهم وسأذهب اليهم بلا دعوة • ولكن •• أنت أين كنت ؟ في أي ماخور ؟•

وهمّ بالحركة • وتدخلت الام • وكانت حاستها السادسة قوية •

ـ جدعان •• لا تجن •• انها صادقة •• أنا أرسلتها وراءك • يا ملائكة • وانفجر الابن بصوت ممطوط :

ـ أعرف •• أرسلتيها ورائي •• ولكنها لم تأتي لعندي • فهي تعرف أين أكون دائما •• وأنا أعرف أين تذهب هذه الـ •• أنا لست جحشا •• أنا أعرف •• هه •• وسأجعلها تعترف الآن أمام عينيك ••

ورفع يده دون أن يحرك جسده • وجذب شعر أخته البارز من تحت العصبة ، فتهاوت البنت حول نفسها كثوب بال • وفكر خلال حنقه الشديد غير المفتعل : متى اصبح جسدها بهذه اللدونة ؟• وصرخت الفتاة صرخة مدوية • واستطال لسان السراج المتفحم وشرع يلعق السقف في جشع • واختلط صراخ الام بصراخ الابنة • وبينما راحت أظافر وأسنان الابن تعمل في لحم الفتاة بلا رحمة ، مدت الام ساعديها ما وسعهما الامتداد ، فلم تقعا على شيء • تشبثت بادىء الامر بطرف اللحاف ، ثم بالطاسة النحاسية ، فحملتها وحاولت النهوض ، فاصطدم ظهرها بحجر ناتيء من الجدار • فتأوهت • ثم استأنفت القيام • واتجهت ناحية الصراخ • وقبل أن تهتدي الى مكان ولديها ، كانت الدماء قد لوثت الارض ، وصراخ الفتاة انقلب الى أنين متقطع • وظهر تحت نور السراج لحم فخذيها ومؤخرتها أبيض شاحبا كالشمع •

• • •

(٢)

كانت تعتمل في صدر جدعان العبد الله وهو في طريقه الى يوم الحساب ـ كما أسماه هو نفسه ـ مشاعر عنيفة ومتلاحقة ، اذا فحصت جميعها في عناية ، لما أمكن أن يوجد بينها أي شعور يدعو الى الارتياح : طقس ينبىء بالقحط الشامــل ، مشاجرة الامس اللعينة وما قد تسببه من مضاعفــات ، المسؤوليات المترتبة عليه تجاه الارض المرهونة ، ثم أخته فرحة التي صب عليها جام غضبه وحنقه دون أن يتشفى تماما ٠ وبالرغم من أن دار الشيخ نواف ـ مختار القرية وامامها والمتمتع بالسلطات المحلية كافة ـ لا تبعد كثيرا ، نظرا لصغر رقعة القرية ، فان الافكار الجمة التي راودت رأس الشاب وهو في طريقه اليها ، كانت من الكثرة والتشابك على نحو يجعله يردد في نفسه عن قناعة : ان العيش هنا أصبح مشكلة لا يمكن احتمالها ٠

كان يتخطى الصخور السوداء ، ويتسلق الجــدران الواطئة تحت غبش الظلام ، ليمثل أمام رجال الدولة ٠ ولم تكن أفكاره تنحصر في هذه الناحية ، فالاسباب شغلته عن النتائج ٠ وخطرت له فجأة خاطرة غريبة : ـ وكان قد أصبح قيد خطوات من مضافة المختار ـ انني ذاهب عن طيب خاطر لأضرب ضربا مبرحا ، ولأهان أشنع الاهانات ، وأنا مكتوف اليدين لا أفعل شيئا سوى الاجابة وتلقي السياط ، فلماذا لا أهرب وأستريح ! ان سكان القرى المجاورة كلهم يذهبون الى المدن دون أن ينتظرهم ما ينتظرني ٠ فلربما يستطيع الانسان هناك أن يحافظ على الرمق بالرغم من أن السبل المؤدية الى ذلك محاطة بكثير من الغموض ٠ ولاول مرة أسعفه احساس بالتحــدي : فليكن ما يكون ٠٠ هأنذا و ٠٠ وجد نفسه يجتاز الفناء ٠

كانت مضافة المختار لا تختلف من حيث الجوهر عن بقية بيوت القرية ، الا من ناحية أنها واسعة ومستقيمة الجدران ، كسيت أحجارها السوداء بطبقة سميكة من الطين الاحمر ، ويمكنها أن تتسع لحوالي خمسين نفساً ، وهذا أكبر عدد من الناس يمكن أن يجتمع فيها · حفرت في وسطها حفرة مستطيلة الشكل تستعمل كموقد تصطف فيه دلاء القهوة في المناسبات ، فرش في صدرها بساط من اللباد والى جانبه عدلان من شعر الماعز ، وفي الاطراف المؤدية الى الباب يتدنى نوع الفرش حتى يصبح أرضا · والغرباء عادة يحتلون الصدر ، والباقون يحتلون الجوانب حسب مكانتهم وأعمارهم الى أن يصل الترتيب الى النساء فالاطفال فالكلاب ·

وصاح طفل عار الا من أسمال :

ـ جاء جدعان العبد الله ··

وتدافع الصبيان الحفاة الى الخلف ، في حين قال جدعان في نفسه : لا بد أنني تأخرت · ورفع كلب مقطوع الاذنين رأسه الى الاعلى وهو يرجف ذنبه الامعط ، ثم حاد عن الطريق · وارتفعت الى القادم أنظار الحضور في بلاهة غريبة ، في حين أحس جدعان بأنه أمسى في قفص ·

كان رجلا الدولة يحتلان صدر المضافة يضطجعان على فراش واطيء ، يفصل بينهما مرتفع من الوسائد يتكئان عليها · وكانت أحذيتهما الطويلة السوداء ذات الطماقات العالية تمتد الى الامام حتى تصل الى الموقد ، وبينهما تمددت ألسنة السوط الجلدي ظامئة الى سائل حار لتلحسه في نهم ، وفوق الوسائد تربعت عمرتان سيئتا الصنع ولكنهما ترمزان الى رفعة المقام · والى الجانبين اصطف رجال القرية حسب التسلسل الآنف الذكر · وفي المنتصف أمام الموقد جلس الشيخ نواف المختار العتيد · كان حوالي الخامسة والستين ، في وجهه الترابي الداكن لحية قصيرة بلون الرماد وشاربان مبعثران معقوفان الى الاسفل في اهمال · وفوقهما أنف كبير واسع الفتحتين يطل منهما شعر حاد كشعر الخنزير البري ، وكانت عيناه كعيني ثور تراقبان الدخان المتصاعد من الموقد ، ويداه الكبيرتان المتخومتان تعبثان بأباريق القهوة التي أتى الرماد والنار على أشكالها وألوانها الاساسية · وكن يبدو من خلال صدره العاري وعقاله المائل الى الخلف وقدميه الحطبيتين وحركات رموش عينيه ، كرمز لابليس الطيب الذي استعاد منصبه على الارض بعد أن طرد من الجنة ظلما وعدوانا · وكانت كل

نأمة من نأماته توحي بأنه خلق ليكون خادما للقانون أيا كان واضعه ، وأنه قد أفلح فلاحا تاما بهذه المهمة السامية ٠

صاح أحد الدركيين :

ـ جدعان العبد الله ٠!

وانتصب جالسا مهيئا نفسه للعمل ٠ كان يضيء القاعة التي وقف جدعان في نهايتها فانوسان هوائيان يجتمعان معا في الامسيات الخاصة ، ويعلقان في السقف الحجري الواطيء ، تتطاول ألسنتهما الشيطانية الى الاعلى وهي تتراقص رقصات حمراء على أنغام مزمار يعزف في الخفاء ٠ وكان الحاضرون حتى هذه اللحظة صامتين يحدقون أمامهم في وجوم وكأنهم في معبد مقدس ، يرددون في صدورهم صلوات خرساء ٠ وحين صاح الدركي باسم جدعـــان ، دبّت الحياة في صدور المصلّين ، فارتفعت رؤوسهم فجأة بايقاع منسجم وحطّت على قسمات الشاب الذي تقدم خطوتين، تطبع قدماه العاريتان مقاييسهما على الارض اللينة المرشوشة حديثا بالماء ٠ وثبّت الدركي قلمه ذا النوع الرخيص على صفحة الورق المسطر : الاسم ٠ الكنية ٠ التولد ٠ الشرح ٠٠ الخ ٠ بينما ظل الآخر محافظا على وقاره وكأنه آمر حضيرة يرقب التنفيذ دون أن يطرف له جفن ٠ وقد بدا لاول مرة ـ حين انتصب مرؤوسه جالسا ـ أن على ساعده شارة سوداء مفتوحة الى الاعلى ، يفهم منها أن صاحبها ذو مقام معيّن يصعب فهمه أو تحديده على العقول البسيطة ٠ وسأل الدركي الاول بلهجة تنم عن الخطورة البالغة :

ـ ما هو اسمك المظبوط ؟٠

واهتزت رؤوس الحاضريـــن برعشة خفيفة ، وكأن أمخاخهم في داخلهـــا تخبطت كما تتخبط الأجنّة في الارحام ٠ وعملت عقولهم في عصبية لتدرك كنه هذا السؤال الذي مهما تعذبت لا يمكن أن تجد له جوابا : المظبوط ! المظبوط ! المظبوط !٠ وكان بين الحضور شيخ على قدر لا يستهان به من التجارب والتعلّم وبعد النظر ويسمونه (الخجا) ٠ فهو يقرأ الطالع ويفسر الاحلام ، وينقّب بكتبه الصفراء البالية على الدوام ٠ حتى هذا الخجا على سعة اطلاعه ، اعتراه شك مفاجيء : ربما كان لهـــذا الشاب اسم آخر نجهله نحن البسطاء أصحاب المعارف السطحية ٠ وعلى الرغم من أن الخجـــا حضر ولادة جدعان ، واشترك بتسميته بهذا الاسم وسجله في الدوائر الرسمية وعند المختار ، بالرغم من ذلك كان دهشا عندما أجاب صاحب العلاقة على السؤال ببلادة مستطيرة :

ـ جدعـان ٠

وتنحنح العسكري وقد عبّرت ملامحه عن أنه اكتشف سرا خطيرا ذا أهمية بالنسبة له على الاقل ٠ وأمسك بالقلم ، ودقق في تأمل في وجه المستجو ب ، وكأنه يقارن بين الاسم والمسمى والعلاقة بينهما ٠ ثم كتب على دفتره شيئا ٠ وما لبث أن رفع رأسه :

ـ اسم أبوك ؟٠

وهنا ردد الحاضرون في حمية وبنبرة واحدة تقريبا بما فيهم المختار وجدعان وصبيان في المؤخرة ، وأم علي وصبحة ونبح كلب في العتبة وارتجفت ذبالة الفانوس وطقت حطبة في الموقد :

ـ عبد الله ٠٠

كان الاسم حقيقيا لا يقبل التأويل أو التساؤل ٠ واستعاد الخجا ثقته بنفسه ، فرفع يده الى لحيته وراح يشدها في ارتياح ٠

ـ اسم أمك !٠

وهنا أجاب المختار وجدعان فقط ٠

ـ مزنـة ٠

وتوقف الدركي عن الكتابة مفكرا ٠ وسأل في حيرة :

ـ مز ٠٠ نـا ٠٠

وهز المختار رأسه في رزانة وهو يسحب ملقط النار :

ـ نعم يا سيدنا مزنه ٠٠

وردد الدركي مغمضا عينيه نصف اغماضة : مزنه ٠٠ مزنه ٠٠ مزنه ٠٠

وتدخل عريف الدرك آمرا :

ـ اكتب مزنه ٠٠ ميم زين نون هاء ٠٠

وأجاب الدركي في انضباط :

ـ أعرف يا سيدي كيف أكتب مزنه ٠ ولكن ما هذا الاسم ؟٠

كان الدركيان يكنّ كل منهما لصاحبه نوعا من العواطف يختلف عن تلك العواطف التي يظهرانها أثناء التحقيق ٠ فهما ينامان في غرفة واحدة ٠ ويأكلان من القصعة نفسها وعلى السرير نفسه ٠ وليس بين أحدهما والآخر

في صفوف الخدمة الا فاصل ضئيل جدا من الناحية المرتبية · بل انهما في تسلسل الرتب في صف واحد هو صف الافراد · الا أنهما في الخارج ـ وحفظا لقدسية الهيبة ـ هما رئيس ومرؤوس · والوقار والهيبة يجب ألا تخدش حرمتهما ، أما فيما بينهما فقد تنتهك أعز المحرمات · ولربما أحنى هذا الدركي راس عريفه مئات المرات ودس أنفه في الرغام ، لاسباب غاية في البساطة : كان يكون أقوى منه جسديا ، أو أقل منه بخلا ، أو يتصدق عليه مثلا بسيكارة رخيصة ، وبعد ذلك يسمح لنفسه بأن يسب جده الاكبر ، وذلك اذا كان له جد طبعا ·

وتوقف التحقيق عند هذه المعضلة : مزنه ! ما هذا الاسم ؟ ويمكن تجاوز فكرة أنهما يضيمان الوقت ليحصلا في وقت متأخر على عشاء فاخر · وفي هذه المرة لم يتنطح أحد من الجلوس لنجدة رجلي الدولة · قد يكون القرويون على قدر مستفيض من البساطة ، وقد يكونون على قدر أوفر من حب الظهور ، الا أنهم أمام هذه المشكلة صمتوا جميعا · هل هو مكر ؟ وهبّ العريف لنجدة مرؤوسه :

ـ مزنه ·· ألا تعرف معنى مزنه !·

وتحركت شعيرات شعثاء في آذان الشيوخ تستعد للاصغاء : ماذا سيقول العريف ؟ كيف يضع لها تعريفا !؟ ولكن الدركي مهما قيل فيه فهو لا يسمح لأحد بأن يصفه بالغفلة ، فاذا فُرض أنه لا يعرف معنى تسمية من التسميات فانه يتخلص من المشكلة بطريقة ليست ذكية بقدر ما هي مبهمة ، دون أن يتنازل قيد انملة عن عرش المعرفة والاطلاع · ودون أن يفكر ولو لحظة واحدة قال العريف :

ـ اكتب مزنه ·· ماذا يهمك أنت ؟·

ثم نطق حكمه اليقيني :

ـ ان القرويين كثيرا ما يسمّون أسماء غريبة لا معنى لها ···

لفظ العريف حكمه وهو على يقين من أنه اذا لم يكن ينثر الدرر فهو يقرر ما يجب أن يكون لا ما هو كائن · وتنحنح المختار بطريقة لها معنى وسوّى من جلسته · وزفر الخجا ذو الخبرة بيأس ، وعطس رجل آخر في ضجة مثيرة ،

وتململ آخرون في مواضعهم • وسجلت برغم أنوفهم حقيقة أبديــة : أسماء القرويين كثيرا ما تحمل تعابير ليس لها معنى •

وانتقل الدركي الى العمود التالي ، السن : وصاح مغيظاً :

ـ عمرك !• كم عمرك ؟•

وثار الجدل لاول مرة • يوم الفيضان • أيام العاصفة • حين هجم الضبع • وقرر المختار في رصانة :

ـ أظنه أصغر من ابني بخمس سنوات ، فاذا كان ابني الرقيب •• لفظ هذه الكلمة في عزم وفخر :

ـ اذا كان ابني الرقيب في الثلاثين ف •••

وسجل الدركي متمتماً ما يكتبه :

ـ خمس وعشرون •

وعاد يسأل بنبرته التأديبية :

ـ مكان التولد •• أين ولدت ؟••

كان جدعان يقاوم نعاسا مفاجئاً ، اذ لم يجد في الاستنطاق ما كان ينتظره من أمور مثيرة • وسمع صوتا يجيب عنه :

ـ ولد هنــا •

وتمتم الدركي وهو يكتب :

ـ الصيرة قضاء ازرع •

كان جدعان واقفا بين الموقد والدركيين ، وكثيرا ما تحاشى أن تصطدم قدماه العاريتان بالمهاميز المسنونة • وكان يبدو بسرواله العريض المرقوع رقعة كبيرة في مؤخرته ، وبقميصه الازرق المتهدل من جراء الشق ، وبندبة جبينه الدامية ، وبرأسه العاري المنفوش الشعر ، كان يبدو بهذه السمات كانسان شق عصا الطاعة على كل الاعراف والقوانين و المجتمعات • ومن سوء الحظ أن كشف الرأس عند القرويين يعتبر مروقا ، واخلالا بأبسط صفات الآدمي • ولكن ماذا كان بمقدوره أن يفعل وغطاء رأسه الوحيد فُقد في مشاجرة الامس • أما الجرح الدامي في جبهته فقد زاد الامر سوءا ، اذ لا يمكن تصوّر اله الاخلاق الطيبة وفي جبينه الغر ندبة حمراء •

والواقع لم يكن جدعان العبد الله بالرجل الذي يكرهه أحد من الاهالي ، او يكنّ له عاطفة سوء • كان فلاحا عاديا لا يسترعي الانتباه ، الا منذ أشهر قليلة عندما تزوج فهدة بنت صالح الذياب مبادلة بأخته فرحة التي أخذها قاسم أخو فهدة • وما تبع ذلك من مشاكل وتعقيدات أدت به في النهاية الى أن يقف هذا الموقف الذي لا يحسد عليه •

وفي اللحظة التي رفع فيها الدركي راسه ليسأل سؤالا جديدا ، شوهد الخجا يطوح بسبحته الطويلة التي صنعت حباتها المائة وواحدة من بزر الزيتون ، وانتقلت الانظار اليه فأشار بأصابعه العشر اشارة الصلاة • ولو ازف يوم البعث لكان المردود أقل استجابة • اذ قام المختار مجفلا ، فكبّر وشهد وأقام الصلاة ، وتغيّر ترتيب المضافة تغيّراً تاماً • نهض الشيوخ والكهول لأداء الفريضة ، وانسحب الشبان الى درج المضافة يبحثون القضية على مستوى شخصي• ومن حسن حظ الدركيين أنهما كانا يحتلان الناحية الغربية من المضافة، فلم يصبهما شيء من التبديل الطارىء الا بالقدر الذي يسمح لهما بأوفر قسط من الراحة ومناقشة الامور التي تهم المعدة • ولبث الأطفال والكلاب على أوضاعهم يصوبون أجفانهم المتورمة الى صدر القاعة ، منتظرين ما ستتمخض عنه هذه الجلسة المهيبة •

أما جدعان فقد انتهز الفرصة وجلس على الأرض مطرق الراس تداعب مخيلته أنامل النعاس ، يرمق بين الفينة والفينة ألسنة السوط التي يحمل صمتها ألف لون ولون من التهديد والوعيد • كان المختار يجهر في قراءته ، والدركيان يتمتمان ويضحكان ، ولكن جدعان لم يكن يستمع الا الى هرير نفسه : وبعد ذلك ؟ ما هي التهمة التي ستوجه لي ؟ وكيف أدافع عن نفسي ؟ وخلال ذلك كانت تتناهى الى أذنيه بشكل غامض أسماء أنواع عديدة من الطيور ومشتقاتها وطريقة اعدادها للمائدة ، الا أن ذلك مع قدرته على اثارة القابلية ، لم يحرك ذرة من لعابه •

وفي هذه الاثناء كان سعدو الراعي الضرير ــ الذي أصبح حارس القرية وخادم المختار ــ يطرق باب أم جدعان :

ــ عمة مزنة •• عمة مزنة ••

ويجيب صوت نائم :

ـ من ·· جدعان ··؟

ويرفع سعدو رأسه الصغير ويصرخ في السماء المطرزة بالنجوم :

ـ نريد ديكاً كبيراً ليتمشى الدرك ··

وتبكي العجوز ، وتتلوى على نفسها وتتحسر، ثم تفتح الباب وتمد يدها في الظلام فتقع على اذن الراعي القزم فتشده منها :

ـ أيها الجرو ·· انك لا تأتي الا بالبلاء ·· سمم الله راحتك ··

ويضحك الراعي وهو يمد ساعده الجاف الى ثوب العجوز :

ـ وما ذنبي أنا اذا كان الضيوف لا يأكلون غير الدجاج ··؟

وتندب العجوز :

ـ الله يأخذك ويأخذ الضيوف ·· لماذا لا يتسممون من بيت المختار ··؟

وتصل أنامل سعدو الى بطن العجوز ، فيدغدغها ويصرخ بضحكة ثاقبة ، محاولا أن يصيبها بالعدوى :

ـ جف لحمك نهائيا يا عجوز النحس ··

كان الضريران يتخطيان حوش الدار في الظلام · وتتذكر العجوز شيئاً :

ـ وجدعان قل لي ماذا فعلوا له ؟

ويجيب سعدو محاولا اثارتها :

ـ يقال أن جلده السميك قد أصبح جاهزاً ليحشوه تبناً ··

ولا تنفعل العجوز ، ولكنها ترد رداً منطقياً :

ـ وذلك اذا وجدوا هذا التبن ··

ويصلان الى الخم ، وتنحني العجوز أمام فوهته المغطاة بقطعة قصدير :

ـ ليس عندي غير فروج صغير ··

وينحني سعدو بجانبها محتجاً :

ـ أريد ديكاً كبيراً ، لا تنسي معدات الدرك ··

وتمد العجوز يدها الى الداخل ، وتسحب فروجا دون أن تخطيء فتسحب دجاجة ، وتتمتم بسخط :

ـ ·· أبوك وأبو الدولة ·· خذ ·· لا ترني وجهك ··

• • •

وينتقل سعدو الى دار صالح الذياب ، ثم الى بقية الدور ، وكل ديك يحصل عليه كان يدفع ثمنه سيلا من الشتائم والسباب ·

ـ تقبل الله ··

ـ منا ومنكم ··

ـ تقبل الله ··

ـ منا ومنكم ··

وقرئت الفاتحة وارتفعت الأكف الى الجباه ، والتأم شمل الحاضرين عدا قليلا منهم ذهبوا ليناموا مع زوجاتهم ثم يعودوا ·· ونهض المختار ، فوزع القهوة مكررة على الدركيين وفرادى على الشيوخ من الرجال ، ثم جلس قرب الموقد يسوي وضع النار التي أشرفت على الخمود · واستقرت الانظار على جدعان الذي عاد الى الوقوف آملا أن يتقرر مصيره بأسرع وقت ممكن ·

ومال الدركي بجذعه الى الامام وسعل بضع سعلات ثم بصق في الهواء ، فاستقرت البصقة أمام أحدهم · وقلب الدركي دفتره · ثم تجشأ :

ـ ام ·· فلنعد الى أعمالنا ·· جدعان العبد الله ··

وطرف جدعان أجفانه في وجه الدركي وغمغم :

ـ حاضر ··

وقال الدركي في نبرة تربوية :

ـ اسمع يا بني ·· احك لنا القصة من أولها الى آخرها ·· ولكن انظر ·· دون كذب ·· نحن نعرف الحقيقة ·· ايوه انتبه ··

وتناول السوط وراح يقلبه في الهواء ·· وفكر جدعان : من أين أبد ؟ ترى ماذا قال قاسم وأبوه صالح الذياب · ولأول مرة لاحظ بأن لا وجود للرجلين بين الحضور ·· وهنا أحس برجفة تمتري أوصاله · اذا كان الدركي سيأخذ بأقوالهما فستقع الطامة الكبرى على رأسه وسيخسر كل شيء ·· ويبدو أنه استغرق طويلا في خواطره ، مما حدا بالدركي أن يلقي بسؤاله المتيد :

ـ قل ·· النعجة التي أكلها الذئب لمن ··؟

وذهل جدعان · لم يكن ينتظر أن يسير التحقيق بهذا الشكل الاعرج ،

النعجة والذئب ٠٠ فالقضية ليست قضية ذئب ونعجة ٠ واذا كان قاسم الصالح قد سئل هذا السؤال فمعناه أن أصابع خبيثة قد بدلت وجه القضية من أساسها ٠ ولا بد أن يكون قاسم قد ادعى بأن النعجة القتيلة هي لي ، لانه يطمع باسترداد الغنم والبقرة ، اذن بماذا يترتب علي أن أجيب ٠٠؟

وهداه تفكيره الساذج : ينبغي أن أقول عكس ما يقوله غريمي على طول الخط ٠ وأعاد الدركي سؤاله نافد الصبر :

ـ مالك خرست ٠٠؟ ألا تفهم عربي ؟ أقول لك النعجة لمن ؟

كانت النعجة له لو بقيت اتفاقية الزواج سارية المفعول ٠ وهي الآن له أيضا ما دام أن خرق الاتفاقية لم يسوّ بعد ولن يسوى الى الابد ٠ فالمرأة لن تعود عذراء ٠ وأجاب جدعان بعد أن قنع باستنتاجه الاول : يجب أن أقول العكس :

ـ يا سيدي ٠٠ النعجة لقاسم الصالح بدليل أنها كانت حامل ، وقد شوهد جنينها في أرض الحوش عقب هرب الذئب ٠٠ وأنا لا أملك غير ثلاث نعاج لم يشم الخروف الياتها حتى الآن ٠٠ و ٠٠

وأراد جدعان أن يستطرد غير أنه توقف فجأة ، فقد انتصب الدركيان جالسين في اهتمام بالغ ٠ ان تعبير « الخروف لم يشم الياتها » كلمة عادية عند الفلاحين ، اما بالنسبة للناس الآخرين فهي تثير فضولهم لسماع التفاصيل الدقيقة جداً ، وتجمح بخيالهم حتى تجعل الوجه يحمر خجلا ٠

وهنا تكلم العريف لاول مرة ٠ كان شاباً نحيل البنية أبيض الوجه دقيق التقاطيع ، ذا شعر أشقر مرجل بعناية ، وشاربين رفيعين مفتولين بكثير من الصبر ، وباختصار كان من أولئك الشباب الذين يدللون أنفسهم ويتفرغون في خلواتهم للتفكير في الامور الغرامية المستعصية الحل ٠ كان يبدو في الخامسة والعشرين من عمره ، الا أن تولده يثبت أنه أكبر من ذلك بكثير ٠ قال العريف :

ـ اسمع يا ولد ٠٠ ان قاسم الصالح يقول أن له عندك أربع نعاج ، وأول أمس تسلل الذئب الى حظيرتك وفتك بنعجة ، نريد أن نعرف هذه النعجة هل هي لك أم لقاسم ؟

ورد جدعان دون أن يحاول اصلاح معلومات العريف عنسبب وجود نعاج قاسم في حظيرته فتمادى في الخطأ • قال باختصار :

ـ النعجة له ••

كان يتوق الى انهاء التحقيق دون سرد التفاصيل ونبش المخازي التي ترافقها ، ولكنه لم يكن مستعداً لأن يتنازل قيد أنملة عن مكاسبه • ومع ذلك كان يكذب ، فالنعجة القتيلة هي له •

وهنا عاد العريف الى الكلام وقد شاقه أن يسمع التعليق الطريف الذي أورده جدعان في المرة السابقة :

ـ طيب •• وما الدليل •؟

ولم يحصر جدعان أفكاره في مشتهيات العريف ، ولكنه أدرك أنه يريد منه العودة الى تعليله الأول لسبب بدا له مجهولا • فردّ بغموض :

ـ ان قاسم يعرف الدليل •

وخاب أمل العريف ، فأمال ظهره الى الخلف وعاد الى الاستناد على الوسائد ، مفسحا المجال لعبقرية الدركي الذي يعرف هوايات رئيسه ، والذي يهمه أن يشبعها في أية مناسبة • واستلم الدركي زمام الموقف • كان ضخم الجثة ذا بطن معتبر وطول لا يستهان به ، وساعدين مفتولين يمكن للسوط بينهما أن يستنفذ جهد طاقته • وصاح وهو يتناول السوط بحركة مسرحية :

ـ والآن سنبدأ العمل ••

وركّز أنظاره على الندبة التي تنزّ في جبين المتهم :

ـ ما سبب هذه الندبة •؟

وردّ جدعان بحرون :

ـ لا أدري •• أصابتني حجر أثناء الشجار ••

ـ ومن هم الذين تشاجرت معهم •؟

وفكر جدعان : هل أذكرهم كلهم ••؟ والنساء أيضا ••؟ وصمت • وهنا أخذ المختار وضعية معينة ، مستغلا ظرفاً مواتياً ، وتنحنح قبل أن يقول :

ـ يا سيدنا أنا أقول لك •• عندما تحدث هنا مشاجرة يشترك بها الاهالي كافة •

واستعرض المختار الحاضرين بنظرة اتهام شاملة ثم أضاف :

ـ والمشاجرة التي حدثت أول أمس كان أفرادها لا يقلون عن عشرة مقابل عشرة ، رجال ونساء وأطفال و ٠٠ وكلاب حاشا السامعين ٠٠ فريق ضد فريق ٠ وأنا (وكأنه اراد أن يبرىء ساحته) وأنا منذ زمن طويل كنت أريد أن أذهب لاشتكي ٠٠ غير أني ظللت أمتنع أملا في أن تنتهي هذه المناورات الوحشية (تعلم هذا التعبير من ابنه الذي يعمل رقيباً في الجيش) أنا يا سيدنا لا أتهم أحداً بالذات (أحس أن له ضلعا في الحوادث) غير أني لا يمكن أن أسكت ٠٠

وتنخّم بعنجهية ثم بصق في الموقد ، وأهال على البصقة كمية من الرماد ، وانتشرت من النار رائحة بصل ، فاستدرك فورا :

ـ ولكن يا سيدنا ٠٠ (كانت عيون الساهرين الكابية قد حدجته بنظرات مستطيرة) أتعشم من الآن فصاعداً ألا يعودوا الى المناورات الشيطانية ٠٠ خاصة وأن الشيخ عبد الغفور أنذرهم بأن الله شديد العقاب ٠٠ وانهم ٠٠ اننا كلنا مذنبون ٠٠ من أجل هذا حبس المولى عنا المطر ٠٠ استغفر الله العظيم ٠٠

ويبدو أن خطبة المختار لم تفعل فعلها السحري في رأس الدركيين بالقدر الذي فعلته في رأس الخطيب ، فمال أحدهما على الآخر وسأله هامسا :

ـ هل ننهي هذا التحقيق الذي ليس له رأس من ذنب ٠؟

وأجاب العريف هامساً متخذاً هيئة خطيرة :

ـ العشاء لم يحضر بعد ٠٠ دعنا نتسلى ٠٠

بينما ظن المختار أنهما يتشاوران في أمر على مستوى من الأهمية ٠ وهنا استقام الدركي واقفاً وهو يشمر أكمام سترته ، ورفع السوط بيده المكسوة بالشعر :

ـ ما دام أهل قريتك هكذا فهم بحاجة الى تأديب ٠٠ طيب ٠٠ ولنبدأ بهذا ٠

وتراجع جدعان خطوة الى الخلف مراقبا يد الدركي في احتراس ٠ وصرخ الدركي في حنق مفتعل :

ـ أنت ضربت قاسم الصالح وأخاه سليم ٠٠ أجب فوراً لماذا فعلت ذلك ؟

وردّ جدعان وكأنه يحدث السوط :

ـ لأنهما هما بدأا بالضرب ٠٠ وقد شجا رأسي وخطفا شملتي وعقالي ٠٠

ـ وما هو السبب ۰۰؟

ـ لأن ۰۰ لأنهما ۰۰

وصمت ۰۰ سيحدث ما كان يخشاه ، ان تتفتق خيوط القضية ويظهر عريها المخزي ۰

وصرخ الدركي جاداً :

ـ لأنهما ماذا يا بغل ۰؟

وفكر جدعان : الى الشيطان بكل شيء ۰ وأجاب :

ـ من أجل النعاج ۰۰

ـ ولماذا لا تعطي الناس غنمهم وننتهي من هذه المسخرة ۰؟ أين قاسم هذا الحمار الثاني ۰۰؟

وتململ جدعان في وقفته ، كانت السنة السوط قد بدأت في الارتعاد ، ولم يجد بدأ من أن يغامر قائلا :

ـ القضية ليست قضية غنم يا سيدي ۰۰

ـ قضية ماذا اذن ۰؟

ـ قضية ۰۰ قضية ۰۰

وأراد أن يكمل ، لولا أن انقضت الضربة الاولى ۰ وبلرغم من أنه تلافاها برفع ساعده ، الا أن ألسنة السوط نشبت في ظهره وتمزق قميصه على الفور ، وبان جلده يحمل ثلاثة خطوط بيضاء ، هرب الدم منها لحظة ثم ما لبث أن عاد ليتجمع فيها ۰ وصاح الدركي في حنق وهو يرفع السوط من جديد :

ـ قضية ماذا يا ابن الكلب ؟ لم لا تعطي الرجل حيواناته ؟

ولم يجب جدعان ، عرف بأن هناك مؤامرة كبيرة قد حيكت ضده ، واستطاع أن يجعل الضربة الثانية تسقط على مؤخرته ۰ وأطلت رؤوس الموجودين متوجسة خائفة ۰ وتنطح المختار ليمثل دور الملاك المنقذ ، ولكن الضربة الثالثة كانت أسرع منه ۰ ومدّ جدعان يده الى عنقه لينزع عنه السنة السوط التي التفت حوله وراحت تعصره ۰ كان قد أحس بالاختناق ، وبالنار

تكوي ظهره وعنقه وعينيه وتخترق دماغه ، وتجلّد كثيرا كيلا تبدر منه آهة ألم • وعاودته حالة التمزق التي كانت تنتابه في الاوقات العصيبة ، وانفجر في أعماقه ذلك الدوي الرهيب : ما سبب هذا كله ؟

ودخل قاسم الصالح وقد استدعي من داره للمرة الثانية • كان قد استجوب في البداية ، واستطاع بتدريب والده ـ ولسبب سيظهر فيما بعد ـ أن يوجه التحقيق وجهة أخرى ، غير الوجهة الطبيعية التي كان يجب أن يتخذها • فلو أن القضية جرت في مجراها الطبيعي لكان الوالد في أوائل المتهمين ، ولن ينجو المختار نفسه من السقوط في حبائل الاتهام •

كان صالح الذياب قد درّب ابنه قاسم ـ في تهوس يقرب من الجنون ـ على شرح القضية من ذنبها ، وحصرها بين الذئب والنعجة فقط لا غير ، وعلّمه كيف يجيب ، وما هي الردود التي ينبغي له أن يقتصر على ذكرها • وقد لاحظ الابن كما لاحظ جميع أهل القرية ، أن الرجل بات في الآونة الاخيرة شاذا غريب الاطوار ، ميالا الى الصمت كثير التنقل لا يقر له قرار •

ووقف قاسم الى جانب جدعان • وفكّر الدركيان : ان هذا شاب نظيف وكامل اللباس فمن الصعب أن يكون مخطئا • كان وقوف الغريمين متجاورين يدعم هذا الاعتقاد ، أحدهما عاري الرأس بندبة وأسمال والآخر بشملة نظيفة نسبيا ، وصدرية حريرية وحذاء • ووجّه الدركي السؤال الى قاسم ، مقررا أن يكون جوابه هو فصل الخطاب :

ـ لماذا لا تأخذ غنمك من عنده ؟ هل رفض أن يعطيك اياها ؟••

وفوجىء قاسم بالسؤال الذي لم يكن يخطر له على بال ، والتفت الى الخلف باحثا عن أبيه الذي رافقه الى التحقيق مرة ثانية ، فلم يجده • وأصاب الابن ذعر قاتل ، وصرخ على الفور :

ـ يابا صالح •• يابا •• الحقوه سيقتل نفسه ••

كان الاب قد توارى ما ان لمح السوط بيد الدرك ، وظهر جدعان ينزف دما •• وتسمّر رجل الدرك في مكانه مبهوتا • ولكنه قرر الانتهاء من هذه المهزلة مهما كانت النتائج ، وصاح غاضبا غضبا حقيقيا :

ـ اسمعوا يا أولاد النحس •• انكم تتعبونا وتتعبون أنفسكم •• (وصرخ

في وجه قاسم) لماذا لا تأخذ شياطينك وتريحنا ؟ (ثم في وجه جدعان) وأنت يا ملعون يا ابن الملعون القنف له بنعاجه وخلصنا بجاه الانبياء ٠٠ العمى ٠٠ ما هذه الليلة الوسخة ؟ (ثم الى المختار) مختار ٠٠ اذهب الآن بنفسك واعط الرجل نعاجه والسلام ٠ أما النعجة التي أكلها الذئب فهي نصيبه ٠٠ الآخر يجب أن يعيش ، فهي رزقه المقسوم ٠٠

ولكن المختار تسمّر في مكانه أيضا دون أن يحر جوابا ، ووقف الرجال الثلاثة أمام الدركيين جامدين كالتماثيل ، وحملق الحاضرون وحبسوا أنفاسهم ثم انقضت الصاعقة :

نهض الخجا ذو الخبرة الواسعة ، طاويا مسبحته ذات المائة حبة وحبة ـ وكان يرتدي عباءة من شعر الماعز ، وقد احترق شارباه الأشيبان ونصف لحيته من جراء الدخان والتدخين ـ وتقدم الشيخ من الدركيين المصعوقين ، وقرفص بين أقدامهما ، وراح يهمس في آذانهما ٠ فيما أخذت أعين الرجلين تتسع وتضيق وأمارات وجهيهما المتوترة تنمّ عن شتى الانفعالات ٠ وفجأة صرخ العريف صرخة مدوية :

ـ الى المحاكم يا عفاريت سيدنا سليمان ٠٠ اذهبوا الى المحاكم يا سفلة ٠ يا متوحشين ٠٠ يا قليلي الشرف والمروءة ٠٠

ثم استلقى على وسائده منفجرا بضحكة عصبية رهيبة ، جعلت الحاضرين جميعهم يدركون خطورة القضية وتعقيداتها ٠ وكل منهم راح يحدث نفسه : لا شك أننا مذنبون ٠

• • •

(٣)

عندما أنهى قاسم الصالح خدمته العسكرية ورجع مكتسبا قدرا كافيا من الجرأة ، طلب من والده أن يزوجه · ولم يفاجأ الاب بهذا الطلب ، لانه في جميـع الاحوال يعرف كيف يتصرف ، وعنـده الحصانة المضمونة ضد المفاجآت ·

كان قاسم طويل القامة ، رقيق العود ، ذا وجه صبوح ، تنم تقاطيعه عن التبلد والراحة · كما تدل كفاه الناعمتان نسبيا ولباسه الكامل النظيف على أن علاقته بالارض ليست على ما يرام · تجاوز الثانية والعشرين بقليل وخط لنفسيهما شاربان ناعمان مكاناً تحت أنفه · وكان قد واكبه الحظ خلال خدمته العسكرية ، فأمضى معظمها حاجبا لأمّار السرايا الذين تعاقبوا على قيادة سريته ، فلم يصبه ما يصيب المجندين عادة من متاعب التدريب ومشاق الحراسة الليلية والسير الطويل · كما استطاع خلال هذه المدة أن يلم الماما محسوسا بالقراءة والكتابة · وكان رد الاب على طلب ابنه مطاطا غير قاطـع :

ـ انتظر الآن يا تيس ·· هل يتزوج أحد في بداية هذه السنـة المنحوسة ؟

ولم يصغ الابن الى موعظة والده ؛ فلم تكن تهمه سنوات القحط أو سنوات الخير · ان ما كان يهمه بالأحرى هو أن ينال مأربه · فهو لم يعرف طعما للجوع ، ولم يسأل نفسه في يوم من الايام ما هي قيمة الرغيف · كما أنه لم يعمل في الارض الا في المناسبات التي يكون فيها بحاجة الى تسلية ،

فأبوه يستطيع أن يستأجر على مرّ الايام عمالا زراعيين بثمن أخت واحدة من أخواته ، اللواتي قبض ثمن زواج كل منهن قطعة أرض أو ماشية أو عملة نقدية أو كلها جميعا ٠

وحين لم يصغ الابن الى موعظة والده ، راح ينقّ آناء الليل والنهار كما ينق الطفل للحصول على دمية من مطاط ٠

ـ يابا ٠٠ زوجني فرحة العبد الله ٠ يابا ٠٠ الله يرضى عليك فرحة العبد الله ٠٠ يابا ٠٠ الله يطول عمرك ٠٠ يابا ٠٠

ولما وجد الابن أن أباه يسخر منه ومن رغبته ، هدّده بأنه اذا لم يزوجه الفتاة فسيخطفها ويهرب بها الى مكان مجهول ، ثم يعود بها امرأة وعليه أن يتحمل النتائج ٠ واستهان الاب ـ الذي كان يتمتع بجلد تمساح ـ بقيمة تهديدات ولده المتدلل ولوّح بيده في الهواء متشدقا :

ـ افعل ما يحلو لك يا ابن الزنـــا ٠٠ على أن لا تجعلني أخسر شيئا ، والا قصفت رقبتك ورقبتها ٠

وخرج الابن قاسم شاتما ، لاعنا أباه بصوت مسموع ، مما جعل الاب يضحك في خشونة ملء صدره العريض ٠

كان صالح الذياب كهلا في الستين من عمره ، يحمل وجهه على جودته آثار الجدري ٠ يملك ثلاث زوجات أنجبن له خمس بنات ، زوّج أربعا منهن فأصبح يملك أرضا كبيرة ، وبقيت الخامسة واسمها فهدة ٠ كانت فهدة ابنته من امرأته الثانية التي اشتراها بثمن بخس وراح يعاملها كسائمة حتى أنجبت له بنتا ، وعندها أكنّ لها شيئا من الاعتبار ، على أمل أن البنت ستكون لها قيمة وسيزوجها بالثمن اللائق ، وبذلك تكون الام والبنت قد أدتا واجبهما في هذه الحياة ٠

الا أن البنت شبّت سيئة الطالع ، كسيرة الفؤاد ، تحمل ملامح أمها ونفسيتها الذليلة ، وتخطف من أبيها بعض صفاته العضوية الخشنة ، بالاضافة الى تشويه في قدمها اليسرى سبب لها عرجا ، يجعلها حين تمشي تميل الى الامام وكأنها تهمّ بالسجود ٠ فخاب أمل الاب فيها وأهملها اهمالا تاما ، حتى أصبحت في الخامسة والعشرين من عمرها دون أن يجسر أحد على أن يدفع ثمنها ولو دجاجة ٠

كان صالح الذياب يعرف أن طلب يد ابنة قريبه فرحة سوف يكلفه غاليا وهو الخبير بهذه التجارة السوداء • فبنت صغيرة تتمتع بمزايا تصرع قلوب الشباب ، سيكون ثمنها باهظا يجعله يخسر الكثير • وكان قد اصطحبه شريكه السابق (شوكت بيك) مالك القرية في جولات عديدة الى البلدة تعرّف فيها على صنوف من اللهو واللذائذ • عدا عن أنه مارس في شبابه أعمالا معينة أتاحت له فرصا للكسب غير المشروع •

وكانت فرحة العبد الله في الخامسة عشرة من عمرها • فتاة ممشوقة القوام بيضاء البشرة موردة الخدين ، يحيط جبينها الناصع شعر أنيق لامع السواد • في عينيها سحر نائم أو نعاس ساحر ، ويطرّز ذقنها العريضة وشم بديع • يفصل بين شفتيها المليئتين شق صغير يجعلهما مضمومتين بتمرد وتزين أنفها الدقيق (زميمة)(١) زرقاء مضيئة تتلاءم مع فتحتي أنفهـا الطفولي • كانت أملود الساقين ، ريّا المعاصم • عبلَة الساعدين ، يتفجر في صدرها نهدان ناضجان يرفعان ثوبها الذي ترتديه على اللحم من فوق أصابع قدميها ، بينما يتدلى من الخلف حتى يلامس الارض ، وبالاجمال كانت فتاة تخطف القلب •

كانت فرحة لبساطتها لا تعرف مستواها الجمالي ، برغم الظنون التي تقول انها مغرورة وأن غرورها يضفي عليها جمالا صارخا محاطا بسياج • ولكن ظهور قاسم الذي كان سريع العطب ، جعل الفتاة تدخل عالما جديدا غريبا عن مداركها كل الغرابة • فقد جعلها تكتشف في عينيه أنها أنثى نادرة المثال ، وقد وضع عينيه تحت تصرفها على الدوام •

واتسعت حدقتا الشاب وراحت الفتاة ترى فيهما صورتها التي أخذت تسكرها قبل غيرها • وقد حاول قاسم أن يغريها بالهرب والزواج بها سرا ، غير أنها نظرت اليه نظرة معينة جعلته حائرا لا يفقه شيئا • كانت على الرغم من بساطتها وغرورها الوليد وصغر سنها ، تعزف عن المغامرة ، وتكره تلك اللعبة التي يسمونها الخطف والفرار ثم المصالحة ، وذلك لسبب بسيط جدا ، هو أنها لا ترى في العملية كلها ما يشوقها أو يدعو الى الاغراء ، وليس في الامر ما يهزها أصلا •

---

(١) الزميمة بفتح الميمين وسكون الياء ، حلية رقيقة كالحلق الذي يزين الاذنين توضع في فتحة الانف •

كانت فرحة تمانع في الهرب مع قاسم ، ولكنها لم تكن عازفة عن الزواج به • هكذا كما يتزوج خلق الله • والحقيقة أن مشيئتها كانت معطلة • فعندما تقول : تزوجني اذا أردت ، فلأنها تعرف بأن زواجها أو عدمه ليس بيدها بل بيد أخيها جدعان • أما مسألة الحب فهي أمر لا يمكن أن يخطر لها على بال • كانا يلتقيان دائما ، اما في الطريق الى بركة الماء ، أو في حوش دارها عندما يكون أخوها مشغولا بالحراثة • وكانت في أغلب الاحايين تستعمل عينيها أكثر من شفتيها ، وكان قاسم يظن بأن طريقتها هذه هي نوع من الحذر والاحتراس ، وصار بالممارسة يعرف ـ أو يخيل اليه ـ ما تعنيه بايماءة خفيفة ، وعلى هذا فقد أصبح يملك قاموسا طافحا بالكلمات التي كانت تطرف بها عيناها السحريتان • غير أن ما كانت تعنيه كان يختلف الاختلاف كله • فهي لم تكن تفكر أبدا ، ولكنها كانت تحس احساسا خاصا ، فبالقدر الذي كانت ترى فيه صورتها في عينيه أشد فتنة كانت تشعر بالرضى عن نفسها ، وكأنها هي التي تصنع نفسها على الشكل الصحيح • وفي الوقت الذي كان فيه قاسم يظن بأنها تنسج نفسها ثوبا ليرتديه ، وأن الثمرة تحلو وتنضج ليقطفها ويمتص عصيرها في نهم ، في هذا الوقت كانت هي تقول في نفسها : لا بأس في أن يكون لي قريب أسمه قاسم واذا تزوجني يوما فسيكون زوجي وأكون زوجته ، وهذا كل شيء ••

ولم يكن خافيا عن شباب القرية ولا بناتها أن هناك علاقة ما بين قاسم بن صالح الذياب وبين فرحة العبد الله ، قد تكون علاقة واهية جدا تكاد أن لا تلاحظ ـ فهما أقرباء بالدرجة الاولى ـ الا أنه كانت هناك علاقة على كل حال • ولعل الشخص الوحيد الذي كان عالما بماهية هذه العلاقة هو أخوها جدعان • كان يعرف أخته حق المعرفة • ويعلم أن لا شيء في هذه الدنيا يمكن أن يستهويها أو يضايقها • فهي ـ كآية سائمة ـ تفتقر الى ملكة الخيال • كان مقودها في يده ، حتى وان أطلق لها العنان فلا يمكنها أن تخرج عن الخط الذي رسمته لها حياتها القاحلة • كانت تغلب عليها صفة اللامبالاة ، تلك اللامبالاة الطبيعية غير المحدودة أو المنظورة ، لدرجة أنه يصعب تعريفها • كان لا يهمها شيء ، وقلما تفرح أو تحزن ، وما كان

اكتشافها لفتنتها في عيني قاسم ليضفي عليها سمة جديدة غير التسليم بهذه الحقيقة : يبدو أنني يجب أن أكون هكـذا ٠٠ واذا كنت غير ذلك فلن أكون أنا ٠٠

• • •

ذات يوم تقابل صالح الذياب مع قريبه جدعان العبد الله وهو في طريقه الى الحراثة ٠ وبدت المقابلة في حينها مصادفة ، الا أن الشيخ كان قد أعد لها مشروعا ومخططا واسع التفاصيل حتى تمت بالشكل الذي بدت فيه ، ويبدو أن كلا منهما لم يكن يحفظ للآخر ودّا أو ذكرى طيبة ٠ كان جدعان في غبش الفجر يسوق أمامه حماره الذي يجرّ آلة الحراثة ، وما أن تخطى البيدر الغربي حتى فوجيء بفلاح ينهض من وراء كومة أحجار وهو يرفع ثيابه وقد ابتعد ثوراه يجران المحراث على سجيتهما ٠

وبادر جدعان الرجل بالتحية :

ـ صبّحك الله بالخير ٠٠

ورفع الرجل رأسه وقال بدهشة بدت طبيعية جدا :

ـ آه ٠٠ ابن أخوي جدعان ؟٠٠

ورافق الشاب وهو يربط سرواله ٠ وكان لجدعان ميل طبيعي الى الصمت ، الا أن الرجل لم يحترم هذا الميل ٠ قال عاتبا :

ـ ولماذا لا نراك يا ابن الحلال ؟٠

ورد جدعان بصوت لم يجمد بعد ولكنه دهش قليلا :

ـ والله يا عمي الحراثة كما ترى ٠٠ اني أذهب في الليل وأرجع في الليـل ٠

ورد العم بنبرة جعلها شفوقة :

ـ الله يكون في عونك يا ابن أخوي ٠٠٠

ودخل فجأة في لبّ الموضوع ٠ فقال ببراءة الثعلب النباتي :

ـ وفرحة لماذا لا ترافقك ؟٠

وأجاب جدعان بايجاز دون أن يخطر له أي خاطر :

ـ لا أدري ٠٠ انها عند أمها ٠٠

ـ كيف تدفن نفسها مع العجوز الضريرة ؟ أصبحت صبية كما سمعت ٠ الا تمون عليها ؟

وشخر شخرة مسموعة وهو يضيف :

ـ يجب أن تتعلم من الآن كيف تخدم الرجل فلا بد أن يأتي نصيبها ذات يوم ٠ البنت التي لا تشتغل لا تساوي بصلة ألا تعرف ذلك ؟٠

وصمت جدعان ٠ وتنهد العم مضيفا :

ـ يبدو يا ابن أخوي أنك تهملها ٠

وعجب جدعان من هذه اللهجة الودية وبالتالي من هذه النصائح البالية في حين أضاف العم :

ـ ان فرحة كما سمعت لا تلتفت الى متاعبك ولا يهمها غير الاكل والشرب والنوم ٠ والفلاّحة يجب أن تعمل كالجحش لتصبح ذات قيمة ، والا بارت كما تبور العنز الجرباء ٠٠ حاشاك ٠

ولوى جدعان عنقه الى جانب ٠ كان راغبا عن بحث هذه المواضيع من اساسها ٠ صحيح أنه كان يدّخر أخته الى يوم سيأتي في حينه ، الا أنه لم يشأ ذات مرة أن يتساءل : كيف ستتم الامور ٠ غير أن العم عاد الى نصائحه مفوّضا نفسه حق الكلام على أنه الوصي (العائد) :

ـ اسمع يا جدعان ٠٠ أنا أعرف عن فرحة أكثر منك ٠٠ أعرفكما منذ كنتما ترضعان الحليب ، وتأكلان التراب حتى صرتما بهذا القد ٠ صحيح ان أباك لم يكن يحبني (وتنحنح) الا أنني أنا والله ٠٠ وحياة محمد وكل الانبياء حتى تصدق ، اني أحبكما كأولادي ٠ ولو ٠٠ أنا صالح الذياب وأنتما ولدا صاحبي ورفيق صباي ٠

وصمت الرجل ليستمع الى رد الفعل الاول ، فاما أن يسترسل ، أو ان يغيّر خطة التسلل ٠ ورد جدعان :

ـ والله يا عمي أنا لا أعلم شيئا عن عداواتك السابقة مع أبي ٠٠ غير اني أراك أنت وأولاد عمي تترفّعون علينا وكأننا نحن من طينة وأنتم من

طينة ٠٠ والفقر ليس عيبا ٠ اذا كان والدي لم يخلف لي غير أرض صغيرة والآن مرهونة ، واذا كانت أمي قد عميت وأختي لم تتزوج بعد فليس هذا سببا يبرر القطيعة ٠

وشعر جدعان أنه تكلم أكثر مما ينبغي فصمت ـ لا تداركا لهفوة بدرت عنه ـ بل لانه أحس بأن جعبته قد فرغت ٠ أما صالح الذياب فقد اكتشف الثغرة التي انشقت عن اعتراف ابن أخيه ، فأراد أن يدخل فيها حتى أصابع قدميه ٠ فأجاب مستنكرا وبلهجة تنضح صدقا :

ـ يا حيف يا حيف يا جدعان ٠٠ أنت تقول هذا الكلام ؟ ما كنت أنتظر هذا منك ٠ ولو ٠٠ نحن أين موجودون ؟ بالمدن ؟ حيث لا يعرف الاخ أخاه ٠ حاشا لله ٠ نحن أولاد جد واحد وقرية واحدة و ٠٠ دار واحدة ٠٠ أنا أتكبر عليكم ٠٠؟ يا حيف يا جدعان ٠٠ أقسم بالله بأنك خجلتني ٠٠ والله العظيم ٠٠ ورب الكعبة حتى تصدق بأنكم لا تغربون عن بالي ٠٠ هه ٠٠ ماذا تريدني أن أفعل ٠٠؟ وأنا أعمل مثلك تماما من الظلمة الى الظلمة ٠٠ والعتب على المقصّر ٠٠

كان النهار قد ارتفع ، وبرز قرص الشمس من الشرق يفرش رموشه الوردية على الارض المحروثة ٠

وافترق الرجلان عند أول الفلاحة بعد أن أضاف العم :

ـ جدعان ٠٠ أنا عمك وأنت ابن أخي في الاسلام ٠٠ لسنا غرباء ٠٠ واذا كنت في حاجة الى شيء أي شيء خصمك الله اذا ما ضربت باب الدار وأخذته دون أن تسأل أحدا ٠٠ ولو ٠٠ الناس للناس فكيف الاقارب ؟ لا تظن أني أكرهك ٠٠ وحياة أولادي حتى تصدق بأني ٠٠ آخ بس ٠٠ ماذا أقول ؟ طيب سأراك فيما بعد ٠٠ خاطرك الآن ٠٠

وبصق صالح الذياب في الهواء متمتما : على لحية ابليس ٠ وانحرف جدعان بحماره نحو اليمين قائلا في نفسه : هذا يوم جديد ٠ ومطّ عنقه الى الافق ، فأحزنه منظر السماء الصافية : ها نحن أولاء في تشرين الثاني ، ولم تمطر السماء حتى هذه اللحظة ، فاذا أمحلت هذه السنة أيضا كالسنة السابقة ، فمعنى ذلك أنه لن يبقى في الدنيا ما نبيعه لنأكل ٠ لقد صرفنا في تلك السنة عشرين مدّا من القمح كما بعنا مؤونتنا من الحبوب لمداواة

عيون أمي ، فلا هي شفيت ولا نحن تموّنا ·· وحتى الآن أنا مدين ببذار سنتين · سيأتي (شوكت بيك) عند الحصاد حيث لن نحصد شيئا ، وبعدها سيشكوني الى الحكومة بموجب السندات ويصادر الارض ، وعندها يا جدعان ستصبح على التراب ·

وتوقف الحمار ، فأهاب به برفق : حاء · وانتقل جدعان بأفكاره الى صالح الذياب : هل حقا ما قاله لي انه يحبني ؟ ومتى حدث ذلك ؟ ووصل الى أرضه الصغيرة ، التي اتخذت لنفسها مدى ضيّقا الى جانب مرتفع واطىء · وأوقف حماره ثم أنزل المحراث عن ظهره ، وشد العود جيدا الى عنقه ، ووضع ثقل قدمه على رأس المحراث : حاء · وأرجف الحمار أذنيه ، وبدأ ينقل قوائمه بين الاحجار الكبيرة المعتمة برتابة وهدوء · وعاد جدعان الى مشاعره التي بدت كالأفكار :

انني لم أسمع منه هذا الكلام الطري في حياتي كلها ، حتى عندما كنت طفلا يتيما لم يسمح لي أن أعتمد عليه ، كان يكرهني ، وقد صرح بنفسه عن عداوته السابقة مع أبي ، فماذا يريدني أن أفعل الآن ؟ انني أعلم أنه لا يحب أحدا ولا يهتم بغير مصلحته الشخصية ، وهو الذي أقسم أغلظ الأيمان لأصدّقه · انه يبيع دينه كله بحفنة شعير ، لست غشيما عنه ، وكل أهل القرية يعرفونه · وفرحة أيضا : لماذا يهتم بها كل هذا الاهتمام؟·

كان جدعان لا يخطر له أن يفكر بأخته ، لا لفقدان الاسباب التي تدعو الى ذلك ، ولا حرصا على نقاء أفكاره ، بل لانه كان يدّخرها بعيدا عن اهتمامه · لقد اعتاد على ذلك منذ حدث وجودها · فقد خرجت الى الدنيا بصمت ، وسقطت على تراب الكهف كما تسقط البقّة من السقف ثم لفّت بالاسمال · وكانت تصرخ أحيانا ثم تصمت أياما طويلة ، وتموت دون أن يهتم بدفنها أحد · ولكنها راحت تزحف وتعيش مع الدجاج والحشرات · وفي يوم ما انتصبت على قدميها ، ومشت و ·· ظلت تمشي الى الآن · كان جدعان يعجب لبراعم أخته تتفتح بصورة لم تكن تخطر له على بال ، ولكنه لم يكن ليتوقف أمام ذلك كثيرا ، فكل شيء يسير في طريقه ، وما عليه هو أيضا الا أن يسير في طريقه · ومنذ زمن غير بعيد عرف فجأة أن فرحة أصبحت شيئا · غير أن هذا الامر ــ على أهميته ــ لم يجعله يبدل سلوكه حيالها ،

فليس لديه ما يفعله ليبدل شيئا ٠ وانما قرر : ستتزوج زواجا موفقا بالثمن الذي أقدره ، ثلاثة فدادين أرض ، أو مائتي رأس من الماشية ، أو غيرها ، ستكون غاليــة القيمة على كل حال ٠ انهــا امرأة جميلة وسيتمناها أكبر الشيوخ(١) ٠

وفكّر جدعان : والآن يهيب بي عمي صالح الذياب أن آخذها معي الى الحراثة ، لماذا يا ترى ؟ ان أرضي ضيقة ولن تحتاج الى أكثر من اثنين ، أنا والحمار ٠ وهي على كل حال تعمل في الدار ٠ قد يكون شعورها نحو أمها لا ينطوي على شيء من الحماسة ، وقد تكون أمها بالنسبة اليها متاعا أو حيوانا أو شيئا ما ، الا أنها تقوم بخدمته دون شكاية أو تذمر ٠ فهي لا تتمنى أن تموت أمها ولا أن تعيش ولا أن تبقى مقعدة ، انها لا تتمنى شيئا ٠ أمها ، اللحاف الوسخ المندلق الاحشاء ، الاطباق القديمة المحطمة ، الاصباح المتشابهة ، الاماسي المريضة ، الايام المتعاقبة ، صوت جدعــان الخشن ، نهيق الحمار ، القمل ، قاسم الصالح ، هي نفسها ، ليس في كل هذه الاشياء ما يجعلها تقف تجاهه موقفا معينا ٠

كان جدعان العبد الله يتمتع بدماغ عملي ينتج له أفكارا بسيطــة وواضحة ٠ وقد أكسبته التجارب المحدودة هذه الميزة ٠ فقد اضطر الى أن يقوم بدور الرجال ومسؤولياتهم وهو بعد طفل ٠ عندما مات والده كان في الثانية عشرة من عمره ٠ وعندما رأى النساء يبكين ويندبن عرف أن الرجل الذي غاب تحت الارض هو أبوه فعلا ، وتساءل : ترى هل يبكين لانه أبي ؟ ولكن الناس رجعوا الى دورهم وتركوه وحيدا ٠ وتلكأ طويلا بين الشواهد السوداء ، ثم عاد الى الدار ليجد أمه وحيدة ، وأخته الرضيعة تطرف أجفانها في الفراغ ٠ ولبث جالسا قرب أمه فترة ، ثم سأل نفسه : ترى ما سيحدث بعد ذلك ؟ وحتى هبوط الليل لم يحدث شيء ٠ ولكن الحمار نهق نهيقا فاترا ، فقرر : سآخذه لأسقيه ٠ وهناك على البركة توطدت بينهما ألفة خاصة ، وأصبحا صديقين ، ربّت جدعان على عنقه وخاطبه في تحبب : سأكون أنا صاحبك ٠٠

كان حمار جدعان ضئيلا ، أعجف ، أبرش اللون ، أبقع البطن ، ناتىء

---

(١) الشيخ في القرى والعشائر : هو صاحب المقام والنفوذ بصرف النظر عن سنه ٠

الزور ، في فخذه كي ، عفاء جلده منتصب كشعر ولد شقي ، في عينيه الواسعتين يقظة دائمة تجمله وكأنه يهم بالتعبير عن شيء ، وكان جدعان يخاطبه دائما منتظرا منه أن يعبر عن ذلك الشيء ، دون أن يفاجأ لو سمع منه بغتة : اني أحبّك ·

والواقع ، كان يخيّل لجدعان أن بهيمه يقوم بحمل قسط كبير في العمل · قامت أمه الأرمل في بادىء الامر ـ تحمل رضيعتها ـ بمساعدته في شؤون الحراثة وبذر البذار والحصاد وسقي الطرش وتأمين العلف وجلب الماء ، وقد أثّر التعب والتراب والقش على عينيها فازداد مرضها وطأة ، حتى أصبحت بعد سنتين لا ترى بهما الا أشباحا · لم تكن تشكو كثيرا ، غير أنها ظلت تدعو الى الله كي يشفيها ، ويبدو أن الله أوحى لها بأنه لا يتكفل بالاعمال الصغيرة وعليها أن تذهب الى الطبيب الذي خلق لهذه الغاية ، ولكنها أصرت على أن يشفيها بنفسه ، لان الطبيب يحتاج الى نقود كثيرة بينما يشفي الله عباده مجّانا · وقعدت الام في زاوية الكوخ وبقي جدعان يعمل مع حماره وحيــدا ·

· · ·

في المساء عاد جدعان متأخرا الى البيت ليفاجأ بوجود عمه يتكلم مع أمه حديثا وديا للغاية · كانت الام تقول في لهفة :

ـ يا ربي من أين أرسلك الله لنا يا صالح يا ابن ذياب ؟··

كانت منشرحة الصدر ، منبسطة الأسارير ، تهز هيكلها الى الامام والخلف وتنوس كدمية من الرصاص ، وجفناها المتورمان يخفقان كأنها تحاول أن ترى بهما عيني من تخاطبه · لم تكن تترك له فرصة للكلام ، كانت تقاطعه كل مرة لتبدأ حديثا جديدا :

ـ أين أخبارك يا صالح يا ابن ذياب ؟ أين أنت ؟ أيّ بلاء جعلنا لا نراك؟

وحدّث جدعان نفسه : لا نراك ·· وألقى السلام في توجس ولكن في نبرة باردة عميقة ، كانت فرحة تجلس في الزاوية مباعدة ما بين ساقيها ، ضامة قدميها احداهما الى الاخرى ، تنكش أرض الكوخ بعود من الخشب ، وكان ثوبها الكالح يشكل ما بين ركبتيها وقدميها مثلثا قاعدته الى الاعلى · وتابعت الام أسئلتها :

ـ وأين قاسم ؟ روحي قاسم ·· لماذا لم يأت معك ؟ كان عندنا البارحة ، آه ·· لقد كبر ·· هل نبت شارباه ؟ أرجو أن لا يكون قبيحا مثلك ، لعله مثل أمه ·· أمه حلوة ·· انني أراه دائما ولكنني لا أعرف شكل قسماته ·· جدعان ·· خذ ·· جلب لنا عمك خبز قمح ·· خذ هذا الرغيف تعش ·· اننا لم نذق طعم القمح منذ سنة ·· آه ·· يا حسرتي علينا ·· أصبحنا نشتهي الخبز ··

وتنهدت مطلقة من صدرها صفيرا يكمش الجلد ·

ـ ايه ·· الله يبعث الخير ··

وقال صالح مستغلا تقطع أنفاس العجوز :

ـ مزنه ألا تستوحشين وحدك طوال النهار ؟ (وتابع فورا) لماذا لا تزوجين ابنك ·· ألا تريدين كنة ؟·

ورفعت فرحة رأسها بوجه خلت تقاطيعه من أي تعبير ، ولو وجد قاسم في تلك اللحظة لفهم من نظرتها الخاطفة الى أبيه أنها ستفرح لذلك ·

وردت الام في لهفة :

ـ زوجة لجدعان ؟ آه ·· هذا هو أملي قبل أن أموت ·· أن أرى زوجة ابني · يا حظي يا جدعان ·· ماذا تفعل ؟ لماذا لا تقول شيئا ؟ عمك يقول لماذا لا ·· (وعاد صدرها الى الصفير) ·

كان وجه جدعان مقطبا حافلا بالتعب ، وأجاب في صوت حاول أن يجعله ملائما للجواب :

ـ حتى يأتي النصيب ··

وفكر : وهذا النصيب لن يأتي حتى تتزوج فرحة · كان قد جلس بين أمه وعمه كما تجلس أخته ، مطوقا ركبتيه بساعديه · كانت ذبالة السراج تلعق السقف ، وعلى الجدران المتضرسة تتراقص أشباح صعبة التمييز ، تشبه كثيرا تلك المخلوقات المكومة على الارض · وتنحنح صالح الذياب قائلا :

ـ ومتى يأتي النصيب ؟ انه يأتي عندما نريده نحن أن يأتي ··

كان قد تدرب نوعا ما على نمط من الحديث على يدي شريكه (شوكت بيك) • والتفت الى فرحة :

ـ ما رأيك يا غزالة ؟ لماذا لا تتكلمين ؟

ومال نحوها • كان يستند الى وسادة لاصقا ظهره بالجدار • وهتف فجأة :

ـ ما شاء الله •• ما هذا ؟ يا بنت عبد الله الذياب أصبحت هكذا ؟ تكلمي لأسمع صوتك ••

وأجابت الفتاة بصوت ذي جرس منغم وقد احمرّ وجهها قليلا :
ـ أتكلم ؟ وماذا أقول ؟••
ـ تكلمي معنا ، لماذا لا تنصحين أخاك بالزواج ؟•

وانفرجت شفتاها عن ابتسامة ناعمة وأجابت وهي ترمق أخاها بنظرة مختلسة :

ـ حتى يأتي النصيب •• (وصمتت) •

كان يبدو على العم أنه يتدرج في الموضوع ليصل الى نقطة الانطلاق ، الا أن أحدا لم يحاول أن يأخذ بيده • وفجأة سأل فرحة :

ـ وأنت ياحلوة الحلوات أتظنين أنك ما زلت صغيرة ؟ ما شاء الله •• أرني •• وجهك على الضوء •• قرّبي •• أوه •• حوّطتك بالله •• ما هذا ؟ غزالة حوطتك باسم الله ••
والتفت الى جانب :

ـ ولك جدعان يا كافر •• لماذا تخبىء هذه الجنيّة بين الجدران ؟••
الست آدميا ؟ اليس حراما أن تترك هذه الغزالة تموت هنا ؟•
وندبت الام :

ـ مسكينة ••يا كبدي •• يا قليبي يا فرحة •

بينما رد جدعان محاولا أن ينسجم مع الوضع زاويا ما بين عينيه المصبوغتين بلون ترابي كئيب :
ـ ومن يمنعها من الخروج ؟ أنا ؟ من قال ذلك ؟•

وصوّبت الفتاة الى وجه أخيها أهدابها الطويلة ، بينما ظلت قسماتها خالية من أي تعبير · كانت تقاطيعها الدقيقة تأخذ على الدوام سمات واحدة ، سمات الوجه الذي لا ينفعل · كان من الصعب أن يعرف المرء ما يعتمل في صدرها من رغبات ، اذا كانت هناك رغبات أصلا ·.كان وجهها وجه مومياء ولكنه ينبض بعبقرية التكوين · وقد يظن أن الفتاة تحرص على أن تبدو بهذه الطبيعة ، غير أنه من الانصاف أن يقال انها لا تحرص على شيء ·

لم يسائل جدعان نفسه يوما عما يكون شعور أخته نحوه ، ولم يكن بحاجة الى أن يفعل ذلك ، أو بصورة أدق لم تكن لديه الاسباب ليتساءل · أما من ناحيتها ، فهي تعرف أن أخاها هو مالكها ، وأنه سيزوجها يومـا وسيقبض ثمنها ويأخذ الثمن لنفسه ، وهذا حق من حقوقه أو حكم غير قابل للتمييز ، وهي لم تخلق الا لهذا ، وفي هذا الرضى وليس غير الرضى · وستصبح ملكا للزوج ، للرجل الجديد الذي دفع ثمنها جزءا كبيرا مما يملك أو كل ما يملك ، وستظل راضية ، أليس هذا هو طبيعة الحياة ؟ واذا كانت العلاقة بين الاخ وأخته خالية من أي معنى آخر ، فلأنه لا يوجد نوع آخر من العلاقات لتكسب معاني جديدة ·

وفي لحظة معينة شوهد العم صالح الذياب ينهض ، ذاكرا اسم الله بكلمات غير مفهومة ، استغفار أو توحيد أو حمدلة ، ثم هتف :

ـ مزنـــه ··

وردت العجوز مجفلة :

ـ يا عونك ·· هل ذهبت ؟·

فرد باختصار :

ـ سأعود غدا مصطحبا المختار وبعض الشيوخ · السلام عليكم ··

ثم خرج تاركا أفراد الاسرة الصغيرة يضربون أخماسا بأسداس ··

• • •

(٤)

ظل صالح الذياب يلعن الشيطان ويبصق على لحية ابليس حتى وصل الى مضافة المختار · كان الوقت بعيد العشاء ، وقد فرغت المضافة من السامرين ما عدا المختار وعضوي المختارية ، الخجا وشيخ شُهر في القرية باسم (الفقير)· كان الفقير كهلا أصغر من زميليه ، طويل القامة ناصع الوجه ، ذا لحية ثلجية الشكل واللون ، غاب في شبابه عن القرية زمنا طويلا ، ثم عاد بعدها بالشكل الجديد ، حاملا الكثير من الكرامات · فهو يقبض على الافاعي ، ويكتب الحجب والرقى ، ويشفي المجانين والصرعى والمؤاذين · وحين دخل صالح الذياب ، كان الرجال الثلاثة مضطجعين حول الموقد يتناقشون في أمور الدنيا والآخرة ·

ـ السلام عليكم ·

ورفع الرجال رؤوسهم مرددين بصوت واحد خال من الانسجام :

ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ··

ونزع صالح حذاءه الترابي المرقوع خمس رقع بخيوط المصيص ، وتقدم حتى وصل الى الموقد · فأفسح له المختار مكانا بين قدميه وقدمي الخجا ، فجلس بينهما وهو يزفر زفرة طويلة · ونظر اليه المختار في امعان قائلا وكأنه يعني سؤالا :

ـ مساك الله بالخير ··

ورد صالح متخذا لجسده الطويل مكانا مريحا :

ـ الله بالخير ··

وخشخش صوت في صدر الغجا :

ـ الله بالخير ··

ـ الله بالخير ··

وارتجفت لحية الفقير وانبعث منها :

ـ الله بالخير ··

ـ الله بالخير ··

ولم ترتفع أنظار المختار عن سحنة القادم ، فسأله فجأة :

ـ من أين قادم يا وحش الليالي المعتمة ؟··

ورد صالح باللهجة نفسها :

ـ من دار ابن عبد الله الجدعان يا شيخ الوحوش ··

وضحك الرجلان وحدهما ضحكتين طويلتين خشنتين خارجتين من بين أحجار رحى ، أتبعاهما بسعال ذي ضجيج استمر بضع دقائق ، في حين لبث العضوان ينظران الى نار الموقد الهامدة دون أن يشتركا بالسعال · وقال صالح فجأة وهو يغص بريقه :

ـ مختار ·· سأخطب لابني غدا بنت الحلال وصاحبة النصيب ··

وارتفعت اليه أنظار الشيوخ الثلاثة · ان القضية لا تدعو الى التأمل أو الدهشة الا بمقدار ما تعكر صفو السكينة وتخلق من مشاكل · قال الغجا برزانة عجيبـة :

ـ ومن هي الضحية المسكينة ؟··

وتغاضى صالح عن اللمزة وأجاب وهو يتلمظ :

ـ فرحة ·· ابنة عبد الله الذياب ·

وبرغم صغر القرية وقلة عدد أسرها ، فقد سمع الثلاثة عن البنت أكثر مما شاهدوها · ولم تكن أوصافها التي تناهت الى أسماعهم مبالغا فيها ان لم تكن جداً محدودة ، كانت الفتاة قليلة الظهور ، ويبدو أن أمها المقعدة

قد طبعتها خلال سني حياتها الخمس عشرة بطابع الميل الى الانزواء • وفكّر الفقير بالموضوع في اهتمام • فالمسالة لا شك جديرة بالتأمل ، ستكون هناك مشاكل عليه أن يتفرغ لها من الآن • وارتجفت لحيته الطويلة وقال في لهجة متشائمة :

ــ ومتى سيكون الحادث ؟••

أجاب صالح الذياب وكأنه ينفض عن كاهله مسؤولية شر لا بد منه :

ــ سنترك القضية لتيسير الله ••

ورد الثلاثة بنبرة واحدة :

ــ لا اله الا الله محمد رسول الله •

ووضع المختار جزلتين في الموقد ، وأفسح لهما مكانا وسط الرماد ليدختنا جيدا قبل أن يشتعلا ، ثم سوّى وضع دلاء القهوة استعدادا لسهرة طويلة • وبعد قليل كان لهب وردي يصبغ أربعة وجوه بشرية ترابية اللون ، جففتها شموس الاصياف ، وحفرت فيها أزاميل الشقاء خطوطا تزداد عمقا كلما تدنت الى الاسفل ، خطوطا تنحدر من الجباه حتى تصل الى زوايا الافواه التي نبت الشعر في كل أنحائها كثيفا شائكا يصعب اقتلاعه • التراب والدخان والعرق تلوّنه وتمسك بجذوره ليقاوم السقوط • كان اللهب الوردي يتراقص على وجوه صخرية صلدة ، تطل منها عيون كبيرة قاتمة ، يكتنز فيها الهم والتعب والقلق ، وشفاه غليظة يابسة تنفرج في بعض الاحيان عن أسنان ناصعة متينة منظومة • وتحت الرؤوس الكبيرة المعقولة بالعقال ــ التي تشكل مع السيقان (و) طويلة ــ امتدت أجساد ثقيلة ، خشنة العود ، صلبة التكوين ، وسواعد لم تجد في حياتها ألعابا ألطف من الفأس والمنجل وسكة الحراثة ، تنتهي بأكف كحطب الزيتون ، لو عُصرت لما استُخلص منها قطرة سائل • ثم أقدام فلّينية منخورة تغيب في أعقابها المسامير دون أن تنقل الى النخاع شيئا اسمه الألم •

قال المختار :

ــ احس بأني ساخن ••

وأمسك ملقط النار ليخط به على الرماد خطوطا متشابكة • كانت

أصابع الخجا تعبث بحبات مسبحته العتيدة ، ويد الفقير تجول في صدره وخاصرتيه باحثة عن حشرة جائعة ، وصالح وحده كان يفكر بأحداث الغد ٠ وتنحنح قبل أن يجيب :

ـ وعلى كل حال لن تفطس قبل أن ترتب لنا القضية ٠

كان بين المختار وصالح الذياب تنافس غير بريء ، ومصالح مشتركة ، وكان كل منهما يحسب حسابا للآخر ٠ يبدوان أمام الناس كأن لا تكلف بينهما ، والواقع أن كلا منهما يتمنى زوال الآخر بالرغم من حاجته اليه ٠ واحتج المختار على سلاطة خصمه وقال مؤنبا :

ـ سحب الله روحك النجسة ٠٠ أنا لم أقل اني أريد أن أموت ولكني فقط قلت بأني ساخن ٠٠

ورد صالح في خبث :

ـ أنا أعرف طريقتك بالتهرب ، أو بالاحرى ليس التهرب بل المماحكة لتظهر دائما بثوب الملائكة ٠

وتدخل الخجا حاسما الموقف :

ـ بالله دعانا نخمن المستقبل ٠٠ سبحان الله ٠٠ ما هذا الهراء ؟٠

ودعم الفقير موقف زميله ٠ كان بين الرجلين الآخرين حقد دفين ، ويكن كل منهما للآخر كرها مشوبا بالازدراء ٠ قال الفقير وهو يلتقط شيئا من تحت ابطه ويلقي به في النار :

ـ صحيح ما هذا الهراء ؟٠

وصدرت من الموقد طقة خافتة ٠

ـ اذا أردت أن تزوج ابنك فما هي الحاجة الى البدء بالمشاكل ؟ ادفع الثمن وقم بما يلزم وتنتهي الامور ٠٠

ورد صالح هازئا :

ـ وأنت أيضا يا غرمول الحمار ٠٠ انك لا تريد أن تفهم ٠

قال المختار :

ـ لقد فهمت القصة ·· ان صالح يريد أن يأخذ البنت بحفنة شعير ·· أو برغيف بائت ·· ما رأيكم ؟ أليس هو ربيب البيك ؟ فمن يكون اذن ؟

وشخر صالح من أنفه شخرة داعرة وأجاب :

ـ لا أدري لماذا لم يحولك الله الى ثور منذ زمن بعيد ·· متى قلت أنا هذا الهذر ؟ سنقوم بمبادلة (وحملق الرجال عيونهم) فهدة مقابل فرحة ··

وصاح الخجا مجفلا بالرغم من حرصه الشديد على تقديس الوقار :

ـ بقرة حلابة مقابل عنز جرباء ؟ من يقبل بهذا ؟ أقسم بأن جدعان العبد الله سيبول على لحيتك الشريفة ··

ورفع صالح يده الى لحيته كرد فعل انعكاسي وقال محتدا :

ـ ها هو ذا حمار جديد يتفقه ·· أنا لست يهوديا سأدفع الفرق ··

وساد الصمت لحظة قطعه الخجا سائلا :

ـ وكيف ترون الموسم هذه السنة ؟

ورد الفقير بلهجته وتعليله المعهودين :

ـ أمر ذلك عند علام الغيوب ، فبكاء الملائكة رهن أمره ·

كان يعتقد ـ ولا يعرف ان كان جادا أو هازلا ـ بأن المطر عبارة عن دموع تسكبها الملائكة حزنا وتكفيرا عن ذنوب البشر · وأن الله عندما يغضب على عباده ، يأمر ملائكته بادخار دموعها ، تاركا عباده يلقون مصيرهم الاسود جزاء ما اقترفوه من معاص وآثام · وكان هذا التعليل الغريب ، يجمد أطراف المستمعين ، فلا يستطيعون دحضه أو دعمه · كان الخجا يميل الى شجب هذا التعليل ، لانه يكره التعقيد ، ولكنه يفتقر الى ايجاد تعليل آخر أكثر منطقا ، أما المختار فلديه تعليل يختلف تمام الاختلاف ، وقد استقاه من ابنه الرقيب في الجيش · أما صالح الذياب فكان لا يتعب نفسه في تحليل مثل هذه الامور ·

قال المختار :

ـ اذا تغاضينا عن آراء الفقير في أصل المطر ، فاني أعتقد بأن مطرة واحدة كافية لانقاذ الموسم لان ترابنا شبعان ·

ولكن الفقير هب مدافعا عن رأيه :

ـ قدّم لنا رأيا آخر أيها الكافر ·· اسمعنا لنرى ··

ونفد صبر المختار صائحا :

ـ ان رأيك يا فقير هو الكفر بعينه ·· استغفر الله العظيم ·· المطر ·· من أين يأتي المطر ؟ انه يأتي من الغيوم ··

وضرب الفقير كفا بكف شاخصا عينيه الى السقف :

ـ رحماك يا الله رحماك ·· لا تأخذنا بذنوب غيرنا يا الهي يا قدير ·· انني أطلب عفوك ··

وتفل في الفراغ عدة تفلات طارفا أجفانه بذل واستكانة · مغمغما بتراتيل وأدعية تدخل الخشوع الى قلب الجماد · وتدخل الخجا قبل أن تصيبه عدوى زميله مقررا :

ـ اذا كانت السنة الماضية نحس ، فلا أظـن السنة التالية ستكون كذلك ··

وقال صالح الذياب متشائما :

ـ والله اذا كانت هذه السنة ممحلة فيا خراب دياري ·· لقد بذرت مائة كيس استدنتها من شوكت بيك بموجب سندات ، واذا لم تمطر فستكون وقعتي كالقطران ·· ستباع الارض وأبقى على التراب ··

وطمأنه الخجا :

ـ لا أظن أن لله سينسى عباده ·· سنتين متواليتين أخريين ·· سيموت الحرث والنسل ·· ولن يبقى ما يوحّد الخالق ·

ودعم الفقير موقف الخجا قائلا :

ـ هذا ما أقوله ·· ان كل شيء بيد الله ·· ولكن المولى لا يسكب الغيث بالاباريق بل يخلقها بمعجزات ·· ولكن على أن نستحق الرحمة ··

وقال المختار مشيحا بوجهه :

ـ سمعت أن الحكومة ستسلف المزارعين على كل حال ··

ورد صالح نافخا من بين شفتيه نفخة شائنة :

ـ الحكومة ·· وما فائدة ذلك اذا كان البذار سيصبح طعاما للدود ؟·· ومتى كانت الحكومة تسعى الى مصلحة الفلاحين ؟ سيكون موقفها كموقف البيك ، كله دين ، يأتي الدرك في النهاية ويصادرون الارض ··

وأنهى الفقير المناقشة مرتلا :

ـ قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا ·· لم تشغلون أنفسكم ما دام حسب نياتكم ترزقون ؟··

وقبيل منتصف الليل ، كانت أربعة أجساد تتمدد حول رماد الموقد ، يصدر منها مجتمعة شخير متقطع الانسجام ، يرتفع شيئا فشيئا ثم يعود تدريجيا الى الهبوط · وراح كل من الرجال الاربعة يحلم على طريقته الخاصة ·

· · ·

في مساء اليوم التالي حضر الشيوخ الثلاثة الى دار جدعان ، وقد رحب بهم بالقدر الذي تجود به طبيعته الجافة ، ولكن الام عوّضت عما يلوح في الجو من تجهم بأحاديثها التي لا تنضب · كانت تعرف جميع أهالي القرية وخاصة شيوخها من الجنسين · ومن أجمل لحظات حياتها الراكدة ، تلك اللحظات التي تجد فيها من يصغي اليها ، فلسانها ينوب عن سائر حواسها بالقيام بالواجبات الاجتماعية ·

كان جدعان يميل بطبيعته الى الصمت · لا يعرف شيئا من مهازل الشباب أو هذرهم · كان جادا في أعماله وأفعاله كافة · صريحا ومستقيما ، لا يعرف اللف والدوران ، ويتضايق كثيرا اذا ما تكشفا له ، وذلك اذا فهمهما أصلا · كان وقورا ورزينا لدرجة الجفوة · لا يكره الضحك ولكنه لا يجيده · أما الابتسام فهو أقصى ما يستطيع أن يجود به وذلك اذا وجد ما يبرر الانفجار في القهقهة · أمه وأخته وحماره هم كل رفاقه في هذه الحياة · ولا تزال ذكرى والده الممدد في أرض الكوخ تملأ مخيلته · لم يكن حزينا عليه ، كان يقول فقط : لقد مات والدي · انه يذكره مسجى على اللحاف اياه قبل أن تخرج أحشاؤه · كان مقطب الجبين ، يعشعش الهم والقلق في خطوط وجهه المتجعد · كان مغمض العينين ، الا أنهما بالرغم من اقفالهما

كانتا تنطقان بالتعب • فمه مفتوح من احدى زواياه وكأنه يهم بابتسامة شامتة • لم يكن جدعان قد اختبر عاطفة معينة نحو أبيه عندما مات ، ولم يحاول أن يبحث عنها فيما بعد ، ولم يخطر له ذلك • كان ما يزال صغيرا وقد استلم مهماته فورا • فلم يخض مرحلة الطفولة ، واجتاز دور المراهقة دون أن يمر به ، صار رجلا في الثانية عشرة • انه الآن وهو في السادسة والعشرين وفي عنفوان شبابه ، يتمتع بوقار الشيوخ ورزانتهم ، ولكنهما وقار ورزانة غير ناضجين نضجا طبيعيا • لم يكن يحمل مرضا نفسيا أو عضويا ، كان طبيعيا جدا • طويل القامة ، عريض المنكبين ، منتفخ الصدر ، قوي الساعدين ، جريئا الى درجة اقتحام المخاطر • ترك شاربيه ينموان على سجيتهما دون أن يمسهما بالعناية أو يستعجلهما ، فنبتا متمهلين ، والتفت شعراتهما حول نفسها فشكلت خطين رفيعين ناعمين كزغب الحجل • أما عيناه الكبيرتان في وجهه المرتفع الوجنتين ، فكانتا على الدوام تومضان ببريق كـدر •

كانت فرحة كعادتها تجلس على عجزها ، مباعدة ما بين ساقيها ، ضامة قدميها ، ساندة مرفقيها الى ركبتيها ، ترفع الى الضيوف رموشها في احتراس ، كهرة ترقب طفلا يلعب بعصى طويلة •

وبعد قليل سُمعت نحنحة صالح الذياب وخطواته الثقيلة الوئيدة وهو يلغط مع نفسه :

ــ مساكم الله بالخير ••

ــ بالخير •• بالخير •• بالخير ••

ولم ينزع حذاءه المرقوع بل تربع على الارض ، لم يكن المكان مفروشا • واتكأ الشيوخ الاربعة على شكل نصف دائرة باتجاه العجوز وابنتها ، فيما كان جدعان يجلس القرفصاء الى جانب الباب وكأنه ينتظر حادثا لا يعرف كنهه • ونادى المختار بلهجة أستاذية :

ــ جدعان لماذا تتكوّم هناك كالهمّ •• قرّب •

ورد الشاب باحترام :

ــ لا بأس •• هنا مليح ••

ـ لا ٠٠ قرّب ٠٠ ان الموضوع يهمك ٠٠ تعال اجلس الى جانبي ٠ هذا عمك كأخي بيتك لا بل هو أبوك الجديد ٠٠ لا يوجد أحد غريب ٠٠

وخرق حجاب التوتر دون مقدمات :

ـ جئنا لنأخذ فرحة لابن عمك قاسم بالحلال ٠٠ على سنة الله ورسوله ٠

وصمت ليلمس رد الفعل في الاسرة ٠ أخذت الام تهز نصفها الاعلى هزّته الناقوسية الرتيبة ، واختلط في وجهها تعبير يدل على قليل من السرور مع كثير من الاهتمام المشوب بالتطيّر ٠ أما جفناها المتورمان اللذان ينزان رمصا ، فقد اختلجا بعصبية فائقة ٠ وحركت فرحة رأسها كأنما شدّ بخيط غير مرئي ، وارتعشت أهدابها ارتعاشات غير حسية ، وابتسمت ابتسامة خالية من أي معنى ٠ كان الموضوع لا يهمها الا بقدر ما يهم بقرة تساق الى المسلخ ٠ ورد جدعان بصوت عميق دون أن يفاجأ ـ كان من الطبيعي أن يفعل ـ :

ـ أرى أن نؤجل هذا البحث حتى يظهر الموسم ٠

كانت مسألة الموسم تؤرقه بصورة خاصة ، لان عليه فقط تتوقف معيشة أسرته ، الا أنه استدرك فجأة : فزواج أخته بحدّ ذاته يعتبر موسما طيبا ٠ وفكر : كم سيكون الثمن ؟ وسيكون قاسم زوجا لائقا باعتبار أن والده قادر على الدفع ٠ ولم يمهله المختار ليجترّ المكاسب ٠ فقد رد على الفور :

ـ يا ابني يا جدعان ٠٠ ما دخل الموسم في هذه القضية ؟ نريد فرحة لابن عمها ٠٠ هذا كل شيء ٠ الله يرضى عليك بدون كلا كلا ٠

كان جدعان قد أقنع نفسه بأن سوء الموسم سيكون من دواعي زواج أخته ٠ وكان المختار على ثقة كبيرة بأن حضوره كاف ليحل أصعب المسائل ، لطالما أنه حل قضايا الثار ، وخطف بنات ، وسرقة مواشي ، وفضائح أخلاقية ٠ وأجاب جدعان في اختصار :

ـ توكلنا على الله ٠٠

قال المختار وهو يشد ذنب شاربه الى الاسفل ويفتله بهدوء :

ـ وستأخذ فهدة ٠٠

وصمت قليلا ليضيف :

ـ بنت مقابل بنت ..

وتلوّن وجه جدعان لاول مرة   سأتزوج .! أما اختلاطات وجه الام فقد تغيّرت ، قلّ فيها التطيّر وحل مكانه احساس بالدهشة : ستكون عندي امرأة . وراحت فرحة تفكر بأمور تختلف كل الاختلاف : هل سيضربني قاسم أم يكتفي بالشتم والسباب ؟.

كانت أنامل الخجا تفرك حبّات مسبحته في عصبية ، والفقير يفتش في صدره عن حشرة ، وعيون الرجال الاربعة تتفحص الفتاة ، وفي صدر كل منهم يتفاعل مركّب خاص . أما ذبالة السراج فكانت تتطاول جاهدة لتنير المكان ، دون أن تترك ظلالا مفزعة قاتمة .

وفتح جدعان عينيه جيدا وفكر ، كان يجبر نفسه على التفكير في الاوقات العصيبة . فوجيء لاول مرة . نسي في حالته الجديدة مسألة الغلّة والموسم : سأتزوج .. ستكون عندي امرأة .. أنام معها .. أنا جدعان العبد الله سآمر امرأة أن ترفع ثوبها و .. وتخيّل فهدة الصالح ذات الوجه الاسمر الدقيق والشفتين الزرقاوين والانف الطويل والعينين المفتقرتين الى وميض ، وتصورها تميل وترتفع وتنخفض عندما تسير أكثر من خطوة . كان لها ثديان كبيران في قمة صدرها الكروي . وكف عن التفكير بأخته ، ولو خطرت له قليلا لوضع الاثنتين في كفتي الميزان .

وقطع الصمت فجأة العم صالح قائلا :

ـ اسمع يابن أخي .. لا تفكر كثيرا .. الجميع يعرفون أن ابنتي فهدة مسكينة تعرج قليلا ، الا أنها والله يشهد أكثر طواعية من دابة .. أقسم برب العالمين حتى تصدق بأنها أقوى مني أنا .. بشرف محمد تستطيع أن تحمل كيس ذرة بين ساعديها وترفعه على ظهر الجحش دون مساعدة أحـد ...

كانت أجفان الام تختلج في انتباه ، وبين آونة وأخرى تمسح عن خدّيها دموعا دبقة ، وكأنها تنتظر قراءة الفاتحة بفارغ صبر . أما الفتاة فكان يبدو عليها شيء من عدم الرضى ، وربما لان فهدة بالذات ستكون بديلتها .
وسعل الخجا وتنحنح قائلا :

ـ يا جماعة صلّوا على النبي ..

وانتظر حتى صلّى اثنان وسلّم واحد فقط ليردف :

ـ أنا اريد أن أقول الحقيقة وأضع الحق في نصابه ‥ من أجل الشغل فهدة على حظ رقبتي شغّيلة ‥ أنا أعرفها ومجربها ‥ أما هذه البنت التي تجلس قبالتي (ورفع مسبحته في وجهها) فهي ليست فلاحة ‥ أأكذب ؟ فرحة كما يقول الشاميون بنت (أمّورة) حلوة وظريفة على عيني فوق رأسي ، ولكن يا اخوان الجمال والظرافة وال ‥ وال ‥ ماذا يقولون ؟ نحن فلاحون ‥ نريد بصراحة أن نشق الارض ونخرج الرغيف ‥ نريد بنات شاطرات لا مؤاخذة ، صحيح ما أقول أم غلط ؟‥ ومع ذلك فهذا رأيي ، سأقوله ويجب أن توافقوا عليه جميعا ‥ لا أريد أي اعتراض ، بما أني أكبركم سنا وعضو مختارية أقول : ان على صالح الذياب عم هذه البنت أن يدفع بالاضافة الى فهدة أربع نعجات وبقرة و ‥ ولن أحكي والله العظيم بعدها ولا كلمة ‥

وكان الغجا على قدر من الذكاء ، لدرجة أنه لم يخطىء بحرف واحد من الخطاب الذي لقنه اياه صالح قبل بدء المساومة ، وقد أجّل موضوع الحنطة الى النهاية ٠ غير أن العم صالح اعترض قائلا :

ـ عن أذنكم قليلا ‥

ونظر الى الفتاة نظرة صارمة ، وكأنها صارت ملكه ، وطلب اليها الخروج كيلا تستمع الى قراره النهائي ٠ ونهضت فرحة بتكاسل شديد ، وكان عليها لكي تخرج أن تتخطى أربعة أجساد تسد عليها الطريق ٠ ووقفت لحظة حائرة وهي ترفع يدها الى قبضة من شعرها تدلت على جبينها لتدخلها تحت العصبة ، ثم خطت خطوتها الاولى فوق ساقي الفقير ، ورفعت قدمها لتخطو خطوتها الثانية والاخيرة ٠ كان رأس العم صالح مستندا على كفه في الجانب الآخر ٠ وكان لا بد لها أن تمر به عند اجتيازها المكان الضيق ٠ فحاولت أن تتعداه حرصا على عدم مضايقته ، أو تحاشيا للتعثر به ، ولكن حدث ما كان غير متوقع ، أمر يحدث دائما ولا يحدث اطلاقا ٠ هل كانت الفتاة مرتبكة ؟ هل أحرجتها عيون الرجال المتفرّسة ؟ هل كانت خائفة أم كانت السعادة تشل أطرافها ؟ ان ما جرى فعلا ان علقت أصابع قدمها اليمنى في شق العباءة ، فسقطت الفتاة بجسدها كله على وجه عمها ٠ وهب المختار ـ الذي كان ملاصقا لصالح ـ الى نجدته ورفع البنت ، فشدها من وركيها بصعوبة فائقة ، دون أن يخطر له : ترى هل هي ثقيلة الى هذا الحد ؟ وقال لصالح :

ـ هل أوذيت ؟٠٠

وحشرج صالح بكلمات غير مفهومة ، ثم أتبعها بنبرة مرتفعة :

ـ كانت ثقيلة ٠٠ ثقيلة ٠٠

ورمقه المختار بنظرة معينة ، فيما كان جدعان يسحب أخته بشراسة ويدفع بها الى الخارج ، والعجوز تصرخ :

ـ ماذ حدث لابنتي ؟ ماذا حدث لها ؟٠٠

وطمأنها الفقير بأنها عمياء قلب لا تعرف كيف تمشي ٠ أما الخجا فقد عاد الى القضية قائلا :

ـ فلنلعن الشيطان ولننه هذه المسألة ٠

والتفت الى صالح طالبا اليه أن يتكلم ٠ ولكن الرجل بات شخصا آخر ، فقد أطرق برأسه وراح يفرك عينيه بشدة ، وكأنه يهم باقتلاعهما من محجريهما ٠ وقال المختار :

ـ سأتكلم أنا بدلا عنه ، اني أعرف ما يريد أن يقول : ان قاسم مايزال غير أهـل للزواج ٠٠ فهو لا يعرف كيف يكسب رغيفه ٠ وسيبتلي غـدا بعروسه أيضا ٠٠ هذه البنت كلكم تعرفونها ، فهي لا تستطيع أن تحلب عنزا ٠٠ أنا على يقين من أنها تخاف من جربوع ٠٠ لا تضعوا الحق عليها ٠٠ ولكن على هذا الجيل المجنون ٠٠

وعاد يرمق صالح بنظرة مستفسرة ، وكأنه يطلب منه الموافقة ، الا أن الرجل كان مشغولا بهواجسه ، فلم يسمع كلمة مما قاله المختار الذي استطرد قائـلا :

ـ أنا أعرف بأن صالح يفضل فهدة على خمسين قاسم ، فهي على الاقل تطعم الدجاج وتقوم بشؤون الدار ٠٠ ما رأيك عمة مزنه ؟ هل أكذب ؟

وأجابت العجوز وهي تتوقف عن الاهتزاز بينما راح جفناها يخفقان بشكل محيّر :

ـ والله أنا أحب الفرح ٠٠ أتمنى أن أرى الناس كلهم فرحانين ٠٠ أحب أن أشاهد الاعراس ٠٠ يا ليت كل الشباب يتزوجون في ليلة واحدة ٠٠ يا عمري ما أحلى الافراح ٠٠

ـ اليك هذا العريس ·· وضرب على صدر الخجا ـ انه عريس على كيفك ·· سيدللك مثل زوجته الاولى عليها رحمة الله ··

وانفجر المختار وعضواه بضحكات طويلة شائنة ، أتبعوها بسعال يقطع الانفاس ، في حين زوى جدعان ما بين يديه غير مصدق : ترى هل يحدث هذا ؟ أما مزنه فشرعت تهز رأسها بلوم وحسرة · ولم يرفع صالح كاهله الذي بدا كأنه يرزح تحت كابوس مخيف ·

كان جدعان يدرك بغريزته قبل احساسه أن هناك مؤامرة تحاك ضده · وجد نفسه في البداية يساق الى الزواج مبادلة مع أخته التي كانت رأسماله المدخر · ومن الطبيعي أنه لم يكن ليوافق على هذه المبادلة رأسا برأس ، وكان الشيوخ يعرفون ذلك ، فاقترح الخجا دفع المواشي لتتساوى الكفتان · وما كاد يوازي في نفسه حساب الارباح والخسائر ، حتى وجد المختار يتكلم بلسان عمه ، مما يدل على استنكاره لهذا العرض · وأخذ يجهد نفسه لاستدلال خفايا المؤامرة : أربع نعاج حوامل وبقرة مع فهدة عرض يستحق الدراسة ، قد لا يكون ثمنا مساويا لفرحة ، ولكنه قابل للزيادة · أما الآن وقد رجع المختار ينقص من قيمة فرحة لحساب فهدة ، فهذه مسألة عجيبة ·

كان يعتبر فهدة على علاتها امرأة كأي امرأة أخرى ، تستطيع أن ترافقه الى الحراثة ، وأن تقوم بأعمال الدار ، و ·· أن تنام معه · وتنبه فجأة الى ما حوله ، فوجد الشيوخ معلقين أنظارهم في وجهه ، ينتظرون منه الاجابة ·

وقال الخجا :

ـ ايه جدعان ·· ما لك صامتا ؟ ما رأيك ؟··

ورد جدعان صادقا :

ـ انني لا أفهم ··

ـ أقول لك ما رأيك باقتراحي ·· أربع نعاج مع بقرة ·· وعروس ··

وقرر الشاب فجأة أن يدلي بمطالبه دون لف أو دوران فقال :

ـ لا أريد دواب ·· أريد نقدا ·· ألف ورقة ·· فالموسم غير مضمون ، وليس عندي ما أطعمها ·· ستفطس كلها دون أن أستفيد منها شيئا ·· أريد ألف ورقة لأسدد الدين للبيك قبل أن يأخذ الارض ·

وأجاب المختار وقد اتخذ وضعية مهيبة :

ـ جدعان ·· قلت لك من البداية أن تذكر أن هذا الرجل المسكين ··

لفظ العبارة الاخيرة ليكسب عطف جدعان ، وقد خطر له أن صالح لربما يصطنع المرض لهذه الغاية ·

ـ هو أقرب الناس اليك ·· وأختك ان كانت عندك أو عنده لا فرق ·· ان لم نقل ، لا مؤاخذة ، انها هناك تشبع وتكسى بصورة أفضل ·· هل أكذب من هذه الناحية ؟ وقد اقترح الخجا أن تأخذ دواب بالاضافة الى فهدة ، هذه البنت المطواع الطيبة كالحلاوة ·

وتشدق مقلدا صوت جدعان :

ـ ألف ورقة ·· ألف زبلة ·· أين النقود ؟ هل يوجد نقود في البلاد كلها ·· ماذا تطلب ؟ بنك ؟ قال ألف ورقة قال ··

وأصر جدعان في نبرة جازمة :

ـ أريد ألف ورقة لأسدد بها رهن الارض ·· لا بقرة ولا نعاج ·· غدا البيك يخرب بيتي ·

وفجأة شوهد العم صالح ينتفض واقفا ، وقد اربدّت سحنته بصورة مرعبة · كان يبدو أنه خائف من شبح مجهول أكثر من خيبته في اتمام الصفقة · وقال بصوت ضعيف متهالك :

ـ اعذروني يا مشايخ ·· لقد استنكفت عن هذا الزواج ·· ولن أسمح لفرحة بدخول داري ··

وهمّ بالانصراف · كان لهذا القرار المباغت وقع الصاعقة في نفوس الحاضرين ، مما ألجم ألسنتهم · ظن الجميع أن صالح قد غضب من ابن أخيه ، وصب حنقه على فرحة · وتدارك الخجا الموقف بسرعة ، هجم على صالح وطوقه من ركبتيه ، ثم أجلسه بقوة صائحا في وجهه :

ـ الى أين ذاهب يا ثور ؟ الله يعمي بصرك ·· هل تزعل من ابن عبد الله ؟ انه يريد قمحا أيضا ، اعطه خمسين مدّا وكفى الله المؤمنين شر القتال ·· هل يحتاج الامر الى خصومة ؟·

لم يكن أحد قد عرف بالعاصفة التي تدوّم في صدر الرجل ، قد يكون الشك قد خالج نفس المختار لصلته القديمة به ، ولكنه استبعد مسألة معينة لعدم منطقيتها • كان صالح الذياب يرتعد من عقاله حتى أظافر قدميه ، وكان يضغط على أسنانه ضغطا شديدا ، وكأنه حانق على شيء ما أفدح الحنق • ولم ينتبه الحاضرون الى هروب لون وجهه ، وعزا المختار كل هذا الى هوس الرجل وعصبيته المتطرفة •

وسأله هامسا :

ـ مالك يا ذقن التيس ؟ ماذا جرى ؟•

ورد صالح بأنه يحس بصداع أليم • وطلب اليه بالحاح أن يؤجل مسألة الخطوبة الى حين آخر • وسأله المختار دهشا عن السبب ، فرد الرجل : بأن قلبه يحدثه بأن هذا الزواج لن يوفق • واختلق لذلك أسبابا كثيرة ، الا أن هذه الاسباب لم تخرط مخ المختار • ولربما لانه كان يتقاضى عن أمثال هذه المعاملات أجرا طيبا ، فقد خشي أن تفشل الصفقة ويعود بخفي حنين • لذا أخذ يطمئن الرجل ، ويضع نفسه بدلا عنه طرفا في القضية ، وأكد له بأنه سيكون مسؤولا عن كل شيء ، فيما اذا لا سمح الله تحققت مخاوفه ، علما بأنه لا يلوح في الجو ما يوحي بتحقيق شيء منها • كما أعاد الى ذاكرته مسألة الاتفاق السري الذي جرى مساء الامس ، وأنه تكفل بدفع خمسين مدّا من الحنطة بالاضافة الى المواشي ، اذا أصر جدعان على مسك يده •

وصمت العم صالح لا عن رضى وقناعة ، بل لانه بات غير قادر على الحركة أو المناقشة • كان ما يشبه الشلل يسري في جلده • ولبث مضطجعا حانيا رأسه على صدره أقرب الى الموت منه الى الحياة •

وحدث فجأة الحادث الذي دعم الاتفاقية دعما قاطعا • لقد سُمع في الخارج لهاث وعدو أقدام ، وظهر في الباب قاسم يجر وراءه فرحة وهما ينتفضان من الانفعال • ومن ورائهما كانت فهدة تشبك أصابعها تحت سرتها وتدق ابهاميها أحدهما بالآخر غبطة ، وعلى وجهها الاسمر الدقيق سيماء الفرح والدهشة • وما ان سمعت العجوز أصواتهم ، حتى كوّرت كفها حول فمها وأخذت نفسا عميقا و •• وأجفلت الدجاجات في الخم ، وضرب الحمار بأذنيه ، وهرب جرذ كان يمد شاربه من احدى الزوايا ، عندما انطلقت زغرودة العجوز تشق سكون الكون الهادىء المتوفز •

ومد الفقير كفيه الى الاعلى صائحا بلهجة دعائية :

ـ اقرأوا الفاتحة ·· باسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ··

وتخافت صوته ، في حين ارتفعت أيدي الخجا والمختار بتمتمات طويلة خاشعة ، ثم مُسحت الوجوه واللحى والشوارب · وأزاح المختار عن جانبه عباءته الوبرية ، ودس يده في جيب سرواله ، مخرجا منه ورقة معلوكة طويلة قدمها الى الخجا ، وأهاب به أن يكتب :

ـ بعد الاتكال على الله ، وموافقة الطرفين ، صالح الذياب بن ذياب الصالح وجدعان العبد الله بن عبد الله الجدعان ، وبحضور عضوي المختارية و ···

واختلطت في أسماع صالح أسماء عديدة ميز بينها : قاسم ، فرحة ، نعاج ، بقرة ، فهدة ·· على أن يتم التسليم فورا · وأراد أن يعترض على كل شيء ، فضاعت حشرجته في الضجة التي بدأت تقتحم أسرار الليل · ولم يشعر بيده ترتفع الى شفتي ابنه قاسم تلثمانها ثلاث مرات ، غير أنه أحس باغماء ، عندما تقدمت فرحة وأخذت كفه بين أناملها ورفعتها الى وجهها المصبوغ بلون البندورة ·

وعندما تناول المختار أصبعه ليبصمها في أسفل الاتفاقية صاح فجأة :

ـ يالله ·· ان صالح مريض ·· احملوه الى داره ··

وحمل الرجل الى زوجاته الثلاث ، وهو يهذي بكلمات نابية تحمرّ لها الوجوه ··

· · ·

(٥)

اقتيد صالح الذياب الى داره مرافقا من قبل المختار وعضويه الخجا والفقير ، محاطا بعرسانه الاربعة الذيـن أصابهم الكمد ، متبوعا بصبية استنفرتهم زغرودة العجوز ، حفاة عراة ما اغتذوا ولا عرفوا(١) • وانتهى الموكب ببعض الكلاب الجائعة برغم ما قيل عن أنف الكلب • ووصل الموكب الى الدار التي كانت تستعد للضجيج ، ففوجئت الزوجات بمنظر ديكهن السمين ، لاويا عرفه مهيض الجناح • وطرن اليه ينقنّ من جميع الاطراف ، ويدغدغن لحيته بمناقيرهن الطويلة •

وطمأنهن المختار : ان ما ألم به ليس غير صداع خفيف مع نسمة برد • ونصحهن أن يعطينه شربة زيت خروع مخلوطة بكمية من ملح الانكليز • وأضاف أنه اذا لم يشف حتى الصباح ، فسيتكفل الفقير بقراءة بعض الآيات والادعية على روحه حيا كان أو ميتا • واعترضت الزوجة الكبرى صارخة وكان لها وجه أرنب وصوت ضفدعة :

ــ لا سمح الله يا شيخ •• بعيد الشر •• انشالله ألف واحد مثلك ولا هـو •

كان اسمها سليمانة وكانت منذ أربعين سنة ــ منذ زواجها ــ تحلم بأن تصبح أرمل • وتحول حلمها الى أمل عندما أتى زوجها بامرأة ثانيـة ــ هي أم فهدة ــ • وانقلب الامل الى أمنية عندما بادل احدى بناتها بالزوجة

---

(١) بيت الشعر للحطيئة :

حفـاة عـراة ما اغتـذوا خبز ملـة ... وما عرفـوا للبر مذ خلقـوا طعمـا

الثالثة وهي أمينة أم قاسم • وخلال هذه المدة كلها لم تبد في الافق أية بادرة توحي بتحقيق شيء من هذه الآمال والامنيات • ولكن المرأة لم تستسلم ، ظلت تطوي في صدرها رغبة عاتية ، تنمّيها وتحرسها وتعيشها ، الى أن أضحت هذه الرغبة المحرك الاساسي لكل انفعالاتها وتصرفاتها • ولم تكن الزوجتان الاخريان مجردتين عن هذه الاهواء ، ولكن أهواءهما لم تكن تتعلق بالزوج وحده ، بل تتعداه الى كل الناس بما فيهم ذاتيهما •

وساقت الزوجات التائهات ـ بين الامل والخيبة ـ زوجهن الى احدى أكواخ الدار وهنّ يتناقشن في حالته الغريبة • ولكن في عجلة من أمرهن الى درجة أنهن لم يفهمن شيئا • ثم تركنه مضطجعا في احدى الزوايا الواحدة تلو الاخرى ، وخرجن الى ساحة الدار ليطلقن الزغاريد ويوقدن النيران • وقد أمسك الرجل بتلابيب أمينة أم العريس قبل أن تخرج ، وهمس في أذنها بطريقة بعثت البرودة في أوصالها :

ـ اسمعي يا أمينة •• ملعونة بنت ملعون •• كل هذا بسببك •

ولم تصرخ المرأة من الذعر • وقد اعتادت تقلبات زوجها السلوكية وظنت أن ما أصابه ليس غير نتيجة غبن لحقه في المبادلة • ولم تشأ حتى أن تعرف دورها في الموضوع • ولكنها فرشت له فراشا وسألته في تحبب :

ـ هل أحضر لك الشربة التي أوصى بها المختار ؟••

فأجاب بلهجته الشيطانية السابقة :

ـ •• أبوك على أبو المختار •• اتركيني وحيدا ••واذا دخل أحد من هذا الباب فينقلب عرسكم الى مأتم ••

وصفقت المرأة الباب وراءها وهي تتمتم : ثور فلتان هذا كل شيء •• وحرصت عقب خروجها على أن توصد الباب خشية أن يدخل عليه أحد فينفذ تهديده • ولم يكن انقلاب العرس الى مأتم مسألة خطيرة بالنسبة اليها لولا أن ابنها كان العريس •

كانت زوجات صالح الذياب منذ زمن بعيد ينتظرن حادثا سعيدا أو سيئا لينفثن فيه سموم نفوسهن المخبوءة ، وليجدن فيه شاغلا عن القيل والقال واختراع الحوادث • كانت لهن مشاكل متشابهة ومتباينة ، مجتمعة ومتفرقة ،

ذاتية وخارجية ، مع الارض والسماء ، ومع سكانهما معا · كانت أولى مشاكلهن أنهن آدميات فعلا دون أن يحيين حياة الآدميين ، وآخرها أنهن زوجات متعـددات لرجل واحد · وكون هذا الرجل هو صالح الذياب كان عقدة لا يستهان بها ·

ولم يصادَف مرة ، خلال وجودهن معا ، أن اتفقن على مسألة واحدة ، ويبدو أن ابليس وحاشيته كان لهما تأثيرهما في هذه القضية ، لانهما يخشـيان المنافسة ، ولا شك أن اتفاق النسوة الثلاث على أمر ما سيضع ابليس وحاشيته في صف العاطلين عن العمل · وقد حدث أن اتفقن هذه المرة على أن تبدأ الافراح فورا دون تروٍّ أو تأجيل ، ومن الغريب أن تكون سليمانة أكثر حماسة مـن ضرتيها ـ أم العزيس وأم العروس ـ للبدء في العمل ·

كانت الضرّات الثلاث بعصب رؤوسهن الكبيرة المدببة ، وبأثوابهـن السوداء المتهدلة ، يبدين كحيوانات (الكانكر) · وكانت تفوح منهن الى مسافة بعيدة رائحة ذكر الماعز الهرم · وكن خلال جولاتهن في ساحة الدار الكبـيرة ، وهن ينقلن التبن والقطران لايقاد النيران ، يظهرن كأشباح غريبة عدوانيـة تعمل على ارتكاب شرور لا تخطر على بال ، وكان العرسان الاربعة يهومـون أزواجا وراء النسوة ، لا يدرون ما يفعلون ، ألجمت الدهشة ألسنتهم ، وباتوا يتوقعون حدوث أمور مفرحة لا يعرفون كيف يهيئون أنفسهم للمشاركة فيها ، ولا يملكون حيالها غير التربص والانتظار ·

كان ينتاب جدعان ـ وهو يحس بيد فهدة تتحرك في يده ـ شعور طفولي لم يختبره في حياته · كان قد وجد نفسه فجأة موضعا للاهتمام ، وراح يتخيل أن ما يحدث في الدار من حشد واجراء وترتيب هو احتفال بأربعة أشخاص كـان هو أحدهم · وكانت فهدة مأخوذة مغلوبة اللب تفكر : ترى هل أصبحت زوجـة حقيقية ·· ؟ كانت تقزل الى جانب جدعان دون أن تجسر على النظر الى وجهه ، متهيبة أن تُختطف منها سعادة غامضة لم تذق طعمها بعد ·

أما العريسان قاسم وفرحة فكانا أكثر واقعية · كان قاسم يتكلم مفتونا بصوت مرتفع ، وفرحة الى جانبه تساير حركة يده مع يدها وتصغي الى أحاديثه بنوع من الاطمئنان · وكانت عندما يتوقف عن الهوم ويتطلع الى عينيها ، تحاول مخلصة أن تشاطره تلك المشاعر الملتهبة المضطربة في وجهه ·

وكَوَّم التبن في سبع جهات من تخوم الدار ، وسَكب فوقه القطران ، ثم

أعطي نارا ٠ وفجأة انطلقت الزغاريد من حناجر الضرّات الثلاث ، وكان هذا الايماز بمثابة مدافع العيد ٠ جلجل قرع الطبل يمغص جوف الليل ، وتصاعدت انغام مزمار مزدوج تدعو النائمين الى رقص حقيقي على الارض بدلا من رقصات الاحلام على شوك السعادة ، واستُنفر سكان القرى المجاورة ٠ وجفلت بعض ذوات الآذان ، وهربت الى مسافات بعيدة لتبحث عن فرائسها في الظلام الهادىء ، وتراكضت الدجاجات في أقنانها تبحث عن مخرج ، وصـاحت الديكة مـــرات متوالية دون أن تلمح الفجر الصادق ، وتشابكت أيدي الشـــباب والفتيـات ، وتلاحمت الاكتاف، وبدأ الرقص والتواثب ، في حين تسلق الاطفال سطوح الدار ليشرفوا من الاعلى على مشهد الافراح المشبوبة ٠

وبالرغم من أن فصل الخريف كان يجر ساعاته الاخيرة ، الا أن الجو كان صحوا ، والسماء صافية ،والهواء جافا ، فضلا عن أن النيران الموقدة كانت كافية لان تذيب جليد القطب٠ وغاب عن بعض المحتفلين من الشباب اختفاء رب‌الدار ، الا أنه أثار الريبة والتساؤل عند الآخرين ، مما دعا الزوجات ـ اللواتي‌كن على هرمن يفتلن كالدراويش ـ أن يطمئن السائلين ، بأن الرجل نائم لانه مصاب بوعكة خفيفة من جراء البرد ٠

● ● ●

ظل صالح الذياب طوال فترة طويلة يستقصي في أعماقه حقيقة الشعور الذي اعتراه في الآونة الاخيرة ٠ كان يجهل جهلا تاما ترتيب الحوادث وتشابكها والدوافع التي أدت الى بعض الانفعالات الشيطانية الغريبة٠ انه يعرف أن فرحة سقطت فوقه أثناء اجتيازها المكان لتخرج تنفيذا لاوامره ٠ وكان طبيعيا أن يساعدها على النهوض ٠ فمد يديه الى صدرها ليدفعها ٠ وهنا بدأت المشكلة ٠ كان يتساءل : ترى هل كانت ثقيلة الى هذا الحد ٠ ؟ أم أنها هي حاولت التشبث به ٠٠ ؟ وكان يتجنب بجبن كبير ذلك الاحتمال المخيف : أن يكون هو الذي حاول ذلك ٠ وحين يخطر له هذا الخاطر بشكل سريع غامض ، كان يحملق‌عينيه من الذعر ، ويزفر زفرة طويلة ، ويتقلب على جنبيه وهو يستعيذ بالله من الشيطان الرجيـــم ٠

كان يرى أنه ليس فقط من غير المعقول ، بل من الجنون المطبق أن تخونه أدميته ٠ صحيح أنه كان شهوانيا متهوسا ضعيف الارادة ، الا أن هناك صـــلات قرابة بالفتاة ، فكيف يمكن أن يسمح للشيطان أن يوسوس له ؟٠٠

ولاول مرة أخذ يعتب على نفسه لانه قاطع أسرة قريبه مدة طويلة ، حتى بات أفرادها غرباء بعيدين عنه كل البعد ، وأصبحت صلة القربى بينه وبينهم وهمية يمكن قطعها ، ويسهل امتهانها • وتذكر حادثة أول الامس عندما مس صدر الفتاة بجبينه بصورة عفوية ، لم تترك هذه الواقعة في نفسه كبير أثر ، وقد استطاع أن يخزي الشيطان بسيل من الشتائم واللعنات • أما هذا المساء •• ويعود الى التخبط في هواجسه من جديد •

وفجأة داهمه احساس مرير بأنه وقع في فخ لا يمكن التخلص منه ،أصبحت فرحة في داره ، وسيكون دائما عرضة لاختبارات رهيبة كافرة • وفي غمرة انفعاله قرر أن يعمل فورا على ايقاف المهزلة • كان في لحظات معينة ، يقنع نفسه أن ماحدث له ليس غير وهم من الاوهام ، وأن هواجسه الشيطانية ليس لها أي مبرر ، ولكن ما أن يستعرض تفاصيل الموقف حتى تعتريه تلك الهزة العميقة في كل مشاعره • وفي لحظات أخرى ، كان يستلم زمام نفسه ويفكر : ان ما حدث يجب أن لا يتكرر ، ينبغي لي أن أكون أكثر حزما تجاه الشيطان الرجيم ، وما هذه الفتاة غير ابنة صديقي المسكين الذي مات دون أن أحضر جنازته ، لهذا يجب أن تكون كابنتي ، وهي على كل حال زوجة ابني ، وليس في الامر كله ما يستوجب الخوف •

كان خائفا من شيء ما ، ولعل هذا الشيء هو نفسه ، وكان يحس بأنه اقترف اثما كبيرا لا قبل له على التكفير عنه ، غير أن ما كان يخشاه أكثر من ذلك أن تعود المأساة بطريقة أخرى • وفي كل مرة يكاد يفلح فيها بالتخلص من وساوسه ، وبالاحتراز من مفاجآت جديدة ، يجد نفسه ينكص على عقبيه خائرا مذعورا طائشا كذبابة • كان احساسه بالوقوع في الفخ يعذبه كثيرا • وكان ما يقوّي هذا الاحساس ويؤكده ضجيج الافراح القائمة في الخارج ، وما أن يقرر الاستسلام للمصير المجهول الذي ينتظره ، حتى يعاود التفكير بامكانية التخلص ، وطريقة التخلص يجب أن تتم بايقاف الافراح فورا ، والرجوع عن اتفاقية التبادل من أساسها •

وفي لحظة فاصلة ، ادرك بذعر شلّ أوصاله أن الامر قد خرج من يده ، وأن زوجاته الثلاث سيطرن على كل شيء • وللمرة الاولى هاله أن يكتشف اتفاق النسوة الثلاث على الشروع في اقامة الافراح في الليلة نفسها ، وهنا أحس

بالتخاذل : لقد انتهيت ٠٠ وانتهى كل شيء ٠٠ يجب أن أهرب ، لم أعد رجلا ولا اي شيء كان ٠٠ حمار أجرب هذا ما أصبحت عليه ٠٠

وتلوّى في فراشه كالملسوع ، وفاجأته آلام عضوية حقيقية ٠ كانت آخر محطة وقف عندها ، هي اعتقاده بأن الجميع يتآمرون ضده ، من المختار الى أهل بيته ٠ وكانت وساوسه قد استقرت على كون فرحة في داره هو الخطر الذي لا ملجأ له ٠ ولكنه اراد ان يحاول محاولة أخيرة ، دون أن يعلم شيئا عما يفعله لدرء المصيبة ٠ ونهض من فراشه بوهن شديد ، كناقه أمضى سنين مستلقيا على ظهره ٠ ووقف قانطا في وسط الكوخ٠ كان تراب خشن يتساقط من السقف فوق رأسه ، والجدران من حوله تهتز من جلجلة الطبول ، والارض تميد بفعل الرقص والدبك المستعر ٠ ومن خصائص الباب المتشقق ، كانت نصال من نور أدخن تنفذ الى الظلام ، وتدمغ الجدران والسقف والارض بصور متراصة مرعبة ٠

وفجأة انطلق صوت أمينة من الخارج بأغنية مطلعها :

(يا لله افرشوا له الفراش)

وارتفعت أصابع صالح الذياب الى رأسه ، وتكالبت على شعره تنتشله من جذوره ، ووصل الى أذنيه صوتها مرددا المقطع الثاني :

(ورشوا عليه ماء الورد ٠٠)

وتعالى قرع الطبل وأنين المزمار ،ودبت الاقدام على الارض بشكل محموم، وتراكض الاطفال على السطح ، فنخل السقف مزيدا من التراب الخشن ٠ وراح الرجل في الداخل يقفز من زاوية الى زاوية كقرد حبس في قفص متأرجح٠وتعالى صوت أم فهدة ثاقبا بنبرة نادبة :

(عيونها يا عيون الغزلان ٠٠)

كان الرجل يتلمس الجدران بكفيه ، وينطح الاحجار البارزة فيها برأسه وصدره ، وكأنه يبحث بجنون عن منفذ ينطلق منه الى الخارج ٠ ومن شقوق الباب المتطاولة والمتعارضة ، كانت أشعة النور كعيون لئيمة ترقب حركاته الهسترية بخبث وشماتة ٠

وانطلق صوت حليمانة الضفدعي بنقيق يحطم الاعصاب :

(خلاخيلك فضة ومرجان ٠٠)

وعوى الرجل في الداخل عواء ذئب جريح ، وراح يمزق ثيابه عن بدنه الغارق في العرق ٠ وفيما كانت أصوات مجموعة كبيرة تردد بنبرة واحدة :

(يالله ارفعوا البيارق ٠٠)

كان الرجل قد أصبح عاريا تماما ، وبدا بحركاته التشنجية ، وقفزاته الانفعالية ، وسط المكان المظلم المجرّح بأشعة التبن والقطران ، ككاهن احده الحال وهو يرقص رقصة الشياطين ٠ وفجأة ، وفي غمرة هذا الجنون ، وقعت عيناه على شيء جعل الدم يتجمد في عروقه ، وتصلب في مكانه فاغر الفم ، محملق العينين ، منحبس الانفاس ، غير قادر حتى على السقوط ، فقد وجد نفسه ٠٠

كانت مرآة عرسه الاول مثبتة في زاوية من زوايا المكان ٠ ولهذه المرآة ـ التي أكل اطارها السوس ، ونحت زئبقها التاريخ ، وترك عليها الذباب آثارا لا تمحى ـ ميزة غريبة ، وهي أنها تدمر الشكل الذي يقف أمامها ثم تعيد خلقه من جديد ٠ وهي تفعل ذلك في الاحوال العادية بكثير من الاستهتار والخيانة واللا مبالاة ٠ وليس على المخلوق أن يعجب كثيرا اذا وجد فيها احدى عينيه مفقوءة ، أو فمه قد مال الى مستوى حاجبيه ، وعليه أن يكون واسع الخيال لكي يصل خطوط شكله المفقودة ،ليستطيع تصور أي شكل كان يرضى عنه فيالنهاية٠ وفي ذلك الظرف العصيب الذي كان يعيشه صالح الذياب لمح صورته تلك بهذه المرآة ٠ ولم يطل تصعاق الرجل ، وكان ما يزال في مقدوره الافلات والهرب ، ولكنه لم يفعل٠ ومن الغريب أنه أفاق الى نفسه ، انتابه فجأة غضب جامح وكره لا حدّ له ، وزمجر في السحنة الغريبة المطلة من المرآة ، وكان اللهب المسترق من الباب يضفي عليها ظلالا تزيدها شناعة وتشويها :

ـ صالح الذياب ٠٠ أهذا أنت ٠٠ ؟ سأريك ٠٠

وأيقن تمام اليقين أن صاحب هذه السحنة الشيطانية هو نفسه ، وأنه هو ـ لا المختار ولا فرحة ولا أي كان ـ السبب في كل هذا البلاء ، ورفع قبضته في وجه المرآة مهددا متوعدا :

ـ سأريك كيف تخجل يا ٠٠ حيوان ٠٠

وشرع بجنون حقيقي يبحث عن سوط مضفور من أمعاء بقرية ، وعثر عليه دون جهد ، وكأن أحدا وضعه في يده ٠ ولوّح السوط في الهواء بحنق :

ـ ديوث ابن الديوث ·· ألا يكفيك ثلاث زوجات ·· ؟

وأهوى به على ظهره ·

ـ الم تنم مرة مع أرملة مطلب الصبح ·· ؟

وأهوى به ثانية :

ـ وراودت ابنة شوكت بك عن نفسها ·· ؟

وأهوى به ثالثة :

ـ ومنذ شهر تركت الحراثة وتبعت بدوية كانت تسير على الطريق ·· ؟

وضرب صدره بقبضة السوط ، صارخا :

ـ يا نجس ·· يا ابن ستين ملعون ·

وسمع فجأة ارتطاما يقع خلفه ، وامتلأ المكان بالنـــور ، و ·· وانطلقت صرخة امرأة :

ـ صالح ·· ما جرى لك · ؟

وأغلقت أمينة الباب بسرعة ، ثم أوصدته من الداخل ، وشملت زوجها بنظرات مستطيرة ، ونبحت بلسان مربوط :

ـ هل ركبك الشيطان ·· ؟

ثم استدارت تهم بالفرار ، ولكن رأسها علق بشيء ما ، ورفعت يديهـــا لتخلصه ، فوقعتا على أصابع زوجها المرتجفة · وأفلتت من صدرها صرخة ذعر مدوية ، ثم راحت تدافع عن نفسها بكل ما تملكه من سلاح · لم تكن تدري تماما ماذا يريد منها ، كانت وظلت تعتقد أنه يخنقها · وبعد صراع دام دقائق شعرت المرأة ألا فائدة ترجى من المقاومة أو الصراخ ، فلا يمكن أن يسمعها أو ينقذها أحد · وعندما قررت الاستسلام كانت قد فقدت الرشد · وجثم عليها الرجل مهمهما جاعرا مصطك الاسنان ، وراح يفترسها افتراسا ·

بعد قليل ، كان العجوز ممددا على الارض ، يسترد أنفاسه المتلاشـــية بحشرجة مكتومة ، وقد بلله عرق غزير سال حوله كالنهر · وبين أقدامه تتكوم امرأة في الاربعين ، ممزقة الثياب، مكشوفة السوءات ، تسترجع وعيها ابتداء من

أطرافها السفلى · كان قرع الطبل يرتفع أكثر فأكثر ، ودبيب الاقدام يعلـــو ويهبط بتواتر سريع ، وعزيف المزمار يتراقص مستهترا هازئا من كل شيء ·

وانتصبت المرأة متلوية كما تنتصب الافعى ، فوقعت عيناها على زوجها العاري وكأنها تراه لاول وهلة ، وتساءلت بحيرة وهي تكتشف بلل فخذيها : ترى أمن أجل هذا فقط حدث كل ذلك ·· ؟ أما كان أسهل وأجدى لو تم الامر بـــلا صراع ؟ وأسفت لانها كانت غائبة عن الحس ·

ولاحظت أن ثوبها الجديد قد مُزق من الكتفين والذيل ، فتأوهت بحسرة وهي تفتح صندوقا له شكل الماعز ، وأخرجت منه ثوبا عتيقا ولجت فيه بملابسها كلها ، ثم وقفت أمام المرآة العتيدة تصلح من وضع عصبتها المحلولة فوق رأسها المتشعث · واستطاعت أن تلاحظ الكحل الذي كان يطلي عينيها ، قد ســـال على خدّيها لطخات كبيرة سوداء ، فمسحته بطرف العصبة وأمسكت رأســـها بأصابعها وأخذت تندب وتنتحب · وعملت وهي تبكي على تمديد زوجهـــا العاري بدون أن يبدي أية مقاومة ، ثم أهالت فوق فروته المصنوعة من جلود الخراف · وسألته بعد أن أفرغ روعها :

ــ يا أخويا يا صالح مالك ··؟ ماجرى لك ··؟ هل أنا غريبة عنك ··؟

الا تحكّي لي بحياتك ·· ؟

وتجشأ من بطنه بتخاذل :

ــ آه يا أمينة ·· لو تدرين ·· اني أموت · محروق دين فاطسي ·

وفحص نفسه في سره : « أخشى أن يكون ذلك صحيحا » وأردف بصوت أوضـــح :

ــ أحس الآن براحة · لا تلوميني يا أمينة ·· الله يعلم ·· انتهى ·

ثم جعر بغتة :

ــ أريد أن أظل وحيدا ·· هنا ·· وحدي · وكل من يدخل فســ·· أقتله·

ووصلت الكلمات الاخيرة الى أذني المرأة غامضة مرعبة · وكانت الضـــجة في الخارج تضفي عليها اهتزازا غريبا ، كانت سليمانة تزعق بأغنية جديدة :

ويا دار صالح الذياب

كلها نور وافراح

يالله نرقص و نغني

من المسا حتى الصباح

وراح الفجر ينسج خيوطه ·

كان العريس الصغير قاسم مخلوب اللب ، يثب ويفتــل كالغذروف ، يصيح ويضحك ويركض لاهثا يجلله العرق · يمسك بأيدي الراقصين يدفعهم دفعا الى الوثوب ، دون أن يترك عروسه التي بدت درّة حقيقية تفلت من تحت أنظاره · كان يناديها ولو كانت يدها في يده :

ـ فرحة ·· فرحة ·· اينك · ؟

وتجيبه هي بابتسامة لاهثة ولكن حية :

ـ هاندا يا قاسم يدي في يدك ، ما لك ·· ؟

كان يزين جبينها طوق عريض من قروش نحاسية (العرجة) ، يصــدر رنينا صاخبا وهي تهز رأسها وتتواثب وتميل ذات اليمين وذات الشمال ، بينما يحيط أسفل ساقها خلخال ثقيل من الفضة ، يرتفع وينخفض باستمرار دون أن تشعر بأنه يكاد يدمي جلدها اللدن · كانت مأخوذة مفتونة ، تردد لنفسها على الدوام : كل هذا من أجلي أنا · وقد خرجت عن طبيعتها الانطوائية دفعــة واحدة ، وزجت بنفسها وكل عنفوانها في أوار الاحتفالات القائمــة ، وراحت ترشف رحيق الفرح حتى الثمالة · كانت ترفع كل مرة يدها الى جبينها الصبوح لتمسح عنه حبات العرق المتصبب ، ثم تعاود فتنزلها باحثة عن أصابع رفيقها في دائرة الرقص · كانت تتمايل مرفوعة الرأس ، ناعسة العينين ، تنظر الى أمامها دائما ، يضايقها ثدياها البارزان اللذان يثقلان صدرها ويزينانه ·

ولم يوفر جدعان وفهدة نصيبهما من المتعة ، ولكنهما كانا يختلسانهــا اختلاسا · كانا يحتفلان أحدهما بالآخر احتفالا حقيقيا لا مبالغة فيه ، دون أن يكونا محطا للانظار أو مثارا للفضول · غير أن أم فهدة كانت أحيانا تخرج عن الصف وتتفقد ابنتها بأهزوجة طروبة :

ويا فهدة ويا غزالا

نيال الحلوة نيالا ..

كانا يرقصان ويثبان ، وضاعت عاهة العروس ولم تبق شيئا يذكر .

ولعلها كانت ليلة العمر بالنسبة الى العجوز مزنة ، وكانت قد افترشت لنفسها مكانا عاليا على حافة أحد السطوح كأي انسان يحب أن يرى جيـــدا ، لتشرف من فوق ، وهي تهتز اهتزازها الناقوسي ، على سماع كل شيء . كانت تسعل وتمخط وترجف جفنيها اللذين يطرفان بسمادة ، وكانت تمسح عنهمـا الرمص الذي يسيل غزيرا بلا انقطاع . ولم تن طوال الليل عن الصياح :

ـ أين هي حبيبة قلبي .؟ أروني اياها ماذا تفعل الآن ؟ مع من ترقص .؟ ومع من رقصت . ؟ هل هي عطشانة . ؟ أخاف أن تبرد يا كبدي ..

وكانت قد وقعت مصادفة على عجوز الى جانبها فرافقتها ، مدّت ذراعهـا مرة فمست أصابعها رأسا يلتف بعصبة كبيرة لها رائحة تقطع النفس ، تحسسته لحظة ثم هتفت في هياج :

ـ بيكا .. ؟ يا بنت الملعون .. لم أرك .. أين كنت طوال عشـــرين سنة . ؟ لم لا تزورينني يا خائنة . ؟

واجابتها بيكا بصراخ أشبه بنقيق دجاجة تبيض

ـ الله ياخذ روحك ، ما زلت حية للآن .. لم أعرفك يا روح النحس..

أنا كنت مريضة بمعلاقي بعيد عنك . وانت . ؟ أما شفيت عيناك . ؟

ـ بلى .. الشكوى لله .. لا أتوجع ولكني عميت ..

واخذت العجوزان تسترجعان أيامهما لحظة ، ثم ما لبثتا أن شغلتـــا بالاعراس ، وراحت بيكا تعمل كدليل لجارتها وتجيب على أسئلتها التي لـــم تنقطع ، واستعادت العجوزان مجد شبابهما الغابر على قرع الطبول ونفخ المزامير وأهازيج الغناء .

وافتقدت الضرتان ثالثتهما أمينة فلم يجداها . وبعد طرفة عين هزتـــا رأسيهما بحركة ذات معنى . وقالت سليمانة من أنفها الارنبي :

ـ أم العريس صارت عروسا ..

وشخرت الثانية بفجور :

ـ المسخ ان شاء الله ٠٠ أصبح للخنفس ذيل ٠

وطمأنت رفيقتها مستدركة :

ـ على كل حال صالح ما بقي فيه حيل ٠٠ نشف دمه ٠

وختمت سليمانة تكهناتها قائلة :

ـ الاعور بين العميان سلطان يا أختي يا أم فهدة ٠ ومن يعلم ٠٠ ؟ أنت لا تعرفين كيف صالح ٠٠

وارتفع الصباح ، فخف الحشد قليلا ٠ ذهب بعض المحتفلين ليستريح ، بينما آثر آخرون البقاء في المكان كيلا يضيعوا البهجة ، واستلقوا على الارض ينشدون لاجسادهم الراحة ٠ واقعى الطبال في أرضه كالكلب معانقا طبله بين ساعديه يختبر استعداد جلده ، بينما ابتعد نافخ المزمار وهو ينفض البصاق الذي سد فراغات مزماره ٠ وأمسك قاسم بذراع عروسه الثملة وجرى بها بعيـدا الى حيث غابا عن الانظار ٠

عند الظهيرة عاد قاسم وحيدا ، مخدش الوجه عابسا ، يملأ جوانحه الهم والخيبة ، وكان جليا أنه لم يستطع أن يقطف الثمرة الشائكة التي تحلّب لها ريقه طويلا ٠ ولكنه ما أن شوهد من بعيد حتى التأم الشمل من جديد ، فزغردت النساء ، وهلل الرجال ، وحُمل العريس الخائب على الاعناق ، وعاد الطبل والمزمار الى عزيفهما المدوي ٠

وظهرت أمينة بعد غيابها الطويل الغامض ، وكانت لا تقل بؤسا وبلبلة عن ولدها الحزين ٠ كانت متورمة الوجه ، في حالة يرثى لها من الهم والقلق ٠ وهرعت الى العريس تخطتفه من الحلبة التي بدا فيها أسيرا ، غير أنه أشـاح عنها بوجهه تغرغر الدموع في عينيه ٠ فأمسكت بذراعه متوسلة تخنقها الغصة :

ـ حتى أنت يا ولدي يا قاسم ٠٠ ما لك ٠٠ ؟ تكلم ٠٠ ؟

فغمغم بتبرم :

ـ لا شيء انها حيوانة ٠٠ مفترسة ٠٠

وتأملت الام علائم الاظافر في وجـه طفلها المتدلل فأصابها الجزع ٠ وصرخت :

ـ ألم تقدر عليها ٠٠؟ هل آذتك كثيرا ٠٠ أين هي الشيطانة الخبيثة ٠٠؟ بنت الزنا ٠٠ بنت الـ٠٠

وأجاب العريس شاكيا :

ـ لا أدري ٠٠هربت ٠٠ قالت اني أوجعتها فخمشتني وأفلتت من ساعدي وهربت ٠٠ و ٠٠ ما قدرت عليها ٠

ولم يسمح الشباب للأم أن تعبر عن غضبتها الفائرة، فانتشلوا ابنها من بين يديها وقذفوا به الى الحلبة من جديد ٠ وراحت الضوضاء تعلو شيئا فشيئا حتى طغت على كل شيء ٠

• • •

(٦)

أثار غياب صالح الذياب عن الاحتفالات فضولا أكثر من الشكوك ، ولكن المسألة لم تصبح مشكلة ، حتى فطنت سليمانة بهواجسها وحدها الى أسباب تلبك أمينة وتحيرها ٠

وكانت القرائن تشير الى أن أمينة غابت فترة طويلة خلال الليل ، ثم عادت بالحالة التي ظهرت بها قبل عودة ابنها من المعركة خاسرا ٠ ولم يجد أحد سببا لربط قضية الام بقضية الابن ، وان كان لهذا الربط ما يبرره ، لما عرف عن حنين الام لان ترى ابنها قد أصبح رجلا حقيقيا ٠ وعلى الرغم من أن العريس والحماة كانا يحملان آثار معركة ظاهرة ، الا أن الاحتمال الصادق ظل بعيدا عن متناول الحدس الصحيح ٠

لقد فسرت حالة قاسم تفسيرا منطقيا ٠ وعلق بعض الشباب على ذلك قائلين وهم يفتلون شواربهم : « الزينات لا يقدر لهن الا الرجال ، والضبع لا يصيده الا صاحب القلب القوي ٠٠ » واهتمت النساء خاصة بحالة أمينة ٠ وكانت أن تشاورت سليمانة وأم فهدة بشأنها ٠ ولكن ما أضاف الى المسألة غموضا ، هو كدمات وجهها والتشويش الذي أصاب هيئتها وأضفى على سحنتها حزنا وكآبة ٠ واستبعدت الضرتان قضية الممانعة ، بل انهما سخرتا من أن تبدي أمينة أي صد حين تشتهى حتى ولو لم يكن المشتهي هو زوجها ٠ وبصرف النظر عن كون هذا الحكم ظالما أو عادلا، فان من الغريب أن تحصر المرأتانالمسألة كلها في احتمال واحد ٠

وكان من الطبيعي أن يأوي رب البيت الى فراشه مبكرا ، عازفا عن المشاركة بأفراح الشباب، خاصة ممن كان في سن صالح الذياب ويعاني ما يعانيه

من مشاكل • ولكن اختفاءه المريب ، وتحفظ أمينة في كشف سره ، وضع أمام الاذهان علامة استفهام كبيرة •

وتطوعت سليمانة مدفوعة من أم فهدة الى هتك السر • ودنت من بـــاب حجرة زوجها تستطلع • وهنا هرعت اليها آمنة هائجة مائجة :

ــ أما كفاك وسوسة يا أم القرون ••؟ ماذا تنوين أن تفعلي ••؟

وارتج على سليمانة من هذه المفاجأة غير المتوقعة ، في حين أخذت أم فهدة تفرك كفيها سرورا • كانت أمينة قد خمنت أو سمعت طرفا من الوساوس التي دارت بين المرأتين ، فراحت تعمل أفكارها لتجابــــه الوضع المترتب عن حالـة زوجها العسيرة• ولا شك أنها أحبت أن تلقى ضرتاها مالقيته من متاعب ، ولكن بدون مضاجعة ، ولو كانت هذه المضاجعة على غاية من الخشونة ، من أجل هذا راحت تلهب حنين المرأتين الى تجربة حظهما بمحاولة اختراق باب حجرة الزوج ، على الرغم من التهديد الذي صرح به من أنه سيقتل كل من يدخل عليـــه • ولكنها لم تضمن أن يكتفي زوجها بتعذيب احدى ضرتيها بدون أن ينالها ، وهنا تدخل عامل الغيرة بكل قوته • فما أن شاهدت سليمانة تقترب من الباب حتـى انقضت عليها كالصاعقة •وكادت تلتحم المرأتان لولا أن تدخلت الثالثة ببراءتها وبعد قصدها المعهود ، فأزاحت المرأتين جانبا وهي تنفي :

ــ ما لكن يا أخواتي ••؟ ما تتركان الرجل يستريح ؟•

وكان ينبغي للمعركة أن تنشب سريعا، لولا أن سُمعت من الداخل وفي فترة صمت قصيرة همهمة الرجل يخاطب نفسه :

ــ يا عجوز النحس ••يا نجس •• ماذا تريد •• ؟

علقت النسوة عيونهن وهن يصغين الى الاجابة التي سُمعت بصوت آخر لا يشبه صوت رجلهن الخشن القوي • كان الصوت الجديد البارد يعلن :

ــ اقتل نفسك واسترح ••

ولم تستطع الزوجات صبرا، فألقين بثقلهن الى الباب الذي رُبط من الداخل بحبل ، واقتحمنه مندفعات الى ظلام الحجرة • ثم ما لبثن أن تجمدن في مواضعهن مذهولات غير مصدقات أبصارهن التي بدت لهن خادعة • وتجمـــع

الاطفال لدى الباب ، وكان بينهم الصغير سليم الذي راح يصرخ في حوش الدار يستنفر المدعوين :

ـ أبويا شنق حاله ٠٠ أبويا شنق حاله ٠٠

وكان الرجل قد ضبط عاريا تماما ، يقف فوق الصندوق وهو يوسع الانشوطة ٠ وبدأ سريعا الندب والصراخ على شكل مأتمي جارح ، أو على الاصح انقلبت الافراح الى أتراح ٠

وأحضر الفقير على عجل ٠ كان صالح الذياب يثوي في فراشه مرتديا نصف ملابسه، معصوب الرأس بمنديل أخضر ٠ وكان شاحب الوجه متغير السحنة، تطل من عينيه المفتوحتين على سعتيهما نظرات بليدة تائهة ٠ ولم يضـع الفقير وقتا ، وقبل أن يستفسر عن أي شيء ، أقحم يده في صدر الرجل يفتل شعيراتـه ويجهر بالادعية المناسبة ٠ سأل الفقير ، ولم يكن متافيزيقيا قط :

ـ أما شرب شربة ٠٠ ؟

ولم يجبه أحد، لان النشيج والبكاء والعويل كان مرتفعا من حوله على درجات متفاوتة ٠ وقد غص المكان بالمدعوين وذوي القربى ، وقد تخلف جدعان وزوجته اللذان اغتنما الفرصة وتسللا بدون أن يشعر بهما أحد ٠ وتبعتهما العجـوز مزنة تقودها حاسة شمها وخيالها الذي ألهب كالكبريت ٠

وأعاد الفقير سؤاله الملح :

ـ ولكن يا غربان البين أما سقيتموه شربة ؟٠ سوّد الله وجوهكن ٠٠

كان قاسم قد لاحظ مشدوها أن فرحة قد احتلت مكانا في زاوية الحجرة قرب رأس أبيه ، أما كيف ومن أين ومتى حضرت فلم يخطر له ذلك، كل ما راح يفعله وهو يقف بعيدا أن يبادلها نظرة عتاب ٠ وكانت مشغولة على الاكثر برعبهـا الصامت ، لاتني تلتفت الى الحبل الذي كوّم في الزاوية ٠ ولعلها كانت تتساءل: ترى هل شنق عمي نفسه حقيقة ٠٠ ؟ وهل هو ميت أم حي ٠؟

كانت ترتعد ويتلون وجهها بكل لون على التوالي ، وقد تخلصت مـن شلل أصاب أطرافها عندما بالت في ثيابها وهي جالسة في مكانها لا تتحرك ٠ وقد وُهبت فجأة قدرة كبيرة على التخيل ٠ تصورت عمها مدلى من السقف وفي عنقه

الحبل الغليظ · وأخذ شعر رأسها يقف شعرة شعرة ، وجلدها يتفتح وينبع عرقا ·

ولم يشأ أكثر المدعوين أن يبددوا نشوتهم بالفرح الذي تعبوا في اقامته ، فانسحبوا من المكان مفسحين المجال لزوجات المصاب أن يعبرن عن جنونهن · وانحنى الفقير فوق رأس صالح سائلا :

ـ ولك صالح · ؟ الله يقطعك مالك · ؟

وهنا تحرك الرجل في فراشه كمن يفيق من مخدر ، ولعله أيقن تماما أنه نجا من الموت بأعجوبة ، ثم انتصب في مكانه بطريقة جعلت فرحة تفرغ مثانتها من جديد ، وتحبس الاصوات في حلوق الزوجات النادبات · ولوى شفتيه بابتسامة ماكرة جمدت الاوصال ، ثم نبح بطريقة غريبة :

ـ لعن الله أجدادكم ، لم أمت بعد ·· هأناذا أقوى من الثور ·· ولكني جائع فقط · ثم التفت الى زوجته الصغرى بحركة بطيئة وتابع :

ـ ولك أمينة ·· والله لأسلخ جلدك· وحق ربي حتى تصدقي·· لأطحن عظامك · أنت طالق بالثلاثة وان حللك شيخ حرمك أربعون ··

كانت فرحة تكمن وراءه تقريبا، متصلبة منكمشة على نفسها لاتقوى حتى على التنفس ، ولكنها ارتعدت عندما أضاف العم موجها الكلام الى ولده :

ـ ولك قاسم ·· هل أخذتها ·· ؟

وسرت بين الحاضرين همهمة مكتومة · وتطلع الجميع الى الفتاة التي كانت (عرجتها) قد تدلت فوق عينيها وكأنها تدمغها بالفسق ، في حين تابع العم في هوس :

ـ أنذرك ألا تقربها ·· هل تفهم ·· ؟ لا تمسها أبدا ·· أقول لك السبب · انها ···

وهز تقاطيع وجهه المتبدلة اهتزازا ذا معنى :

ـ لازم تفهم ·· وسنرجعها الى أخيها ابن الكلب ·· أين فهدة ·· ؟ كنى هزلا ··

ثم ضرب ضربته الاخيرة :

ـ فرحة بنت سائبة ٠٠ وأنا أعرفها ٠٠

ووسط الذعر الذي ألمّ بالحاضرين ، والانظار الحاقدة التي راحت تلتهم الفتاة ، كانت هي الوحيدة التي لم تفهم مما قيل شيئا ، وعلى الاكثر ظلت تعتقد أنها عروس متدللة لا تشوبها شائبة ٠ وكاد الوضع أن يتأزم ، ويبدأ الهياج، ولكن الفقير ـ وقد بدا غير مقتنع بهذيان المريض ـ أخمد الفتنة ، أو على الأصح عمل على تأجيل هبوب العاصفة ٠ اذ أنه أمر بالجلاء عن الحجرة ، وأوصى بأن يؤتى للزوج وفي الحال أوقية زيت خروع مع خمس أصابع ملح الانكليز ، وقد أشرف بنفسه على المعالجة ٠

لماذا حاول صالح الذياب أن يشنق نفسه ٠ ؟ هل كان يعاني أزمة وصلت الى حدها الاقصى ، أم أنه افتعل ذلك لغاية في نفسه ٠ ؟ ولماذا قال ما قاله ؟ وهل كان ذلك من تأثير الحمى كما ادعى الفقير ٠ ؟ ولكن أين هي الحمى المزعومة والرجل لم يتقلّ بالنار ٠؟ كما أنه طلق زوجته الصغرى ثلاثا ، ومعنى هذا أنها حرمت عليه،ولم يبق في مقدورها المكوث في داره أو أن تذوقله زادا ٠٠ كما أنه هددها لسبب ما بأبشع صنوف العذاب ٠ ترى هل جن الرجل ؟ أم كان ذلك هذيانا لا يلبث أن يختفي عندما تدور الشربة ويفرغ على أثرها أمعاءه؟ ولماذا طلب من ابنه أن يُبقي على عفاف العروس ولا يمسها؟ هل هي حقا كانت سائبة عديمة الشرف ، أم آن الرجل أراد التخلص منها بأي ثمن قبل أن يصبح ارجاعها مستحيلا ٠٠ ؟

كل هذه الاسئلة وغيرها كانت تتفاعل في رؤوس أهل القرية ، الذين حضروا المأتم والذين نقل اليهم الخبر ٠ وكثرت الاقاويل ، وتبودل الهمس ، وجهرت النساء علنا بأن أمينة وفرحة الله أعلم ٠٠ ولكن لم يضع أحد ظنينا في ذمته ٠ وكانت النتائج الاولى التي ترتبت عن هذه الحادثة ، أن أصبحت الزوجة المسكينة أم قاسم تحمل صفة المتهمة تجاه ضرتيها، باعتبار أنها تكتم سرا رهيبا لا يعلمه أحد غيرها ، تحمل دلائله في وجهها وثيابها وعصبة رأسها الممزقة ، وفيما صرح به زوجها بعد افاقته ٠ وعقدت الضرتان الخلوات الطويلة باحثتين ممحصتين مستخدمتين كل ضروب الخيال ، دون أن توفقا الى بصيص من نور يهديهما الى حقيقة القضية ٠ وقد تأكدتا بعد محاولات عدة ، ألا فائدة ترجى من استجوابها ، وأصبحت في نظريهما لا أكثر من حية خبيثة رقطاء تلتف بلجد

فأر ، وراحتا بحذر تراقبانها في توجس ، متوقعتين أن تحل بهما بواسطتها شرور لا يمكن التكهن بهـا ٠

أما من ناحيتها هي . فكانت أكثر توجسا وحيرة من الاخريات . وكانت تتخبط في حلوك أشد قتاما . خاصة وأنها دون غيرها قد خاضت تجربة قاسية ٠ ومما كان يسبب لها الذعر، أنها باتت تذكر حادثة تلك الليلة بكثير من الغموض والتهويل.وأدهى من كل هذا أنها وجدت نفسها في حالة لا تسمح لها بالتحدث الى أحد ، بعد أن انفض عنها الجميع واعتبروها امرأة طالقة ، ولم يبق لها نصيب في حساب أحد ، حتى لو أنها التفتت الى ابنها الصغير سليم ، لوجدته ينظر اليها ازورارا وينفر منها مسلما بان أمه شنقت أباه٠ وهو ، وان ما زال حيا فقد مات وانتهى ٠

وكانت الاحداث أقوى من أن يتحملها كيان قاسم الضعيف ، الذي وجد نفسه فجأة قد أصبح من قبل أمه وعروسه مخلوقا ضائعا بلا رابط . وقد فقد ، أو هو في سبيله الى فقدان كل شيء ٠ فابوه الذي تنازل عن عناده فجأة ، ولبى طلبه وزوجه فرحة. يهم في نفس الليلة بقتل نفسه٠ وعندما فشل ، أراد أن ينتقم من أمه وعروسه أسوأ انتقام ٠ وكان يتساءل : ترى ما الذي دفع أبــي الى أن يستعجل القضية بليلة واحدة ؟ وأن يعمل على اعداد ترتيبات الزواج بتلك السهولة والسرية والسرعة الغريبة ؟ وفي لحظة من لحظات حيرتــه أدرك قاسما شعور بالاضطهاد ، وخرج بنتيجة واحدة : وهي أنه هو الهدف الاساسي لكل هذه المصائب ٠ وتساءل مغتما : ترى هل أثمت بحق أبي حتــى يعاملني هذه المعاملة الظالمة ٠ ؟

كان يعلم بأنه طفل أبيه المتدلل الى أن يكبر سليم، وأنه قد ولد بعد خمس اناث، ليكون حامل اسم والده وامتدادا لذريته ووارثا لارضه. وهكذا٠٠ وبعد أن يعقد قرانه يطلب اليه ألا يمس عروسه ٠٠ لماذا ٠ ؟ هل هي حقا غير عذراء ٠؟ وكيف ٠ ؟ ومن ٠؟ و٠٠ فجأة ألفى نفسه يضطرب اضطرابا عنيفا ٠٠ لربما كان ذلك صحيحا ٠٠ فقد رفضت أن تسلمه نفسها باصرار وعناد بغلة شموس. ولقد تغلبت عليه وغرست أظافرها في وجهه لتفلت من تحت بطنه ٠ وعندمـــا وصل قاسم بأفكاره الى هذا الحد ، قفز كالملسوع وراح يصرخ :

ــ يما ٠٠ يما ٠٠ يا أمينة ٠٠٠

وعثر عليها تجلس فوق حجر كبير في زاوية من زوايا الحوش قرب الرماد، تعتمد رأسها بين يديها وكأنها تسترجع ذكرى ماض أصبح يبابا :

ـ يما أنا داخل عليك ·· و

وراح ينتحب · وأحست الام ببعض العزاء ، وراحت تواسي نفسها وتواسي عريسها الحزين · وصعّدت الى وجه ابنها نظرات حانية وهي ترجل شعره بأصابعها ، وكانت قد اهتدت الى أساس المشكلة :

ـ عين أصابتنا يا ؤلدي ·· والله عين أصابتنا ·· عين حسود وأنا أعرف صاحبتها ·· والعين الحسود تعمى ولا تسود ·· تفتفتفتف ··

ورفع قاسم وجهه الى أمه لينال نصيبه من التعويذة :

ـ وأنا أعرف صاحبة هذه العين الصائبة ، انها تحيك لنا المكائد ، ولا يستبعد أن تحيلنا كلنا الى صراصير ·

وفكر قاسم واجف القلب : اذا أصبحت صرصورا فكيف أنام مع فرحة ·؟

ـ وهي التي سببت ما سببته لابيك المسكين ·· وهي تكره فرحة أيضا ، تكرهنا جميعا لانها لم تنجب صبيا تفرح به مثلي · لا تصدق كلام أبيك يا قاسم ، فهو لم يقل ما قاله بشأن فرحة الا تحت تأثيرها ، وهي بنت شريفة ماقبل فمها غير أمها ·· بنت مزيونة وما شاء الله عنها · وأبوك ما قرر أن يزوجك اياها الا بعد ما حسب البيعة على القرش · وقد فوجئت سليمانة بالخبر فاستنجدت بشيطانها ·· أم العيون الناتئة ·· انتظر والله لاقهرها · تعال معي لآخذك الى عروسك ·

كانت فرحة قد انسحبت عقب انفضاض المأتم الى بيت أخيها ، يطغي عليها شعور جديد لم تألفه في حياتها · وهو أنها منبوذة ، وقد أكد هذا الشعور طرد أخيها اياها صائحا :

ـ يا حيوانة بليدة · العروس تبقى في بيت عمها ، ولا تعود الى بيت أخيها أبدا ··

وكان واضحا أن أخاها جدعان قد اقتنع خلال الليل بأن فهدة ستكون ذات فائدة له ، وأنها تساوي قيمتها وأكثر · وعادت فرحة مخذولة الى دار عمها

متسللة كالقطة ، حيث عقدت صداقة سريعة مع سليم الصغير ، الذي جمعهما معا خوف مجهول. فسحبته من يده واختبأت معه في خرابة التبن. وقد اكتشفت أمينة مخبأهما وراحت تزودهما بالخبز والماء .

وقالت أمينة لابنها قاسم وهي تقوده الى الخرابة :

ـ كن لطيفا معها ياولدي ـ لا تحزن لانها رفضتك في المرة الاولى ، فهذه طبيعة العرائس الصغيرات . وأنا فعلت ذلك مع أبيك يوم الدخلة ، ولم يستطع أن يفعل معي حتى حشا فمي بالتراب وكاد يخنقني .

وأسدت اليه بعض النصائح والتعليمات ، قبل أن تتركه عند مدخل الخرابة لتهرع الى دار الفقير .

● ● ●

كان الفقير يسكن وحيدا في دار متهدمة منعزلة عن القرية ، وكأنه أراد الانزواء هناك لغاية في نفسه . وكان قد تعرض ابان تشرده الى تجارب معينة جعلته يختار لنفسه نوعا خاصا من العيش . كان منطويا على نفسه لا يسمح لاحد بأن يطلع على خفايا حياته الغامضة . وكان يبدو كأنما سرق شيئا من الله، ولبث طويلا ينتظر العقاب دون جدوى، حتى بات يشك بوجود الله أصلا. ولكنه لم يكفر نهائيا ، فهو يؤمن الى حد ما بوجود قوة مجهولة لها تأثيرها على المخلوقات وعلى الطبيعة، وكان يصلي من قبيل الاحتياط، خشية ألا يستطيع النكوص فيما لو لاحت له بوادر تدل على وجود خالق جبار. وكان يربط بين المطر والملائكة بخيط عجيب، يسخر منه المؤمنون ويعتبرونه ضربا من ضروب الزندقة والالحاد. وبما أنه لم يكن يسمح لاحد بمناقشته بمثل هذه الشؤون ، مدّعيا أن العقول العادية قاصرة عن فهم الاشياء الكونية ، فقد ظل الناس يعتبرونه العالم العلامة الذي لا يرقى الظن الى ما يبشر به .

واستقبل الفقير المرأة أمنة في حجرة شبحية مظلمة واطئة السقف تشبه النفق ، تحوي صنوفا من أدوات وأشياء (طقوسية) غريبة . تبعث الوجل في قلب من يتخيلها دون أن يلمحها . ولايمكن رؤيتها على حقيقتها أصلا ، لانها بعثرت في الظلام بطريقة توهم المشاهد بأن صاحبها وحده هو القادر على الهيمنة عليها ، ومنها يستمد كراماته العجيبة . عدا عن أن الرائحة الكهنوتية الفاغمة

المنبثقة من جو المكان، كانت تفتل الرأس وتخدر الاوصال ، وتجعل الزائر مجردا عن كل بداهة ، مستسلما تماما لقوة سحرية قاهرة ٠

جلست آمنة على الارض في زاوية محددة من زوايا المكـــان ، واعترفت للفقير ، الذي كان يعتلي سدة مهيمنة ، بالحادثة التي وقعت لها مع زوجها ليلة العرس ، وشرحت له بالتفصيل عن كل وساوسها ومخاوفها ، وراحت تجيب على أسئلته ٠ وكان لا يظهر منه غير لحيته المتدلية في الظلام ، تتأرجح في الفراغ كبندول فسفوري يخترق سماء مدلهمة ٠ وكان صوته المتضخم يهدر بطريقـــة خاصة ، تجعل المعترف يدلي بأدق التفاصيل عن ثقة واطمئنان ، ذلك الاطمئنان الذي يحس به من فقد كل شيء ٠

وسأل الفقير :

ـ ألم تسمعيه يقول شيئا وهو يضاجعك ؟٠

ـ كنت غائبة عن الرشد ٠

ـ ماذا كان يقول وهو يخاطب نفسه قبل دخولك عليه ٠ ؟

ـ كان يوبخ نفسه ويهددها ٠

ـ قلت ان سليمانة تأكلها الغيرة منك فما هي الدلائل ؟٠

ـ منذ وضعت قاسم بدأت أشعر بأنها تكنّ لي كرها مميتا ٠ كانت تستر ذلك عني وعن صالح ولكنها تكشفه لام فهدة ، وكانت هذه تحذرني منها عـــلى الدوام ٠

وفكر الفقير برهة ثم عاد صوته يجلجل :

ـ ماذا كانت أم فهدة تقول لك بالحرف الواحد ٠ ؟

ـ أخبرتني مرة ، وكان قاسم في عامه الثاني ، بأن سليمانة أخذتـــــه واختفت به من الصباح الى الظهر ، وكنت مشغولة بلم الحصاد ٠ وعندما عادت به كان مصفر الوجه وعلى شفتيه آثار دماء ٠

وتأرجحت اللحية في خطورة :

ـ هل اعترف الطفل أين كان خلال غيابه ٠ ؟

ـ عندما سألته اجاب بأنها أخذته الى دكان الشامي واشترت له أصابع حلوى ٠

وسادت فترة طويلة من الصمت الثقيل ، وراح شكل اللحية يضمحل شيئا فشيئا ٠ كان الفقير يشدها الى فمه ليقضم ذيلها بأسنانه مفكرا ٠ وبعبع الصوت من جديد وكأنه منبعث من الجدران :

ـ حدثيني عن الجماع ٠٠

واهتزت المرأة في مكانها ووجدت نفسها تجيب :

ـ عندما كان صالح ينام معي كنت احس بحركة وراء الباب وما كنت أنتبه الى شيء ٠

ـ هل كانت هي سليمانة ٠ ؟

ـ قالت لي أم فهدة أنها كانت سليمانة ٠ كانت تخرج في الليل وتعود لتهمس لها بأن أمينة تتلذذ ،وكانت تقول عني : ان الاعور بين العميان سلطان٠

ـ آه ٠٠ أكملي ٠٠

ـ ومرة أراد صالح أن يدخل بي عصا غليظة ٠٠

وصمتت المرأة ، فاهتزت على نخير مفاجيء :

ـ لا حياء في الدين ٠٠ أكملي ٠٠

وبعد أن انتزع الفقير من المرأة اعترافات جعلها تتصبب عرقا ، شرع في وضع وصفته ٠

سأكتب اليك ثلاثة حجب ، واحد لك والثاني لفرحة والثالث لقاسم ٠ ولكن قبل أن يمسك الحجاب يجب أن يكون جسدك نظيفا مطهرا من الشرور ٠ فقد زرعت سليمانة فيك ثلاث علل ، علة في رأسك وعلة في قلبك ، وعلة في الموضع الحساس ٠ والعلة الاخيرة هي أخطرها جميعا ٠٠ يجب أن تأتيني هذا اليوم بعد صلاة العشاء بساعة ونصف ، حين يكون الملك الاحمر يغتسل بدم حفيدته شوينكار، دون أن تخبري أحدا بذلك والا فسدت التعاويذ، كما يجب ألا تخبري أحداعن الزيارة والحجب لان الملك الاحمر يستنفر حاشيته ٠

وفجأة تصاعدت في أرجاء الغرفة رائحة بخورية خانقة . تبعها لهب أزرق

راح يحوّم فوق اللحية الساطعة فبدت كقمر بدر يسبح بين الغيوم • ثم اختفت اللحية فجأة ليعم الظلام الدامس •

• • • • • • • • •

في الصباح زار الفقير صالح الذياب في حجرته ، فوجده في حالة لا تدعو الى التشاؤم • كانت سليمانة وحدها تتربع عند قدميه تسند رأسها الى كفها وكأنها حزينة لان زوجها ما زال يتنفس • وكانت الشربة قد فعلت مفعولها في امعائه ، فهدمت من قواه وأحالته الى مريض حقيقي • وقرفص الفقير عند رأسه وسأله :

ـ ايه يا صالح كيف انت اليوم • ؟

ورد صالح الذياب في وهن من تحت فروته التي تغطي رأسه :

ـ اتركها لله يا شيخ محمد •

وضحك الفقير وهو يتجشأ رائحة خبيثة ، ثم هلل :

ـ لا اله الا الله محمد رسول الله • يلزمك شربة ثانية فتنهض كالثور •

وأدخل ساعده في جوف الفروة وراح يقرأ دعاء • والتقى الفقير عند خروجه بأمينة تحمل رمادا على صفيحة يتصاعد منها الدخان • فغمز بعينه قائلا :

ـ هم كيف الحال • ؟

وردت المرأة في ضغينة :

ـ انني أزرع الدار بالدخان حسب وصيتك •

وكانت قد وافته في المساء وفي الوقت المحدد •• وعادت في الصباح مزودة بتعليمات جديدة، بعد أن وضع لها حجابها بين القلب والسرة، ونصحها أن تفعل ذلك بنفسها لفرحة وقاسم • وكانت التعليمات تقضي بأن يستقر الحجاب في الايام العشرة الاول في هذا الوضع من الجسد ثم ينتقل بعدها الى الصدر • وقد عملت المرأة بوصفته • اما العريسان فقد افردت لهما مكانا في علية الدار

المهجورة تقريبا. غير أن فرحة ظلت متعلقة بالصغير سليم، تنام واياه و قاسم تحت غطاء واحد • بينما أسلمت أمينة أمرها الى الله وراحت تنتظر المعجزات •

وحدثت المعجزة الاولى ، فقد عوفي صالح الذياب • نهض من فروتـــه في صباح اليوم التالي غائر العينين شاحب الوجه بطيء الحركة ، وطلب مـــن سليمانة الساهرة عليه، أن تهيىء له الدواب وآلة الحراثة دون أن يسألها سؤالا أو يجيب على الحافها واستفساراتها الكثيرة ، واختفى في البرية حتى الغياب ثم عاد ليأوي الى فروته رأسا • وقد عرف من سليمانة أن أمينة المطلقة ما تزال في الدار ، وأنها ما تزال تحتفظ بفرحة بالعلية ، ولكنه لم يأبه بهذه الاخبار وكأن الامر لا يعنيه أصلا ، مما زاد في تخبط سليمانة وتعطشها الى الفتنة • ومما زاد في عجبها أن الرجل بات انسانا جديدا كل الجدة ، فهو يفيق من الفجــــر الى الحراثة ويعود ليلا الى مضجعه ، دون أن يشير ولو بصورة عابرة الى الاحـــداث الماضية ، ولكنه ظل متجهما عابس الوجه صامتا رقيقا كورقة السيكارة ، عـلى غير استعداد لان يتحمل أقل صدمة • في حين انفردت أمينة بأمان الله مع أسرتها الصغيرة وحجبها في علية الدار ، بعيدة عن كل ما يدعو الى القلق • وبهذا خلا الجو تماما لسليمانة وأم فهدة فراحتا تبيضان وتصفران و •• تدبران ••

كانت أم فهدة محرومة من صفة ضرورية للانسان ، وهي الثقة بالنفس ، بالاضافة الى أنها حرمت صفات أخرى أكثر وأقل خطورة • فقد عوملت طوال حياتها كسائمة ، وفي حالات خاصة جدا ، أحست أنها نافعة • وهي لا تعرف لها أبا أو أما ، أو حتى قريبا • اشتراها صالح الذياب منذ كانت في الثانية عشرة من عمرها من أحد الفلاحين في سنة من سني القحط ، وقد زعم الفلاح في ذلك الحين بانها تخصه •ولم تنف البنت هذا الزعم أو تؤكده حتى ولا عرفت لنفسها اسما • وقد نوديت في أيامها الاولى من قبل أم صالح الذياب بال (العجينة) • ويعد أن مضى على وجودها عند سيدها الجديد ثلاث سنوات تورم بطنها • ثـــم أنجبت بنتا فأصبح اسمها (أم فهدة) • وبفضل مولودتها استطاعت أن تكسب الى حين شخصية مميزة وبعضا من اعتبار، على فرض أن البنت ستكون ذات فائدة في المستقبل • ولكن سوء الطالع لاحق الام الى النهاية ، على أساس أن ذلـــك الفرض كان خاطئا • ويبدو أن المولدة عندما سحبت الوليدة من الظـــلام الى النور جرتها من احدى قدميها ، فصرخت صرخة ثاقبة فسرها الحاضرون بـــأن صاحبتها ستكون أنثى بارزة • وصدق هذا الحدس بعد أحد عشر شهرا ، عندما

أخذت الطفلة تبرز حين تخطو خطواتها الاولى لتهبط دفعة واحدة • وانطفــأ الامل في الام والبنت ، ورجعت المرأة الرقيق الى قوقعتها السوداء •

ولما كان الذل والاستكانة من طبيعة أم فهدة ، فقد وجدت فيها سليمانة ـ التي كانت تهيمن على البيت منذ البداية ـ منفذة لرغباتها وكاتمة لاسرارهــا وبالتالي رفيقتها الامينة الودود • وكانت أم فهدة تجد سعادة في أن ترى نفسها نافعة لمخلوقما ولو كان هذا المخلوقضرتها، فكانت تقدمخدماتها الىالخالة ـ كما كانت تسميها ـ عن طيب خاطر ولو كانت هذه الخدمات مما يؤذيها هي نفسها • وعلى هذا أخذت سليمانة بمعونتها تستكشف الامور ـ وتسألها :

ـ أما شاهدت أمينة عندما دخلت عليه • ؟

ـ لا •• ولكني افتقدتها برهة طويلة •

ـ أما قال لك عقلك أن تطرقي بابه • ؟

ـ جاء في بالي هذا الخاطر ولكني لم أجسر •

ـ قطيعة تقطعك •• كان لازم تخبريني ••

وتصمت المرأتان منكرتين • وتبادر أم فهدة الى القول ، لتعوّض عن تقصـــيرها :

ـ عندما خرجت رأيت مزقة متدلية من سروالها ، وعندما تنبهت لــي قطعت المزقة وأخفتها في صدرها •

ـ وعلام يدل هــذا في ظنك • ؟

وتطرق أم فهدة منقبة عن الاجابة :

ـ اظن أنها مانعته •

وتسخر سليمانة من هذا التعليل السخيف وتهز رأسها نافية :

ـ صحيح أنه يضربنا عندما يضاجعنا ويعضنا من بطوننا وأثدائنــــا وينطحنا برأسه ، ولكنه لا يترك فينا آثارا ظاهرة ، وهو يتحاشى الملابس • ألم تري أن وجهها كان متورما ؟•

وتجحظ أم فهدة عينيها لتحاكي عيني ضرتها وتهتف :

ـ خالة ٠٠

ـ هـــاه ٠٠

ـ جاءتني فكرة ٠٠

ـ فرحـــــة ٠٠

ـ ما لها فرحـــــــة ٠ ؟

وتبتلع أم فهدة ريقها في تلذذ :

ـ فرحة هي أصل البلاء ٠٠ فهو يكرهها كراهية عمياء ٠

وتصر سليمانة بأسنانها :

ـ تقصدين كراهية الذئب للنعجة ٠٠ ها ٠ ؟ كذب ٠٠ كذب ٠٠

ـ لماذا شوّه سمعتها اذن ٠ ؟

وتخفي العجوز الاجابة ، فهي تظن ولكن لا تصدق ٠ ولو أنها قالت في نفسها « يكرّه الوحش خصمه بالفريسة لتبقى من نصيبه » وترد :

ـ شوّه سمعة البنت وطلق آمنة بالثلاثة لانه كان يهذي بتأثير الحمى ٠٠ هذا ما قاله لي الفقير بالضبط ٠ وقال ان هذا الطلاق غير وارد ، وهذا الكلام غير مسموع أصلا ، لان المحموم كالمجنون يا لطيف ٠٠ يارب تجيرنا ، وقال ان المجنون لا يجوز زواجه ولا طلاقه والعياذ بالله ٠٠ علامك ٠ ؟ لم تضحكين ٠٠ ؟

كانت أم فهدة تضحك لانها لم تصدق جنون صالح الذيـــاب ، وكانت تعتقد وتصر على الاعتقاد ، بأنه يتصنع الجنون لغاية في نفسه لا يدري بها الا علاّم الغيوب ٠ وعلى هذا أجابت ضرتها :

ـ يا خالة يا سليمانة ٠٠ متى كان صالح مجنونا ؟ ألا تعلمين أنه يجنن بلدا دون أن يجن ٠ وان الشياطين نفسها تستجير منه ٠

وبدت عينا سليمانة وهي تحملقهما دهشة كأنهما انفصلا عن وجههـــا المتضرس ، وأعربت فجأة عن أفكارها وهي تنقر رأسها بقبضتها :

ـ أنا المجنونة ٠٠ أنا المهبولة ٠٠ عرفت داءه وعرفت دواءه ٠ ولك ٠٠ اســـمعي :

وشرحت العجوز لضرتها خواطرها المفاجئة ، وأمسكت الخيط من أوله : فرحة هي البداية ٠٠ فلتمشيا على الطريق تصلا ٠٠ يجب الاتفاق مع أمينة ومصالحتها لتسير الخطة سيرا طبيعيا ٠ وتطوعت أم فهدة لان تقوم بهذه المهمة ، باعتبار أنها ليست غريبة عن المشاكل ، فهي أم البديلة ٠

ما كانت أمينة تحفظ لام فهدة مقتا أو كراهية خاصة ، كانت على الاكثر تشفق بها وتعطف عليها في احتقار، تلك العاطفة الطبقية ـ اذا صح التعبير ـ التي يكنها برجوازي لاجيره ، وكانت أم فهدة من ناحيتها تقبل هذه العاطفة النبيلة بامتنان ٠ فهي لا تملك مهرا وليس لها أهل ولا جاذبية جنسية ، ويكفي واحد من هذه الاعتبارات ليرجح كفة المرأة والزوجة خصوصا في كل الميازين ٠ ثم انها أسوأ من عاقر، لانها لم تنجب غير مخلوقة ليس لها سوق ٠ وعلى هذا لم تكن ضرة ذات شأن ، وبالتالي لا ينتظر أن يصدر عنها أذى كبير مقصود ، انها أفعى ولكن منزوعة الانياب ٠ ومن هذه اللمحة يمكن ملاحظة طبيعة العلاقات القائمة بين المرأتـــين ٠

في المساء أحست أمينة وهي في علّيتها بمفاصل الســـلم تصر وتئــز ، فتشبثت بحجابها تستمد منه الحيطة ، وقرأت دعاء قصيرا حفظها اياه الفقير : اللهم ان كان ذئبا اقلبه الى سلحفاة ، وان كان ٠٠ الخ ، ورفعت فرحة رأسها من زاويتها متوقعة أن تنزل عليها النازلـــة ٠ وتناهى الى الآذان صوت أم فهدة خاشعا مطمئنا :

ـ الله بالخير يا حبيباتي ٠٠

ودفع الباب في تردد ، وكان عبارة عن حاجز من قطع أخشاب منخورة بلا مفاصل، شبيه بأبواب مراحيض الجوامع٠ ودخلت المرأة تستكشف عيناها الظلام، واستهلت دعوتها معبّرة عن عواطفها السامية تجاه المرأة وعروسها مما لحقهما من أذى ، وأقعت الى جانب الباب متابعة :

ـ عليم الله يا أختي يا أمينة ان خاطري عندك، واني أتحسر طوال الليل على حظنا المشحّر ٠٠ طولي روحك يا أختي ولا تزعلي ، أنا أقول الحق بيدك تبتعدي عن القيــل والقال حتى لا عين تــرى ولا قلب يحــزن ، ولكن أريد أن أطمئنك، بأن صالح الحمد لله رجع لعقله وندم على كل الهذر الذي طلع منه وهو مريض ٠

وتوقفت أصابع فرحة عن نكش الارض وأخذت تصغي في انتباه ، بينما سألت أمينة شاكية :

ـ أما أنا طالقة ٠٠ ؟

وعادت أم فهدة تكذّب هذا الزعم قائلة :

ـ ماهذا الكلام الفارغ ٠٠ ؟ هو الطلاق يصير بكلمة من رجل يهذي ٠؟
وسردت عليها فتوى الفقير من أن الطلاق لا يتم الا بأصول شرعية أولها أن يكون الزوج في تمام وعيه ، وبرهنت لها على أن صالح كان فاقدا توازنه العقلي حينما طلّق وهدد وتوعد ٠وسألت عن قاسم وسليم ، فأجابت الام بأنهما يسهران على السطح ٠ وقالت أم فهدة :

ـ حطي يدك على يدي بعهد الله ولا تخافي ٠ لازم (وتمطت قسمات وجهها المسترخية وهي تتابع) تنزل فرحة الى حضن عمها وتقبل يده و ٠٠

فاحتجت أمينة قائلة :

ـ لا ورأس أبي ٠٠ لا ٠٠ أنا أفنيت شبابي حتى رأيت قاسم بهذا القد وبعدئذ أترك عروسه تضيع ٠٠ ؟

ولكن أم فهدة أخذت تعالج الامر في صبر وروية ، مستلهمة داعيا غامضا في صدرها يدعوها الى التغلب على رفض أمينة استجابة هذا الطلب ٠ :

ـ لا يصح أن تبقى الحالة متوترة على هذا الشكل ، الناس يضحكون علينا ويقولون : والله بيت صالح الذياب مثل بيت النوَر كل واحد عائش وحده ، اقلعي عين الشيطان يا أختي واسمعي مني ، اسمعي من هذه الشيبة ، أنا وقت كنت قدك ـ اسم الله عليك وعلى فرحة ـ كنت مع صالح مثل السمن والعسل ، وما تركت أحد يضحك علي ٠٠

وغمغمت فرحة ناشجة وهي تتسلل خارجة من الباب ٠ ولا بد أنها كانت تتسمع الحديث :

ـ والله لا أقدر ٠٠ أخاف أن يذبحني ويشنق حاله ٠

وسخرت أم فهدة من هذا الزعم ، ضاربة كفا بكف :

ـ يا ويلي يا بنتي ٠٠ عمك صالح يذبحك ٠٠ ؟ والله تساوي عنده كل

الدنيا ٠٠ ولو ٠ ؟ يا حيف يا حيف ٠٠ دفع حقك دم قلبه وبنتي فهدة حوّطتها بالله ٠٠ ها هي مع عريسها أخوك ما شاء الله ، وهما يناماني في فراش واحد مثل العرسان ٠٠ بس انت يا عيب ٠

وهمست المرأة في أذن ضرتها شيئا ، هزت هذه رأسها على الاثر نافية شاكية :

ــ بعد ٠٠ والله يا أختي تلاقينه حائرا ينط من سطح الى سطح وغير قادر أن ينط عليها ٠

وطمأنتها أم فهدة قائلة :

ــ مع الايام كل شيء يصير ، وغير ممكن أن تبقى تمانع ٠٠ ألا تذكرين قصتك مع صالح ٠٠ غدا تشم منه رائحة الذكورة فيتم الامر دون صياح ٠٠ لكن لازم أولا أن تصالح عمها ،وتظهر أمامه مثل أي كنة جديدة تساعده وتجلب له الطعام و ٠٠

وواتتها فكرة مفاجئة :

ــ اسمعي ٠٠ غدا ستحمل له الخبز الى الحراثة ٠٠ ونتكل على الله ، اما أن يطردها فنفهم حالنا ، أو أنه يقبل منها هذه الخدمة فينتهي الحال ٠٠ اتكلي على الله يا أختي ولا تتركي سليمانة تشمت بنا ٠٠ وأنت تعرفين أن سليمانة ما عادت الدنيا تسعها من الفرح ٠٠ فبعد انزوائك في العلّية صارت هي الكل بالكل وما عاد أحد يقدر عليها ٠

وقامت الى الفتاة تلامس صدرها مداعبة :

ــ يالله يا بنتي يالله ٠٠أنت عروس ما شاء الله ،حوّطتك بالله ٠٠غزالة لايش الخوف ٠؟ هو أحد يخاف من عمه ٠؟ صالح رجال زين ويقدّر قيمة العروس ٠٠ و ٠٠

وتم الاتفاق على أن تقوم فرحة في الصباح بموافاة عمها الى الحقول لتحمل اليه الطعام ٠

• • • • • • • • •

كانت فرحة تسلك طريقا ضيقا متعرجا ، شقته الحيوانات بأظلافها بين الاحجار المرتفعة الكبيرة المغروسة في الارض · وكان هواء الخريف المنعش يهب هبات قوية وقصيرة يحمل التراب والقش الى عينيها وأذنيها ، وترسل أشعة الشمس المائلة الى صدرها دفءً سلسا ناعما ·والتفتت الفتاة الى الخلف فوجدت أنها أصبحت بعيدة عن البيوت ، فخامرها هاجس بأن النكوص بات مستحيلا ، وتابعت سيرها وقد انبسط أمامها السهل · كفت عن أن تخاف عمها بعد أن اطمأنت اليه ، واقتنعت بأن ما بدر منه نحوها لم يكن عن ارادة وتصميم بل تحت تأثير المرض ليس الا ، وأنه قد شفي تماما مما أصابه · وكان يبدو عليها أنها لم تفقه أبدا معنى لاتهامه اياها بالانحراف الاخلاقي · وقد ساءلت نفسها أكثر من مرة : كيف يكون ذلك يا ترى · ؟ ولم يبق هناك ما يبرر خوفها أن يقتل عمها نفسه ، اذ لا يمكن لرجل أن يشنق نفسه في العراء ، لانه لن يجد ما يربط به الحبل ، فليس في السهل من أشجار ولا سقوف والسماء بعيدة ، والرجل كما قيل ، يحبها ما دام قد دفع بالاضافة الى بديلتها نماجا وحنطة ·

ومرت في الطريق بـ (شحادة المحمد) يحرث أرضه ، وهو شاب أرمل له خمس بنات صغيرات يعشن في بيادر القرية ، يقال عنه أنه ذو سمعة سيئة · وعندما لمحها توقف عن الحراثة وراح يتأملها في وقاحة ، فتجاهلته وغذت السير ، الا أنها سمعته بعد لحظة يناديها :

ــ كيف عروستنا المزيونة · ؟

فلم تجب ، ولكنها نقلت صرة الخبز من يد الى يد ، وأزاحت خصلات الشعر المتهدلة من تحت العصابة عن جبينها · والتفتت الى الخلف لتسمع الرجل وهو ما زال يتفرسها في تحفز ويقول :

ــ ألا تردّين يا أم عيون كحيلة · ؟

وغمغمت الفتاة ببضع شتائم ولم تلتفت مرة ثانية · كانت الارض المفلوحة تضايق قدميها الحافيتين ، وقد اضطرت الى أن تسير في الفلاحة لتختصر الطريق · وبعد قليل لمحت على البعد نقطة بيضاء وسط كتلتين سوداوين تتحركان ، فعرفت أن هناك عمها الطيب · وأخذت تقترب شيئا فشيئا حتى باتت ترى ظهره في وضوح · كان رافعا أطراف شملته الى الاعلى ، منحنيا على سكة المحراث يغرسها في الارض ويدفعها في مشقة وجهل · فلم يعتد الرجل على

القيام بمثل هذا العمل ، وكان الثوران أمامه يهزان رأسيهما في أناة يمنة ويسرة • وشرعت الفتاة تقترب في حذر وتلصص ، وكأنها تريد أن تفاجيء طفلا وتصيح : بـه •• وتسمرت عيناها على كتفي عمها العريضين وراحت تتبعه • ونصب الرجل ظهره عندما وصل الى نهاية الفلاحة ، وشد صرع الثور الايمن بيد ، وعالج رفع السكة باليد الثانيـة ، واستدار الثور وجر معه رفيقه • وسقط المحراث على صوت منغم يقول :

ـ أنا فرحة يا عمي •• قواك الله •

ورفع الشيخ رأسه ، وهبت عاصفة مفاجئة ملأت فمه الفاغر بالتراب ، وارتفع حاجباه المشمشان حتى لامسا شعر ناصيته ، وتسمرت عيناه الذاهلتان على الفتاة برهة خالتها دهرا ، كان دهشا على الاكثر ، ولربما تعصف برأسه ذكرى ، لهـذا لم يطف في خاطرها بأن عمها سيشنق نفسـه ، كان يبدو فرحا متشوقا ولكن في ضياع •

« الارض تتماوج في عينيه ، وأمامه تمتد الى الافق سنابل الحنطة الذهبية الصفراء تتمايل مع الريح ، تدور برؤوسها ذات التيجان المسنبلة وكأنها تشفق بنفسها من الحصد • الشمس محرقة لاهبة وجسده ملبد بالعرق • الحاصدون والحاصدات هنا وهنـاك ، ينحنون على سوق السنابـل يجزون رؤوسها في حمية • ها هي ذي الى جانبه فتـاة تحصد • انـه واياها بعيديـن عن بقية الحاصدين • الفتاة تقفز : آه • يتـرك مهمة نظارة الحصاد ويهرع اليها : مالك زينب • ؟ • شوكة أدمت رجلـي • أرني •• ويجلس بين أقـدام الفتـاة •• » •

قالت فرحة مبهورة النفس :

ـ عمي •• ما تريد مني • ؟ اليك غداؤك ••

« حجر الفتـاة مملوء بالسنابل المحصـودة ، انها تمد قدمها الجريح •

أصابع الشاب تتلمس الكعب وفي عينيه يتراقص لهيب أحمر • سأنزع لك هذه الشوكة اللعينة » •

صرخت فرحة مذعورة :

ـ عمي • •ما في شوك ••

« انه يعانق القدم • تختلط أنفاسه اللاهثة بأنفاس زينب • انه يرتجف• تتمشى في أوصاله أمواج من الدماء •• هذه الشوكة اذا لم تنتزع الآن فستسير هكذا ، ويرفع عن ساق زينب » •

وضعت فرحة قبضتيها في صدر عمها وراحت تدفعه مستغيثة •

« لا يلتفت الشاب الى احتجاج الفتاة ، يقاومها ، يمسك معصميها بيده القوية • زينب تقاوم وتصرخ ـ انه يحشو فمها بالتراب • ينقل معصميها من يده الى أسنانه ، يـداه تعملان معا على اخضاعهـا • تكاد تخور قواه لفرط ما تقاوم • يحمل من جانبه صخرة يضعها فوق وجهها » •

أحال الذعر فرحة الى حيوان مفترس ، وأمدها بقوة غريبة ، وحاولت أن تخلص نفسها وتنتشل رأسها من تحت الصخرة • ولكنها أطلقت صرخة حـادة ثاقبة ردد صداها فضاء الكون الواسع •

وتوقف حمار شحادة المحمد وأمال أذنيه الى الامام كفتحتي بوق طويل ، فنهره صاحبه، ولكن مالبث هو الآخر أن أصاخ السمع، ملتفتا ناحية الغرب، وقد خيل اليه أنه سمع صوتا حادا يشق السكون • وكان دخان قاطرة المساء يغطي الافق ، وأعمدة التلغراف تمتد من الجنوب الى الشمال • والى الشرق كانت بضعة طيور تهوم على مستوى منخفض وهي تطلق صفيرا مذعورا صاخبا •

وكان ثوران أدهمان قد أفلتا من حبالهما فراحا يتمشيان ، ومن ورائهما مال المحراث الى جانب يمحو خطوط الفلاحة المتوازية التي عمل على شقها طوال الايام الماضية • والتفت أحد الثورين الى جانب دهشا لما يرى ، وأخذ يبـول ، واغتنم الآخر فرصة التوقف فباعد بين ساقيه ومط لسانه الطويل الخشن وراح يلحس جلد خاصرته بضجة ، وكان رواله اللزج يسيل عـلى الارض العطشة القاتمـــة •

وحل المساء ورجع الحراثون الى بيوتهم• وفوجىء شحادة المحمد بسليمانة تقتعد حجرا كبيرا من لونها عند طرف البيادر، فبدت كغراب كبير عجوز • وسألته المرأة في قلق عما اذا كان قد شاهد عروستها فرحة في الطريق ، فتجاهل الموضوع في البداية ، ثم أجاب وهو يهم باستئناف سيره :

ـ والله لمحت من الظهر أنثى تتجه نحو الغرب ، لربما تكون هي •

وقالت سليمانة في تطيّر وفضول :

ـ انها هي ابنتنا فرحة · راحت تحمل الفداء لعمها ، ولكنهما لم يرجعا حتى الآن ··

والتفت الرجل الى الوراء وكان الجو معتما فآثر عدم التدخل ، ونهر حماره واختفى معه في الظلام ·

· · · · · · · · · · ·

(٧)

كانت الحياة في بيت جدعان العبد الله تختلف اختلافا تاما عنها في بيت صالح الذياب • فقد تقبل جدعان وضعه الجديد بكل واقعية وتفهم • ولم يشأ أن يتدخل من قريب أو بعيد بأحداث بيت عمه ، على مبدأ المثل القائل « فخار يكسر بعضه » وما كان يعنيه الى حد ما ، أن تكون أخته موضوع النزاع • ولكن أخته لم تبق أخته ، هكذا بات ينظر الى المسألة • ففرحة أضحت ملكا لغيره ، وعلى هذا الاساس صاحب الشيء أولى بحل أموره •

وهو أصبح يملك زوجة وبقرة وأربع نعاج ، وسيستلم الخمسين مدا من الحنطة على البيدر ، الى حين تستخرج المحاصيل• وهو ان لم يكن أمله في تسلمها كبيرا نظرا لسوء الموسم ، الا أنه طمأن نفسه : اذا لم يتم التسليم هذا الموسم فللموسم القادم ، ولن يضيع شيء ما دامت هناك أوراق رسمية بتوقيع المختار وختمه •

وكان وجود عروس في بيته أمرا جديدا عليه، اذ أصبح لديه نوع آخر من الاهتمام • كان همه الوحيد هو الارض ، والارض فقط • وكان وحيدا ، لم تفلح أمه وأخته ــ ولم تحاولا أصلا ــ أن تدخلا الى حياته أو تعكرا صفو وجومه الذي صبغته به الايام بفرشاتها لونا فوق لون • أما الآن فبات يقول في نفسه : أصبحت زوجا لامرأة • وكانت المفاجأة قد هزت كيانه قليلا ، اذ أنه فتح عينيه فوجد الى جانبه عروسا • لم يكن يهمه شكلها الا بمقدار ما كان شكل أخته يهمه • صحيح أنه كان يمني نفسه بأن يزوج أخته زواجا لائقا لمقتدر على الدفع ، على اعتبار أنه يعرف مستواها الجمالي • الا أنه كان يزن ذلك على مستوى تجاري بحت ، وها هو ذا الآن يقبض الثمن •

انه يستيقظ الآن في منتصف الليل ـ ولم يكن ليحدث له ذلك في الماضي ـ اذ أن يده تدق بشيء طري حار الى جانبه ، فيفتح عينيه وينظر الى وجه فهـــدة الصغير المكور ويقول في سره : هذه زوجتي اذن ٠٠ فاما أن يضاجعها من جديد، أو أنه يعود الى النوم عازفا عن تلك اللعبة الشهية التي لا يمكن الشباع منها ٠ وأحيانا أخرى كان يستيقظ عـلى أنفاسها تصفر في أذنـــه ، فيحملق في الظلام ويصغي كثيرا حتى تتناهى دقات قلبها الى سمعه ، فيقول في سره : انها متعبة ولن أوقظها ، سنفعل ذلك غدا في البرية ، وكان يجد في خلوة البرية لذة أكثر ومجالا أوسع في اتخاذ الوضعيات التي يخترعها ٠

وقد لاحظ في اليومين الاولين لوجودها ، أنها تتباطأ في سيرها كثيرا خاصة عندما تكون تحرث معه ، تقف على أحد قدميها برهة وجيزة جدا تكاد لا تذكر ثم تنقل جسدها الى القدم الآخر ، ففهم أنها تفعل ذلك لتخفي عرجها عن عينيه ، أو على الاقل لتجعله لا يفكر به ٠ وقد همّ بأن يلفت نظرها الى ذلك ، ولكنه آثر الصمت قائلا في نفسه : انها هي التي تجعلني أفكر بعاهتها فليتها لا تفعل ، وماذا يهمني عرجها ما دامت تشتغل جيدا وأعضاؤها الاخرى سليمة ٠ ؟ وكان يعجبه فيها أنها أخذت تهتم به ٠

كانت مرة تسكب له التبن في معلف الحمار وهو الى جانبها يمهده بيده ، ورفع رأسه فجأة فألفاها تراقب وجهه ، ولم يعرف تماما ما اذا كانت تراقبه منذ البداية ، والتقت عيناه بعينيها ، واستمر اللقاء فترة من الوقت ، قطعته وهي تشيح برأسها قائلة في حنان :

ـ جدعان ٠٠ لم أنت مكدر دائما مشغول البال ٠٠ ؟

وبان عليه أنه دهش لهذا السؤال الغريب غير المنتظر، والذي لم ينطرح عليه طوال حياته ، وأجاب :

ـ أنا ٠٠ ؟ وما يكدرني ٠٠ ؟ لا شيء والله ٠٠ غير أن الحمار كما يظهر في حاجة الى شعير أكثر ٠٠ فهو يأكل كل التبن ويلفظ الحصو والتراب ٠ هـاك انظري هذه الحصوة ٠

وتناول من المعلف حصوة كبيرة مبتلة ومكسورة من أحد أطرافها ، وراح يقلبها بين أصابعه في اهتمام شديد ، ثم رماها بعيدا بعصبية ٠

وفي بعض الاحيان ، وفيما تكون تمد الفراش الذي جلبته معها من دار ابيها كانت تسأله :

ـ جدعان ·· أين تريد أن تنام هنا أم هناك ·· ؟

فيجيبها دهشا :

ـ هنا ، هناك ، لا فرق ··

ويفكر لحظة : لماذا تسأل · ؟ وكان يتعب من التفكير · ثم يضيف :

ـ افضل أن أنام ناحية الخارج لاني سأستيقظ قبلك ·

وتجيب هي :

ـ سافيق أنا باكرا لاني سأحلب البقرة ·· نم أنت هناك أنا أنام هنا ··

وكان في الليالي الثلاث الاولى قد نام مع زوجته في الحجرة التي لم يكن في حوش الدار غيرها، والتي تنام فيها والدته· وفي اليوم الرابع قال لامه خجلا:

ـ يمّا ·· أنت في الليل تتقلبين كثيرا ولا تنامين ·· سأبني لك بيتا تنامين فيه وحدك ··

وردت مزنة في خيبة :

ـ لا تزعج حالك يا جدعان ·· سأنام معكما أونس لي ··

وكان يدرك أن أمه لسبب ما ، تبقى مستيقظة طوال الليل ، وقد أحس بها مرارا تتقلب في مضجعها وتحبس أنفاسها طويلا ثم تطلقها دفعة واحدة ، لتعود الى حبسها من جديد · وفي الصباح ، وبمساعدة فهدة ، كوّم جدارا من الاحجار أقل علوا من هامة أمه في زاوية من زوايا الحوش ، ونقلت له فهدة ثلاث صفائح ماء موحل من قاع البركة، فجبل الطين والتبن ولصقه على الجدار، ثم سقف الحيز المثلث الشكل بين الجدار وضلعي زاوية الحوش بأربعة أعواد محطمة ، ثم فرشها بأكياس وخروق بالية ، ووضع فوقها التراب والاحجار الصغيرة · وحملت الام الى مكانها الجديد ، الذي صار خمّا حقيقيا ، مع لحافها ذي الاحشاء المندلقة ، لتنام فيه بعد أن تعشي دجاجاتها · وفي تلك الليلة أخذ جدعان وزوجته فهدة حريتهما تماما ·

ذات ليلة أوى الزوجان الى فراشهما مبكرين ، وبعد أن أديا وظيفتهما المسائية ، أدار كل منهما ظهره للآخر ، وقد استسلم جدعان كعادته الى النوم ، أما فهدة فراحت تفكر . كانت تستقي أخبار ما يجري في بيت أبيها من أحداث ، بواسطة عمتها العجوز مزنة ، وكانت شديدة القلق ، تمسك قلبها بيدها ، خائفة أن يفشل مشروع المبادلة وتعود الى دار أبيها لتعيش على هامش الحياة ، وتخسر نمط حياتها الجديد الذي أشعرها بأنها انسانة حقيقية بكل ما تفهم لهذه الكلمة من معنى ، وكانت تخشى على الاكثر أن تفقد جدعان ، وجدعان بالذات ، هذا المخلوق الطيب الذي قبل بها وراح يعاملها كما يعامل حماره وبقرته ، يهتم بها ولا يقسو عليها كثيرا ، بالاضافة الى أنه يحس معها كما تحس هي تماما في نهاية المضاجعة من نشوة وتلذذ . وعندما وصلت بأفكارها الى هذا الحد أدركتها الشهوة من جديد . وراحت تبحث عن طريقة توقظ بها جدعان ، فوجدتها .

واستيقظ الزوج مجفلا :

ـ فهدة .. مالك .. ؟

وكانت قد أطلقت صرخة خافتة . وأجابت بلهجة تنم على الذعر :

ـ لا أعرف يا جدعان .. يبدو أن شيئا قضم اصبعي ..

وقلب جدعان اللحاف باحثا عن فار جائع ، وتعمدت فهدة أثناء ذلك أن تترك ساقيها مكشوفتين ، ولكي تساعده في البحث رفعت عن فخذيها متصنعة الخوف :

ـ جدعان .. أو .. آي .. يمكن أن يكون هرب الى الداخل ..

ولكن الشاب عاد يستلقي مطمئنا اياها ألا شيء هناك . فسألته في نبرة أرادت أن تكون خافتة فصدرت مبحوحة جائعة :

ـ جدعان .. مالك زعلان . ؟

والتفت اليها في الظلام وأدار نحوها جسده وأجابها حائرا :

ـ زعلان . ؟ كيف زعلان . ؟ أنا كنت نائم فقط ..

فرفعت ساعدها ووضعت يدها على رأسه ترجل شعره القصير بأظافرها الطويلة :

ـ جدعان ·· قل لي اذا رجع والدي عن هذه المبادلة فهل تتخلى عني · ؟

والواقع أن هذا السؤال كان محرجا غاية الحرج· ولكي يفهمه أولا ، أعاده من جديد :

ـ اذا رجع أبوك عن ··

وفكر لحظة ثم أجاب في يقين :

ـ لن يرجع ·· لن يرجع عنها لانه كان هو الكاسب ·

وكان ينبغي لهذه الاجابة أن تشعر الزوجة بقيمتها المخفضة ، أي أنها هي وأربع نعاج وخمسين مدا من القمح وبقرة حلاّبة لا تساوي فرحة ، وكانت هي تشعر بهذا وتعرف أن فرحة تساوي منها رعيلا ولربما أكثر ، ولكنها أغفلت الاجابة لانها كانت تسعى من سؤالها وراء هدف آخر ، لذا قالت :

ـ أظن أن هذه الزيجة ستفشل ، هل تعرف لماذا ؟ لان فرحة رفضت أن تنام مع قاسم ، وخالتي أمينة ترجع سبب مرض أبي الى ذلك ··

ـ لعنة الله على فرحة وقاسم وصالح الذياب ، والطاعون لشوكت بيك الذي جعل من عمي ديكا فصيحا ، وأنا ماذا يهمني منهم ؟ لقد أخذوا بنتا بفرج مختوم وما عليهم الا أن يفضّوا الختم · هل يحتاج قاسم الى من يمسكها له ويرفع لها ساقيها · ؟ ليفرضها جحشة والسلام ·

وتنبه جدعان الى أن أصابع الزوجة تفرك أذنه بلطف ، ثم أحس بيدها الاخرى تتسلل الى صدره ، وفكر وهو يفحص عينيها اللامعتين في الظلام : يا للخبيثة · ترى هل تريد مرة أخرى ·؟ ألم تشبع ·؟

ورفع رأسه فوق وجهها يتأمل تقاطيعها الدقيقة ، مبتسما ، مستطلعا أحاسيس هذه المرأة التي بدت له أنها ليست أبدا فهدة ، تلك الفتاة المشوهة المسكينة · وتخيلها للحظة ـ وقد ألهب خياله أنها احدى الحوريات الفاتنات اللواتي سمع أنهن موجودات في المدينة · كان شعرها من تحت غطاء العصبة يجلل طرفي وجهها حتى الخدين ، ولم يظهر منه في الدكنة غير أرنبة أنفها ، وبريق عينيها ، وأسنانها المصطفة بين شفتيها المنفرجتين بتكاسل · كانت قسماتها الذابلة ، ولهاثها المتقطع المحموم واسترخاء جسدها وارتجاف أناملها كلها تصرخ بدعوة صامتة متعطشة الى الارتواء · واستبدت بجدعان رغبة شديدة

في معايشتها ، ولذّه كثيرا أن يراها تذوب تحت أنفاسه حاجة اليه ٠ ولم يفاجأ الشاب الخجول المتزمت حين وجد نفسه تميل الى المجون ، بل انه راح يستذوق منتشيا هذه الظاهرة الجديدة في خلواته مع امرأته ٠ وكانت هذه أول انثى في حياته تمنحه المتعة ، وقد اكتشف بتجاربه القليلة معها ، أنه يحس برضى نفسي متزايد كلما شاركته في هذه المتعة ٠ وراح يلصق جسده بجسدها مراقبا بهدوء ولكن بسعادة ، انفعالاتها وتشوقها الى لحمه ، وأخذ يستمتع بغمغماتها الحارة الزافرة : جدعان ٠٠ يا أخويا ٠٠ يا أبويا تعال تعال ٠٠ أعطني ٠٠ هيا ٠٠ هيا ٠ وكانت قد استلقت على ظهرها في استسلام ، وأغمضت عينيها في حنين ، عندما انقض على عنقها وصدرها يلهب عظامها بعضات وهمهمات مكتومة جائعة ٠

٠٠ وبعد أن انتهى وأطلق تنهدته الاخيرة رفع جسده الى الاعلى ، الا أنها أمسكته من عنقه بكلتا يديها ، وطوقته بساعديها بشكل لا يستطيع فيه الهرب . بينما رفعت ساقيها غير المتساويين وشبكتهما وراء ظهره ، وصرّته معها في حزم ومتانة جعلته لا يستطيع حراكا أو فكاكا و ٠٠٠ في تلك اللحظة سمعت في الخارج ضجة مباغتة ، وارتفع ضجيج غريب متواتر ، ودبّت أصوات تطلب النجدة ٠ فراح جدعان في اساره يحاول التملص : ولك اتركيني ٠٠ ولك فهدة استحي الله ياخذك ٠٠ ولك ملعونة اسمعي يمكن الذئب هاجم القرية ٠٠ ولك يا ٠٠ ولكن المرأة صمت أذنيها عن توسلاته ، ولم تلتفت الى مقاومته الجدّية العنيفة ، بل راحت تدوّر عجزها تحته بتعجل وشره ، لاهثة صافرة شاخرة ، الى أن أطلقت صرخة وحش جريح ، في حين أحس جدعان بأذنه تسحق بين أسنانها المطبقة ٠

. . . .

لبثت سليمانة تنتظر في بيادر القرية حتى سقط الليل وخرجت كل نجوم السماء ،وفي داخلها كان تتطاحن أفكار وهواجس : ترى هل اقتتلا ٠ ؟ ماتا كلاهما أم مات أحدهما وهرب الآخر ٠ ؟ وماذا ستكون العاقبة ٠ ؟ هل يمكن أن يكون أخذها وهرب بها ٠؟ وفيما هي في تخبطها اذا بأم فهدة تقترب وتسأل ، ولم يفصح الظلام عن نبرتها الساخرة :

ــ الله يكون بعونك يا صالح الذياب ٠٠

وبعقت سليمانة في حنق :

ـ الله يقطعك ٠٠ لازم نعرف ما صار حتى غاب الاثنان معا ٠٠ يجوز أن يكون حدث قتل وذبح ٠٠ والحكومة ماراح تسكت ٠ لازم نعرف وندبـــر أمورنـــا ٠٠

وردت أم فهدة خائفة وقد غرب عن بالها هذا الهاجس :

ـ الله يهدم بيتنا ٠٠ سنكون نحن السبب ٠

ونفثت سليمانة كلماتها كالسم الزعاف :

ـ ولك خائنة ٠٠ اياك أن تعيدي هذا الهراء ٠٠ من هو السبب ٠ ؟ نحن ٠ ؟ وما دخلي أنا ٠٠ اذا صار ما صار فستكوني أنت وحدك ٠٠ أفهمت ؟٠

ووسط رعب أم فهدة وهلعها الشديد أضافت سليمانة :

ـ اطبقي فمك المنتن ولا تهذري بحرف والا شكوتك للدرك وفضحتك٠٠ فاهمة ٠٠

وهزت الاخرى رأسها مشلولة الاطراف ، وكانتا في الليل والعراء ، شبحين أسودين كريهين كشعار ارهابي لافشاء الطاعون ٠

ضربت المرأتان على صدريهما بكفيهما ، ورجعتا الى الدار تبربران وتبرمان ٠ ولمحتا أمينة وولديها عند البوابة يحملون فانوسا هوائيا مضـيئا بشعلة مختنقة ، وهتفت أمينة مؤنبة :

ـ فرحة ٠٠ أين كنت يا ٠٠

وقاطعتها سليمانة زاجرة :

ـ ياخذك عزرائيل أنت وفرحة٠٠ زيحي عن الطريقوأعطيني الفانوس٠

واختطفته من يدها قبـل أن تفهم الحماة أن فرحـة لم تعد ٠ واقتحمت سليمانة حوش الدار وتسلحت بعصا غليظة ٠ وراحت تصدر تعليماتها في عجلة:

ـ فهدة اتبعيني ، وأنت يا أمينة ابقي في الدار فلربما رجعا عن غـير طريق ٠

وغابت العجوز مع ضرتها أم فهدة في الظلام ، تجران وراءهما شعلة الفانوس المتراقصة ، وعـلى العتبـة وقفت الام وولديهـا مصـعوقين يتابعـون بأنظارهم حفيف ثوبي المرأتين المسعورتين٠ وأفاقت أمينة فجأة وصرخت في ذعر:

ـ قاسم ٠٠ اتبعهما وانظر الى أين تذهبان ٠٠

وضربت على صدرها ، ثم انزلت يدها فوق الحجاب وأضافت متوسلة :

ـ آه يا ربي أجرني ٠٠ ستخفيني هذه الابليسة ٠٠ ستقتلنا جميعا ٠٠ قاسم احذر ٠٠ اتبعهما عن بعد وسألحق بك مع سليم ٠٠ آه يا ملائكة الرحمن احرسينا ٠٠

وتلمست حجابها في كثير من الخشوع ٠ ودلفت الى الدار وأنارت فانوسا مكسور البلورة ٠ وبحثت عن شيء تتسلح به على مبدأ ـ اعقل وتوكل ـ فلم تجد حولها غير مذراة فقدت أكثر أسنانها ، فحملتها ، ونادت مختلجة الاطراف :

ـ سليم ٠٠ أين أنت تعال اعطني يدك ٠٠

وخرجت الى الظلام وهي تتمتم وتتفل ، تجر وراءها ذيل ثوبها ، وبيدها يتعلق الصبي ، وكانت الشعلة أضعف من أن ترسم لشبحيهما ظلا ٠

أحس الصبي بأن يد والدته ترتجب فسرت اليه العدوى ، وكانت فرحة قد لقنته درسا جيدا بالاحساس بالخوف ٠ وما أن وصلت الام وابنها الى البيادر ، حتى هبت نسمة ضئيلةفأطفأت لهبة الفانوس ، وألفيا نفسيهما في الظلام الدامس ٠ وصرخت الام في العتمة متضرعة :

ـ سليم اينك ٠ ؟ ابق بجانبي ٠٠ امسك بثوبي ٠٠

وبعق الابن من بين أسنانه المصطكة :

ـ أنا أمسك يدك يا أمي ٠٠

ولمحا عن بعد نور الفانوس الذي سبقهما ، فتبعاه تخبطا ٠ وبعد قليل سمعا خوار ثور وصوت سليمانة تنادي في نبرة مسنونة :

ـ صالح ٠٠ صالح ٠٠

ولم يجب أحد ، غير أنه ظهر جليا صوت شيء يسحب على الارض ٠ ووقف ضوء الفانوس ، ثم سمعت جلبة وضوضاء صاخبتان ، توضح بينهما نشيج سليمانة نادبة معولة ٠ والتقت الجماعة عند الثورين المتشردين ، وكانا يجران

بكلل صروعهما المتقطعة وعود المحراث المشروخ وقد ضاعت سكته • وتوقف الثوران من فورهما يهزان رأسيهما وكأنهما يحملان خبرا مشؤوما • وأعولت سليمانة بآذانهما :

ـ أين صالح • ؟ قولا انطقا أين صالح • ؟

ونخر أحد الثورين من خيشومه نخرة طويلة ، ثم نطح المرأة في بطنها لتفسح له الطريق ، وتابع الثوران سيرهما نحو القرية •

أين الرجل وكنته • ؟ هذا هو السؤال الذي طرحوه على أنفسهم • ؟وأين يمكن أن يبحثوا عنهما في هذا الليل البهيم ؟• وتحت قبة السماء القاتمة الواسعة المقعرة ، التي يتلألأ على صفحتها ما لا يحصى من النجوم ، وحيث على امتداد الحس والادراك كل شيء صامت ساكن لا يرى ، ووسط الظلام الحالك اللا متناهي، وقف خمسة أدميين حفاة سودا ملتصقين بعضهم ببعض ، لا يجرؤون على التحرك أنملة واحدة ، ثلاث نسوة وصبيان أضاعوا شيخا وعروسا في دائرة جرداء لا يقل قطرها عن ألفين من الامتار ، في كل شبر منها يكمن عدو غامض مخيف ، لو تنبه على زحف قدم لانفجر انفجارا رهيبا ، وبدون اتفاق أو ايعاز ، أخذ الخمسة نفسا عميقا ، والتفتوا برؤوسهم نحو القرية المختفية ، وصرخوا بنبرة واحدة طويلة :

ـ أهل الخير أين راحوا •• و و و و وا ••

أهل الخير أين راحوا •• و •• و •• و وا ••

وأخذ الفضاء الواسع يردد الصوت الى أبعد مدى • ونبحت الكلاب من سائر الجهات، وعوت الذئاب الجائعة، وصفقت الطيور النائمة بأجنحتها، في حين راحت ذبالة الفـانوس تذوي شـيئا فشيئا حتى أغمضـت • وهزت سـليمانة الفانوس في يدها حانقة ، فخشخشت في قعره رواسب الرمال الجافة • واختفى كل شيء •

كان النداء الذي وجه الى الابعاد بمثابة صفارة انذار أو بوق الخطر ، لابد لمن يسمعه ، ولو كان مفلوجا ، الا أن يهرع الى نجدة أصحابه• وهذا النداء يعرف بدبيب الصوت ، ويخشاه الجبان كثيرا ، لانه ، خارجا عن ارادته ، يجد نفسه مضطرا الى الهرع وتقديم النجدة •

وانبث الرجال في مسارب القرية حفاة عراة الرؤوس يقفزون كالبراغيث وهم يرددون عاليا : العون ·· العون ·· العون · والتقى جدعان بشبح صغير ينط بخفة ويرفع في الهواء عصا طويلة ، فسأله مستثارا غاضبا من زوجته :

ـ ما الخبر يا سعدو ؟·

وأجاب الراعي بدون أن يتوقف :

ـ الحق الحق ·· الصوت في الغرب في الغرب ··

وكانت مهمة المستنفرين أولا هي العثور على طالبي النجدة ، وكل ما عرف أن الصوت دب من الناحية الغربية · وبينما كان الرجال ينبثون أشتاتا صاخبين هارجين ، برز فجأة شحادة المحمد وأفضى بما يعرفه · وقال :

ـ بيت صالح الذياب خاو على عروشه ···

ثم أردف بعد أن سمعت غصة من حلقه :

ـ قابلتني مساء في البيدر سليمانة وكانت تنتظره هو وكنته ··

وصاح جدعان من أحد الاطراف :

ـ فرحة ··؟ مالها ؟·

وأجاب شحادة المحمد :

ـ والله لا أعلم ··

وهتف المختار :

ـ يا الله بنا يا شباب الى أرض صالح الذياب ·· فالرجل مريض ويخشى أن يكون ألم به حادث ·

وسار رتل الرجال يتحسسون الطريق بأرجلهم بين الصخور السوداء ، يتقدمهم الراعي الضئيل بدون أن يلمح منه غير عصاه التي تلمع في الظلام · وبعد قليل صاح سعدو بصوت رفيع ثاقب وكأنه يقود شلية ماعز :

ـ سليمانة ·· يا هو هي ·

كان الضرير يحسن السير ليلا أكثر منه نهارا ، فالسكون يسمح له بتمييز الحركة ، وأذناه تقودانه في الحالتين · وكانت الاصابع الدقيقة المتباعدة في قدميه الصغيرتين تستكشف له الطريق وسط الوعر · بالاضافة الى أن عصاه

هي كل شيء ، اذا ما انفصل عنها لا يصبح له أي معنى . واستدل سعدو على مكان أسرة صالح الذياب بسهولة فائقة ، وكأنه يحمل بوصلة دقيقة ، وصاح بنبرته المألوفة ، لطالما ألم به الحنين الى تجربة حنجرته التي علاها الصدأ لسبب سيظهر فيما بعد :

ـ اهرعوا و و و وا ٠٠٠

والتف المنجدون حول كومة آدمية أشد قتاما من الليل ، وفهموا من الندب والنشيج المتواتر الساكن : أن صالح الذياب مفقـود ، وأن الثورين عادا وحدهما مشتتين مقطعي الانفاس ٠ كما فهموا من خلال هواجس أمينة ومتاطعة سليمانة وتصحيحات أم فهدة : بأن فرحة قد وافته الى الفلاحة لتحمل له الخبز ، ولم تعد هي أيضا ٠

وخطر للمختار خاطر ينطوي على الغرابة ، وكاد يصرخ به لولا أن سبقه صوت شحادة المحمد يقول ساخرا :

ـ ربما يكون خطفها وهرب بها ٠٠

وحمد المختار الله في سره ، لان هذا الخاطر لم يقابل بالهتاف ، اذ ما كاد شحادة يبتلع ضحكته ، حتى انقضت على عنقه أربع أيد قوية طرحته أرضا ، واعتلي ظهره وحشي فمه بالتراب والبصاق مع عبارات الشتم والتحقير : يا خنزير ٠٠ يا قز القرد ٠٠ يا أبو الجحشات ٠٠ واقترح المختار بين الشتائم المقذعة ، أن يشرع في البحث والتنقيب ، بأن يصطف الرجال على شكل خط مستقيم يتجه نحو أرض الرجل المفقود ٠ وفكر قاسم وهو ينفض يديه من التراب بالتشكيلة العسكرية التي تعلمها ابان خدمته الالزامية (الحضيرة بالصف المستقيم) ٠ ونسي المشكلة القائمة عندما صاح :

ـ بين الواحد والواحد خمس خطوات فرجة ومسافة ٠٠

وصاح به الخجا من الوسط :

ـ ما هذا الهذر يا خروف عيد الاضحى ؟ نحن أين وأنت أين ؟ ٠٠

ونزلت هذه العبارة على الصدور بردا وسلاما ، وعلق الفقير :

ـ لن يكون أقل سوءا من أبيه على كل حال ٠٠ الظهر مسوس ٠٠ هذه هي المشكلة ، ولن تكون عاقبة ربيب البكوات أفضل منه ٠

وسار الموكب متئدا ، يسمع من بين جوانبه بين الحين والآخر ضحكة خافتة أو تعليق ساخر : ستعاف الضباع لحمه المنتن •• ستفقد الذئاب شهيتها من رائحته •• وعبارات أخرى فاضحة وشائنة تتعلق بالفتاة • وقد تكفّل المختار بشؤون النساء الثلاث ، فألجم ألسنتهن بغزله الرقيق : يا فطائس •• يا جيف منتنة كفى فضائحا • ابقين يوما بلا فحل •• سوّد الله سوءاتكن •• أنتن والله اللواتي قتلنه •• نشّفتن دمه •• ما أبقيتن في ظهره ماء •• عزرائيل يأخذ روحكن • يا طاعون •••

أما جدعان فقد طارت النشوة من رأسه وراح يضرب أخماسا في أسداس •

وصاح صوت فجأة من أقصى اليمين :

ـ نحن في أرض صالح الذياب •

بينما تناهى صفير سعدو في المقدمة :

ـ يا هـو و و و مافي شيء •• ى ى ى ى

والتقت المجموعة في نهاية الارض ، وتوقف الرجال يتشاورون ، فارضين مختلف الاحتمالات : الوحش سيترك أثرا •• كان ينبغي للبنت أن تعود وتخبر •• واعترض شاب قائلا :

ـ لن يأكله وحش هنا ، بل يقوده الى مغارته ••

وبسمل الخجا وحوقل ثم أضاف :

ـ الله يهدينا يا جماعة ، يجب أن نتساءل أولا : لماذا تأخر ؟ هذا هو الموضوع •• وصاح بغتة :

ـ ولك سليمانة •• يا عجوز النحس لماذا تأخر صالح ؟ قولي لماذا ؟•

وفيما كانت المراة تتخبط في اعترافاتها ، بدون أن تفهم شيئا ، أضاف المعلـم :

ـ ثم أين هي البنت ؟ لماذا اختفت أيضا ؟•

وبين الحيرة التي سيطرت على الجميع ، وكأن هذا السؤال كان مشكلة خاصة لا علاقة له بالقضية ، اقترح المختار قائلا :

ـ يا جماعة أجلوا المسألة للصباح ، فالصباح رباح •• لربما يكون

البهيم قد رجع عن طريق آخر ·· هل بحثتم على السطوح ؟ فقد تجدونه نائما هناك ، فالرجل مجنون في سائر الاحوال ··

واعترض جدعان للمرة الاولى في نبرة تشاؤمية :

ــ هل يصح أن نرجع الى دورنا ونترك بنتا في العراء والدنيا ليل ؟

وأجابه المختار في عصبية مقلدا صوته :

ــ لا والله يا شيخ جدعان ·· يا أفندي ·· نموّت حالنا من شأنك وشأن بنت الله أعلم من أية طينة جُبلت ·· لعنة الله على عبد الله الجدعان في قبره ·· يالله يا جماعة ·· أصحاب علي تندب علي ·· قال يقولون ان غرمول الحمار تكرموا عن طاريه ··

وراح المختار يسرد قصة شائنة ، وهو يعود مع الرتل أدراجه الى القرية ·

كان جدعان من الاناس الذين يتعبهم التفكير ، والذين لا يجدون له فائدة كبيرة · غير أنه عندما يضطر لان يشغل عقله ، لا يسمح للخيال بأن يسيطر عليه ، وذلك لسبب واضح هو أنه محروم من هذه الموهبة · من أجل هذا راح يجمع الحوادث ويربطها بعضها ببعض :

« جاء عمي يخطب فرحة عن طيب خاطر ، ولسبب ما تراجع في آخر لحظة ، ولا يهمني السبب ، ثم مرض لتوّه ، وجن أو افتعل الجنون ، وليس من بادرة تدل على أن فرحة هي السبب ، تقول سليمانة ان قدم البنت نحس ، ما ان حلت عليهم حتى خربت بيتهم ، ولنترك هذا الزعم ، لاننا اذا عالجنا الموضوع من هذه الزاوية فلن نصل الى نتيجة حميدة ، لان العقد سيفسخ وستعود فرحة الي ، ويأخذون فهدة مع البقرة والنعاج وتذهب الحنطة ، وهذا ما يجعلني أخسر كثيرا ، لان فرحة تكون بحكم المطلقة ، وبهذا تفقد قيمتها » ·

وفجأة سأل نفسه في حيرة : ولكن أين هي الآن ؟·

كان الرجال قد عادوا أدراجهم ، مخلفين وراءهم أسرة صالح الذياب التي افترش أفرادها الارض ، في رأس كل منهم غاية محددة · سليمانة تريد أن تكشف سرا ، أمينة وولديها يبغون عروسهم التعيسة ، وأم فهدة تشاطر الفريقين أحزانهما وهواجسهما ، متمنية أن تتواتر الاحداث وتتعقد ، لانها

لن تربح شيئا ولن تخسر شيئا • وكانت سليمانة قد خلصت الى نتيجة ، وهي أن فرحة قتلت عمها ودفنته في حفرة عميقة ثم هربت ، بينما كانت حصيلة أمينة ، هو أن العكس صحيح ومنطقي، أما الثالثة ـ ويبدو أنها تكره الدم ـ فكانت تفرك يديها تشوقا ، متخيلة أن العجوز خطف البنت وهرب بها بعيدا ، معتمدة على حدس شحادة المحمد الذي لم يكن حدسا كما تعتقد ، بل كان رؤية عين ، وهذا الرجل قد يكون سيء السمعة ، مكروها ، الا أنه لا يكذب ، وهي تحس نحوه احساسا طيبا ، لانه لا يحس نحوها بأي نفور أو اشمئزاز ، على الرغم مما يقال عنها بأنها جيفة حقيقية ذات رائحة تبعث الدوار •

عندما ساءل جدعان نفسه : ولكن أين فرحة ؟ كان قد وصل متأخرا الى بيادر القرية ، فتوقف هناك برهة ، ثم توجه الى دار عمه • وهناك وجد المختار وبضعة رجال ينقبون في البحث على السطوح ، وفي كُوَر الفلال الفارغة ، بدون أن يغفلوا من حسابهم حظيرة الدجاج ، وقد جرى تفتيش مماثل في سائر أركان القرية ودورها ، ثم أوى الرجال الى مضاجعهم يجرّون من الاعتاب نساءهم وأطفالهم الذين خرجوا لتسقط الاخبار بعد أن بخّر الصياح النوم من عيونهم • وسئل جدعان عن أخته ، فرد بأنه لا يعلم • بدون أن تخامره الظنون ، أو يجنح به التفكير عن جادة المعقول ، واتخذ طريقه الى داره شاردا ناعسا •

تناهى الى أذنيه ـ وهو يجوس في حوش الدار على مهل ـ صوت أمه ، فاقترب من حظيرتها المثلثة مستطلعا ، فسمعها تضرب كفا بكف وتغمغم بأشياء لا معنى لها • وخاطبها من فوق السقف مسامرا :

ـ مالك يمّا •• مالك •؟

ونهنهت الام من قبرها بصوت شاك عميق :

ـ مصيبة يا ولدي •• مصيبة كبيرة ••

ودفع جدعان الحاجز القصديري الصدىء الموصّل ـ الذي كان بمثابة الباب ـ وأدخل رأسه سائلا :

ـ ماذا يوجعك •؟

وغمغمت العجوز في حزن :

ـ فرحة يا ولدي •• ها هي ذي ، انها خرساء ومشلولة ، انظر ••

ولكن جدعان لم ير شيئا ٠ ومدّ يده في العتمة يتحسس المكان ، فوقعت أصابعه على عدة أقدام ، اختار منها واحدا وجرّه بقوة الى الخارج ، وتلوّت صاحبة القدم تحته وهي تئن أنينا حيوانيا موجعا ٠ ورفع جدعان أختـــه من كتفيها محاولا أن يوقفها صائحا :

ـ وك مالك ٠٠؟ قفي ٠٠

ولكنها تدلت بين ساعديه كالغرارة المبتلة ، ثم سقطت مرتطمة بالارض ، وتلمّس ركبتيها فوجدهما ملتصقتين التصاقا شديدا ، وحمل جدعان ذلك الجسد المتيبّس الى الحجرة ثم أضاء السراج ٠ واستيقظت فهدة ضائعة الاحلام، محملقة العينين، تستوضح سر ذلك المتاع الغريب الذي يخبط الأرض، ونبحت مذعورة :

ـ فرحة ٠؟

وقرّب جدعان السراج من وجه أخته وراح يتفرّس فيه ٠ فهاله التغيير المخيف الذي طرأ على تقاطيعها الاولى ٠ ولو لم يكن قد أخذ فكرة من أن هذا النقض الآدمي هو أخته فرحة لما صدق أنها هي بأية حال من الأحوال ٠ فعينا الانسان وفمه هي من أبرز الصـــفات التي تفرقـــه عن المخلوقـــات الأخـــرى ، وبالتالي هي ما تميز انسانا عن آخر ، وأقل تبديل يطرأ عليها يجعل صاحبها يبدو غريبا حتى عن أقرب الناس اليه ٠ ومن سوء الحظ أن الكارثة التي أحاقت بالفتاة انطبعت بصورة فاجعة على زوايا فمها وعينيها ٠ ولو قدر لأمها أن تراها في هذه الحالة لرفستها معولة : ابعدوا عني هذا المسخ فهو ليس مني ٠٠

كان فمها على دقته ملتويا التواء كاملا ، هبطت زاويته اليمنى الى الاسفل حتى وصلت الى نهـاية الذقن ، بينما ارتفعت الزاوية الاخرى تكاد تصـــل الى الخيشوم ٠ أما الشفتان فكانتا متورمتين داميتين ، ترتجفان عبثا في محاولـــة للالتقاء ، وفي محاولتهما هذه ، كانتا تجران الخدين الى الاسفل ، وبدا انفها معقوفا حائرا بين الاستجابة الى هذا التجاذب الشيطاني ، أو البقاء على وضعه السابق ٠ وقد حافظ انسانا عينيها على وضعهما متجمدين ، ولكن كما يبدو بعد مقاومة جنونية لدرجة أن تجمدا من الرعب ، دون أن يطل منهما غير يأس مدمر وذعر مميت ٠ وكان يبدو أن لسانها قد سحق سحقا بين فكيها الراكب أحدهما فوق الآخر ، فكانت تلوكه بين خديها الملتصقين لتبتلعه من الجوع ٠

كانت معفرة بالتراب من عصبة رأسها المفككة العقد الى أظافر قدميها ،

دون أن ينجو جسدها من هذا التعفير ، وكأنها أخرجت لتوها من قبر دفنت فيه حية مجبولة بالتراب · ومن حول عينيها المائلتين ، والبروز الشنيع في وجهها وفمها تجمد التراب الممزوج باللعاب والدموع · كانت ملقاة على الأرض جاثية في وضع السجود ، مستندة على مرفقيها وركبتيها ، ضامّة فخذيها أحدهما الى الآخر بشدة ، وكأنها تخشى أن ينفذ من بينهما الهواء ، في حين تدلى رأسها بين ساعديها مائلا نحو السراج يراقب النور بتوجس ، كرأس (أحدب نوتردام) وهو يراقب المقصلة ·

ظل جدعان وزوجه متجمدين أمام هذا المشهد المريع ، الى أن أفاقا على صوت أظافر الأم تخمش الجدار زاحفة :

ـ جدعان ·· يا قليبي ·· قل لي كيف هي ·؟ ماذا جرى لغزالتي ·؟

ورد جدعان مختصراً محشرج الصوت :

ـ لا شيء ·· البنت مؤاذاة ··

وتكوّمت الأم الى جانب ابنتهـا نادبة بأغنية مطلعهـا : يا خراب ديارك يا مزنة ·· فرحوا عزالك يا مزنة ·· يا ويل حالك يا مزنة ·· وراحت تضرب على صدرها وتهتز · أما فهدة فراحت تشهق مغالبة دموعا مدرارة · وقرفص جدعان الى جوار أخته وراح يحـاول اجلاسـها وتدليك أعضـائها المتيبّسة ، فاستسلمت له بدون مقاومة ، ولكنها ظلت محافظة على وضع ساقيها المتصلبتين ، ومد يديه يتلمسهما من تحت الثوب ، وضغط على لحمهما بأصابعه القوية ، فبدا أنها لم تحس بشيء · وتنهد جدعان وهو يسألها في نبرة منخفضة وحنان عميق :

ـ ايه يا أختي يا فرحة ·· أنا أخوك جدعان أتسمعينني ·؟ لا تخافي ·· قولي ماذا جرى لك ·· ها هي ذي أمك وفهدة أيضا الى جوارك ·· لا تخشي شيئا ·· هيا قولي ما أصابك ··؟

وطرفت الفتاة أهدابها ولاكت لسانها في حفرته المتربة الدامية فسال منه لعاب قاتم · كان جليا أنها غير قادرة على الكلام · ولكن الشاب أمسك بها من كتفيها وراح يهزها في هدوء ، وكأنه يعالج آلة صعبة التركيب ، وعاد يقول لها :

ـ فرحة أنا جدعان ألا ترينني ·؟ الى أين تنظرين ·؟ هيا تكلمي ما فعل بك عمك ؟·

ـ هل هو عمك أم من ؟ من آذاك ؟ فرحة ·· حاولي النطق بحرف واحد ·

ولكن البنت ظلت تهيم في الفراغ بعينيها الفزعتين ، دون أن تنبس بحرف واحد · وأرادت الام أن تتدخل بالصراخ ، فأوقفها جدعان في الحال وأمرها في جفاء ألا تسمعه صوتها ، وأشار الى زوجته بسبابته أن تلزم الصمت ، ووقف ، فارتسم ظله المرتجف يملأ فراغ الحجرة كمارد طويل ، وحك رأسه قليلا ، ثم فتح باب الحجرة وخرج الى الفجر ··

هام في البداية على وجهه بسرواله وقميصه حاسر الرأس حافي القدمين بدون أن يشعر بلسع برد الصباح · ووجد نفسه الى جوار دار المختار ، فتوقف قليلا ثم استأنف سيره ·· ومر على دار عمه فلم يجد أحدا ، وقال في نفسه : انهم ما زالوا ينتظرون ولنر ·· ولاول مرة في حياته كلها ، يجد جدعان نفسه أمام معضلة بشعة تواجهه وحيدا ، بدون عضد أو سند ، فأحس بكيانه يرتجف وكأنه يقاوم أيديا جبارة تدفع به ليسقط في هوة ليس لها قرار · وخطر له فجأة خاطر معين · فعرج على دار شحادة المحمد ، وطرق الباب ، ولم ينتظر بل دفعه في رفق فانفتح ، وانتصب الرجل تحت غطائه صارخا :

ـ من ·؟ من هذا ·؟

ـ شحادة لا تخف أنا جدعان ·· قم تعال قليلا ·· أريد أن أستفسر عن موضوع ·

واصطكت أسنان الرجل طاحنا الكلمات :

ـ أنا ·؟ وما دخلني بقضيتكم ·؟ حل عني بحق الرحمن ·· دعني ، فأنا متعب وأريد أن أفيق بعد قليل للحراثة ·

وقال جدعان في حدة :

ـ قلت لك لا تخف ·· فقد وجدت فرحة وهي في حالة مؤلمة ، أريد أن أسألك فلربما كنت على علم بشيء ·

وزحف شحادة المحمد من تحت غطائه مبربرا ، وألقى نظرة حوله على سواد الحجرة ، ثم تخطى بضعة أجساد صغيرة مبعثرة على الارض ، وخرج الى العراء · توقف الرجلان في شحوب الفجر صامتين لحظة ، ثم سأل شحادة مرتجفا :

ـ هيا قل ماذا تريد ·؟

ـ قلت انك شاهدت فرحة ظهر البارحة ، وأرضك غير بعيدة عن أرض صالح الذياب • واعترض شحادة المحمد مصححا :

ـ أنا لم أقل أني رأيتهما•• سبحان الله على طبعك•• يرحم بيّك ياجدعان حل عني •

ولكن جدعان أصرّ على أن يبوح له شحادة المحمد بما شاهد أو سمع وقال محتدا :

ـ اسمع يا شحادة •• خطيئة برقبتك اذا كان عندك شيء ولا تقوله •• لازم تعرف أن القضية قضية عرض•• حتى تفهم • وأنا شاعر بأني سأقتل أحدا ولربما أكثر من واحد •• وأجفل شحادة ورد مرتعداً :

ـ لا ترفع صوتك ياصاحبي •• الله يرضى عليك استرنا •• أقول لك برحمة بيي ورحمة أم الأولاد اني لا أخبيء عليك شيئاً ••

قال جدعان وقد فرغ صبره :

ـ ما يخالف •• أنا معك •• ولكنك قلت في المساء أن صالح الذياب ، ربما يكون خطف البنت •• أما قلت هذا ••؟

وسقط شحادة المحمد على الأرض ورد متلعثماً :

ـ اقعد يا جدعان اقعد •• طوّل روحك علي ••

وضحك في عصبية ، وراح يتخبط مدافعا عن نفسه :

ـ أنا ما قلت هذا •• أعني لا أقصد ما قلته حرفياً •• كنت أمزح •• عليم الله كنت أمزح•• وهل صدقت انت هذا العلك الصدىء •؟ أسألها أنت •• اسأل فرحة لماذا لا تسألها •؟

ورد جدعان في صبر وهو يضبط أعصابه :

ـ الله يخزيك يا شحادة •• كنت أظنك أحسن مما يقولون عنك •• خاف الله يا شيخ قدامك أنكر ونكير •• قدامك آخرة لا تكذب •• البنت مشلولة ولا تنطق بحرف • أريد أن أعرف ••

وقال شحادة مطمئناً الى أن جدعان لن يكون معه عنيفاً :

ـ يا خويا ماذا أقول •؟ ان بصقت لفوق تنزل البصقة على شواربي وان

بصقت الى تحت تنزل على ذقني ٠٠ أنا بيني وبينك الله ما رأيت شيئا وما سمعت شيئا لكن ٠٠

ـ لكن ماذا ٠٠؟

ـ لكن تخيلت أن أصواتاً صدرت من هناك ٠٠ صياح وما أشبه ذلك ٠٠ ورأيت غباراً ٠٠ هذا كل شيء ٠٠ ورحمة بيي لا أكذب٠٠ وعدت في المساء وقد نسيت الموضوع الى أن التقيت بسليمانة فأخبرتها عن ذلك ٠٠ وليلحقني الله بأم الأولاد اذا زللت بحرف واحد ٠٠

وأطلق جدعان تنهدة ضيم عميقة ، ثم نهض فجاة وقفز من فوق العتبة دون أن يعلق بكلمة على ما سمعه٠ كانت الأقوال الاخيرة التي أدلى بها الرجل بعد اصرار طويل ، تثبت أن الحكاية غير نظيفة ٠ وعاد الى الدار ٠

سأل جدعان زوجته :

ـ أما نطقت ٠؟

وهزت المرأة المذهولة رأسها ، وكان يبدو عليها أن أعيتها الحيلة في استنطاق الفتاة المأخوذة ، وقطعت الام نواحها مفتتة الانفاس ٠ وألقى الشاب نظرة على الجسد المتكوّر وهمّ بركله صائحا :

ـ الا تسمعين أيضا ٠؟

ولكن ساقه تسمرت في منتصف الطريق ، عندما رفعت الفتاة اليه عينين يلمع بياضهما بنظرات تعبر عن أبلغ آيات الفزع ٠ وتلكأ جدعان قليلا ، وكأنه لا يدري ماذا يفعل فوراً ٠ ثم طلب من زوجته أن تبحث فيما اذا كانت تحتفظ بشيء من الشاي والسكر ، وأخذ يزرع أرض المكان بخطوات متباطئة ثقيلة ، ساندا رأسه على ساعديه المتشابكين فوق صدره ٠ بماذا ينبغي له أن يفكر ٠؟ ومن أين يبدأ ٠؟ ثم ما العمل ٠؟ هل حلت هذه المصيبة لتكدر عيشه الذي بدأ يحس بطعمه ؟ ثم من هو سبب هذه المصيبة ؟ صالح الذياب قريبه وحمو أخته ؟ ترى ماذا فعل بها ٠؟ هل ضربها حتى الجنون ٠؟ لا يوجد في جسدها آثار أو كدمات ، ان ما حل بها داهية أقسى وأمرّ ٠٠ هل قتل الرجل نفسه تحت أنظارها ؟ ولكن أين جثته ؟ لماذا لا تتكلم ؟ آه !٠ لو تنطق بحرف أو تشير اشارة فقط يستدل منها على القضية ٠ وتوقف فجاة وسألها :

ـ هل قتل عمك نفسه ؟٠

وحمل السراج ووضعه تحت أنفها :

ـ هل تسمعينني ٠٠؟ أقول لك هل قتل نفسه ؟٠

وبرق انسانا عينيها بريقاً خاطفاً ، وتحركت زاوية فمهـا المنفرجـة في بشاعة ، وصدر من حنجرتهـا جئير مبهم غليظ ٠ وانقضت الام على صدر ابنتها ناشجة :

ـ يا قليبي ٠٠ يا قليبي ٠٠

وبغتة ولاول مرة غامت عينا الفتاة ، ثم انحدرت منهما دمعتان كبيرتان موحلتان ، ورفعت يديها الى رأسها وراحت تنشج بصوت خشن كصبي كبير ٠

وأحضرت فهدة شاياً ، وبعد أن يئس جدعان من استنطاقها أو فتح ساقيها ، أضجعها على جانبها وراح يسكب قطرات من السائل في انفراج فمها الأعلى ، وأحضرت لها خيشة بالية مُددت على نصفها وغطيت بالنصف الآخر ، في حين كانت الديوك تسائل نفسها :

وهذا أيضا أليس هو الفجر ؟٠

فقد كانت ليلتها مضطربة ، وكانت تصيح مرات ومرات دون أن تلمح الضوء ٠ ونفضت أجنحتها المذهبة ، ومطت أعرافها الى الأعلى ، وأخذت تؤذن للفجر الحقيقي ٠٠

(٨)

حلت الظهيرة ، ولم تسفر التحريات التي قامت بها أسرة المفقود وبعض المعاونين ، عن وجود أي أثر له · فعــادوا الى القرية يملأ القلق نفوســهم ، ليصطدموا بالخبر الذي أضاف الى المشكلة غموضا وحيرة · وُجدت فرحة مشلولة وخرساء ومشوهة السحنة · وكانت حماتها أمينة قد لاحظت ابان حملة البحث آثارا ، ما أن قارنتها بوجود كنتها في تلك الحالة حتى أطلقت صرخة مدوية ·· لم يكن ما أرعبها سحنة الفتاة المقلوبة ، على الرغم من أن ذلك بحد ذاته يشكل مصيبة تطيح بالعقل · وأيد وساوسها هرب الرجل واختفاؤه ، فها هي ذي آثار المعركة جلية واضحة · وعصرت أمينة قلبها بأظافرها ، وكان يطرق طرقات سريعة متواثبة · وتذكرت الحجاب الذي وضعته لها بنفسها بين القلب والسرة ، وتفقدته لتجده ما زال في مكانه ، وتساءلت في شك : أين كرامات الفقير اذن ؟ هل أكفر بالغيب ؟ أعوذ بالله ··

وفسر الحاضرون تفجع الحماة تفسيراً معقــولا · ظنوا أن ما آلت اليــه كنتها من تشويه في الخلقة ، قد أطار منها اللب وأحرق الفؤاد ، أما هي فقد اعتبرت الكارثة كارثتها ، وان المصيبة قد انصبت ساحقة ماحقة على رأس ابنها قاسم · وماذا ستكون حاله هو أيضا لو عرف الحقيقة ·؟ ولم يبق في مقدورها أن تفكر أكثر من ذلك ، فانسحبت من المكان معولة نادبة تمزق صدرها بأظافرها الطويلة المسنونة ، تسحب معها ولديها اللذين راحا يكفكفان دموعهما المدرارة· أما الآثار التي اكتشفتها ابان البحث عن زوجها ، فلم يكن غير تشويه في خطوط الحراثة المتوازية في نهاية الحقل ، لم يسترع انتباه أحد من الناس ، وقد عللت ذلك، بناء على تجربتها الخاصة وخبرتها بحيوانية زوجها صالح الذياب ، انها آثار العراك الذي جرى بين الرجل والفتاة ·

كان الناس ملتفين حول المصابة يستفسرون ويستوضحون ، بين تفجع الام وحيرة الابن ، بينما كانت البنت على حالتها الاولى منكبة على الأرض ، مستندة على كوعها الايمن ، متدلية الرأس ، ضامة قدميها أحدهما الى الآخر بشدة ، تختلس بين الفينة والفينة نظرات وجلة من عينيها المائلتين ، الى ما يدور حولها من همس وبلبلة واشفاق ٠ في حين أخذ الفقير عند رأسها ، يقلب صفحات كتاب أصفر عتيق يشرح علاج الحالات المماثلة ، بعد أن قرأ عليها ما جادت به ذاكرته من آيات وأدعية وأذكار ٠٠

ونسي الرجل المفقود ، ولم يبق له سيرة الا في مجال التفكير في أسباب الفاجعة ٠ وتسارّت سليمانة وأم فهدة فيما بينهما ، ثم انسحبتا تتطاحن الأفكار في رأسيهما المغلفين بعصبتين كبيرتين من الخروق السوداء ٠ قالت أم فهدة محوقلة ، تحيط صدرها بدوائر من يدها وتتفل :

ـ يا لطيف يا اختي يا لطيف ٠٠ ألف شيطان تعبأت في جسدها ٠٠ ومهما حاول صالح أن يفعل بها فهو أعجز من أن يوصلها الى ما هي عليه من أذى ٠٠ لا ٠٠ ليس هذا من عمل بني آدم ٠٠ انها الشياطين ٠٠ الشياطين وحدها ٠٠ باسم قل هو الله أحد ٠٠

وحين وصلت المرأتان الى الدار ، كانت أمينة تقيم مأتما حارا ، وكان صراخها يرتفع ثاقبا جارحا :

ـ آه يا قاسم يا ولدي ، هجرت من شانك بلدي ، آه يا قاسم يا روحي ، آه من جروحك وجروحي ٠٠ أهيء ٠٠ أهيء ٠٠ أهييييء ٠

وانتقل الزائرون من دار جدعان الى دار صالح الذياب ٠ كانوا جميعهم ـ والكبار منهم خاصة ـ صادقين في مشاعرهم ، دون أن يشوب أحزانهم خداع أو رياء ، في مآسيهم كما في أفراحهم ، تجمعهم الهزات الى حين قبل أن يبذر الشر بذوره ٠ وصعدت العجائز الى علية أمينة يشاركنها في الولولة ، واتخذت سليمانة وأم فهدة مكانيهما الى جانبي المرأة النادبة ، وشرعت كل منهما تغني على قيسها ٠٠ ماذا تخبيء في صدرها يا ترى ؟ هكذا كانت أم فهدة تتساءل ٠٠ أما سليمانة فكانت تفكر : لو أن المسألة مسألة شياطين لعاد صالح مجنونا ٠٠ وبأسلوب عاطفي غريب ، استطاعت أم فهدة أن تنتزع من أمينة اعترافا ٠ صرحت لها بالأثر الذي اكتشفته في الأرض في فترة استراحة قصيرة بين صرختين ٠

واشارت أم فهدة الى شريكتها . فانسحبتا الى الخارج ، حيث أفضت اليها بالسر الذي من جرائه تقيم أمينة القيامة • وحملت المرأتان فأسا وهرعتا الى البرية ، وهناك اهتدتا الى الاثر بدون صعوبة •

وعوت سليمانة بذعر منغم :

ــ هنا دفنوك يا صالح •• هنا ذبحوك يا صالح •• هنا قطعوك يا صالح •••

وتلفتت أم فهدة يمنة ويسرة، وتنفست نفسا عميقا، وأطلقت عقيرتهابعد أن حفظت اللحن ••

حين أزف المساء كانت المرأتان قد انتهتا الى حفر خندق يتسع لعشرات الجثث بدون أن تعثرا حتى على فأر • وقد هبطتا الى قعره وراحتا تنبشان طولا وعرضا وعمقا بأظافرهما وأسنانهما ، تشمان هنـا وهناك رائحـة لربما تكون رائحة الدم ، ولكنها لم تكن غير رائحة عرقهما الحريفة الذي سال لفرط الجهد الذي هدرتاه بلا طائل • وفي عودتهما منهوكتين مخفقتين ، التقتا بثلاثة شبان من شباب القرية كانوا قد أوفدوا من قبل المختار للبحث عن صالح في القرى المجاورة • وعندما أصبحت قضية اختفاء صالح الذياب طلسما من الطلاسم ، صرح المختار بأنه يتعين عليه اخبار الدرك ليرفع المسؤولية عن كاهله ، ولن ينتظر أكثر من حلول ظهر اليوم التالي ، ولتذهب سمعة القرية الى الجحيم •

كان جدعان يكره المصائب ، لا لانها تؤلمه ، بل لأنه لا يعرف كيف يتصرف حيالها • وما ألم باخته لم يكن بحد ذاته يشكل خطرا كبيرا الا بقدر ما يترتب عليه من نتائج •• سترفضها أمينة زوجة لابنها ، وستتضافر الزوجات الثلاث على استرداد فهدة ، على الرغم من عدم حاجتهن اليها ودون أن يجنين منها أية فائدة• كما أنه سيخسر الدواب والحنطة ، ويعود فلاحا فقيرا لا يملك شيئاً سوى أرض صغيرة قاحلة جرداء ، بالاضافة الى امرأتين مقعدتين بامعاء تحتاج الى ما تعصره • من أجل هذا شرع يصلي مع الفقير فوق جسد أخته صلاة خاشعة مبتهلة • لم يكن متعلما ليقول شيئا ذا مغزى يحقق معجزة ، بل راح يردد اسم الله مرارا داعياً في صمت وتبتل ، الا أنه ظل مقتنعا في أعماقه بأن صلاته لن تفيد شيئاً • وأصبح همه أن تستعيد فرحة حالتها الطبيعية ليعيدها الى زوجها ويبقى هو محافظا على وضعه الجديد ، وليفرض أن عمه مات وانتهى •

ظل الفقير يقلب في كتابه الاصفر العتيق حتى وصل الى باب (الشياطين والجان ورعية سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام) : وقرأ :

« قل هو الله أحد ، قل أعوذ برب الفلق ، قل أعوذ برب الناس ملك الناس اله الناس من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس ·· بخور بخور لا خمر ولا عطور اطرد يارب العالمين من هذا الجسد كل ما فيه من أذى وشرور ··· »

وبعد أن قرأ سبع صفحات من الادعية والآيات انتهى الى الوصفة العتيدة · وأخرج من جيب سرواله ورقة معلوكة وراح يكتب عليها شيئاً · وناول الوصفة الى جدعان قائلا :

ـ خذ ·· هذا هو دواء أختك ·· يجب أن تحصل عليه مهما كلف الامر ، ولو اضطررت أن تذهب الى السند ·

وسأل جدعان :

ـ من هذا السند ·؟

فرد الفقير في لهجة تربوية :

ـ السند ليست بشراً يا بني بل هي بلاد لا يعلم عنها الا الله جلت قدرته·
ونهض يلملم عباءته من حوله ، مودعا الجسد بنظرة جائعة ، وكان ضوء النهار قد بدأ يتلاشى ·

حضر المختار في المساء ليقوم بواجباته ، وطلب من مزنة أن تغادر المكان · فأمسكها ابنها الجدار ، وتركها تتلمس طريقها في العتمتين شاكية منهنهة نائحة · وتهيأ المختار للعمل بأن نزع شملته وعقاله عن رأسه والعباءة عن كتفيه ، ثم شمر عن ساعديه واقترب من البنت المقعدة :

ـ جدعان تعال لنجرب حظنا بها ·· الشياطين لا تهرب من جسدها بالتي هي أحسن ·· قال جدعان مترددا :

ـ ماذا تريد أن تفعل ؟

ـ لا تخف ·· ان عمك لم يعثر عليه ، أرسلت مصطفى وسالم ونائف منذ الفجر ، فداروا في خمس عشرة قرية دون أن يجدوا له ذكرا ، واذا لم تتكلم هذه البنت فسأضطر الى أن أخبر الحكومة ، وعندها يصبح الموضوع رسمياً وقد يؤدي الى عواقب لا يعلم مداها الا رب العالمين ·

ـ مليح ·· وماذا تريد مني أن أفعل ·؟

ـ أجلس معي هذه البنت وساعدني على فك عقدة لسانها الوسخ ·· أنت لست طفلا كما عهدتك · في رأسك عقل وتدرك صالحك وصالحنا ·· تعال قرب هذا السراج الملعون · أما عندكم فانوس ·؟ اني لا أرى شيئاً ·· اللهم استرنا ولا تفضحنا ·· ولنخز الشيطان ·

وصاح جدعان فجأة :

ـ لا مختار ·· لا ·· لا أسمح لك بأن تضربها ··

وكان المختار قد جذب البنت من رأسها في شراسة ، وهنا ارتبك وتسمرت يده في مكانها ، وقال غاضبا :

ـ يا حيوان ·· يا أولاد ستين ألف كلب ·· ماذا تطلبون مني اذن ·؟ قلت لك أن الشيطان الذي دخل في جسدها لا يخرج بالسلام عليكم · وها أنت ذا تنعق كالغراب ·· لعنة الله على هذه القرية وهدم أحجارها فوق رؤوسكم ·· لا أدري والله لماذا لم يطردكم البيك منها منذ أمد بعيد · ويترككم كلاباً ضالة · انتم بشر أنتم ·؟ العمى ·

ورد جدعان في لين ولكن بلا خضوع :

ـ يا شيخ نواف البنت أساسا في حالتها هذه أصبحت عديمة النفع ، وها هي ذي حماتها تولول على حظها التعس ، فكيف اذا ضربت وتورم وجهها ؟ لن تعود صالحة لشيء ولن يقبلوا بها بأية حال ··

وصخب المختار حانقا :

ـ ولك يا بغل من قال لك اني سؤوذيها ؟ اريد أن أسألها فقط أين هو عمها ·· فرحت تعوي في وجهي مثل الوحش ·· الله يقطع رزقك · أنتم خلق أنتم ؟ ·· أنتم نوَر ·· تفو عليكم ··

وشخر من أنفه شخرة دنيئة وأردف :

ـ لعنة الله على أجدادكم ·· والله أعرف أنكم كلكم مشاكل ، وكنت وربي يشهد ، لا أريد أن أتدخل في الموضوع من أساسه ، وقلت لصالح الذياب رح اخطب وحدك وزوج ابنك كما تشاء (وأشاح بوجهه ليخفي كذبه) ولا تضع لي اصبعا في الموضوع ، لاني أعرفكم حمير ·· لا والله ألعن وأدق رقبة ·· الله داعي عليكم لتبقوا بقرا ·

وأمسك برأس الفتاة بين يديه وبعق فيه :

ـ هيا تكلمي يا نجسة ·· أين هو عمك صالح ؟·

وراح يهزها يمنة ويسرة ، ففقد الاثنان توازنهما وسقطا على الارض · وهبّ جدعان لنجدتهما ·

ومسح المختار كفه من اللعاب ، في حين راح يصدر من البنت أنين كئيب بين دموعها المحرقة · قال جدعان :

ـ لا يمكنها أن تنطق وهي على هذا الشكل ·

ـ ماذا نفعل اذن ؟· تفضل أنت وأرنا شطارتك ·

قال جدعان في ألم :

ـ لسانها ملصوق بسقف حلقها هذه هي الحقيقة ··

وأضاف فجأة بنبرة مغايرة :

ـ وأنت بدلا من أن تقوم بهـذه المهمة ، ينبغي لك أن تحمل البنت الى بيت عمها والسلام · انهم هم المسؤولون عنها ، فهي لهم ، وهم آذوها ، ألا أقول الحق ؟··

وشخر المختار ساخراً :

ـ شيء ظريف ·· واحد عجي مثلك صار يعطي أوامر ·· أنتم توسخون وأنا أمسح ·· أنتم تخلقون المشاكل وأنا عليّ أن أحلها ·· مليح ، والله مليح (وأردف بعد لحظة) : ولكن من يقبل بها بهذا الشكل المكرب ؟·

ورد جدعان قانطا :

ـ ولكن ما ذنبي أنا ؟·· ها أنا ذا رضيت بالمبادلة وعايش مع فهدة مثل السمن والعسل ·· سيأخذون مني غدا فهدة والدواب ولن أحصل على الحنطة ·· هل هذا حق ؟·· ويتركون لي البنت مشلولة وبحاجة إلى أكل ·· ضع نفسك في مكاني ماذا كنت تفعل ؟·

ولم يشأ المختار أن يجيب ، ولم يضع نفسه في مكانه ، بل قام ينفض عباءته لاعنا ساخطا وهو يهدر بشتائم مقذعة · ولاول مرة أحس جدعان

بما يشبه اليأس · وجد شخصيته التي بدأ يحسها منذ أسبوع قد تلاشت ، وصار كالعبد لا يملك سلطانا ولا قوة ، سيفلت الامر من يده ويصبح كالبعوضة وأقل شأنا · وانتحى زاوية من المكان يحبس رأسه بين كفيه ويعصره بأسى وألم بالغين ·

وتراقصت ذبالة السراج ، ومطت لسانها الى الاعلى باحثة عن شيء تلعقه بلسانها المتفحم ، تكاد تنفصل عن السراج وتفلت وحدها هائمة شاردة في فضاء الكون ، وتلحق بالمختار لتمقصه بلحيته الصفراء · وارتعش جدعان فجأة من شيء يحط على كتفه ، ورفع رأسه ليرى فرحة قد زحفت على جنبها حتى وصلت اليه ووضعت يدها على كاهله · وتأمل وجهها في دهشة ممزوجة بالفرح · كانت عيناها تنطقان بالضراعة والتوسل وبشيء من العرفان بالجميل ، فشدها اليه ، وحاول اجلاسها مباعدا قدميها الواحدة عن الاخرى ، فقاومه تصلب ساقيها وشم منها رائحة كريهة · كانت تحاول جاهدة أن تنطق ، أن تقول : أنا معك يا أخي وأشاطرك المصيبة التي حلت بك بسببي ولكن ماذا بمقدوري أن أفعل لك ؟· وانني أشكرك على منع المختار من ايذائي · ولكن الاصوات انبعثت من فرجة فمها المعقوف لهاثا وبصاقا وآهات ·· وأحس جدعان بفؤاده يكاد يتفطر ، وقد فهم جيدا ما تريد التعبير عنه · وكان قد صدّق عجزها من البداية ، فهو يعرفها أكثر مما يعرف نفسه ، فلا يمكن أن يكون ما حلّ بها افتعالا أو تضليلا ، فهي لا تعرف التمثيل · وعجب من انفعالاته هذه · كانت المشاعر تغزو كيانه ، وهذه تجارب لم تمر به قبل الآن ، وحيّره هذا التبديل الذي طرأ عليه · وتساءل : ترى ماذا ينتابني في هذه الايام ؟· هل بدأت أتحوّل ؟· هل كنت رجلا أفضل ، أم أنني بدأت أصبح مخلوقا جديدا ؟· وتمنى أن يرجع الى الوراء عشرة أيام فقط ، ليقيس نفسه الحالية على ما كانت عليه في ذلك الحين ، ترى هل حملت اليه فهدة نوعا جديدا من المشاعر ؟ الحب ، الشفقة ، الانفعال ·· ففي الصباح أيقظ شحادة المحمد من نومه وهدده بأنه سيقتل انسانا أو أكثر ، ومنذ قليل وجد نفسه يصرخ في وجه المختار ، وها هو ذا الآن أمام أخته يحس بأن شيئا في داخله يتمزق · كيف ينبغي له أن يتصرف تجاه هذه الاحاسيس ؟ هل ينتزعها من صدره ويبصق عليها ويدوسها كالقملة ، أم يتركها في روحه تنمو وتترعرع ؟· هل هي مؤذية هذه الانفعالات الجديدة أم أنها لا تخلو من نفع ؟ وأفاق على

فتح الباب ودخول فهدة تحمل أقراص خبز الذرة الشبيهة بقرص الرياضة الحديدي · وترك جدعان اختبار عواطفه الى تجارب أخرى ·

سأل زوجته وهو يقضم رغيفه المطلي بالرماد :

ـ هل بالت فرحة هذا المساء ؟·

وردت فهدة وهي تحشو فتحة فم ابنة عمها بالفتات :

ـ حملتها قبل حضور الفقير الى الحوش ولكنها تبلل حالها دائما ·

ـ ام ·· لهذا رائحتها بول ·· امسحي لها ساقيها ، أين أمي ؟·

ـ أعطيتها رغيف وقالت انها مريضة ، وقد وجدتها ساخنة ··

وطقطقت مفاصله وهو ينهض قائلا :

ـ ميلح ·· ائت بها الى هنا واسهرن معا ·· لم نذهب اليوم الى الحراثة أيضا ·· من أين حلّ بنا هذا البلاء ؟·

وخطا نحو الباب ، فسألته فهدة :

ـ الى أين ذاهب في الليل دون أن تكمل عشاءك ؟·

ولم يجب ، بل اندفع الى الخارج وبيده بقية الرغيف ·

• • •

تخطى جدعان بضعة أسوار حجرية واطئة ، ثم اجتاز حرشا واسعا ، فوصل الى كوّة ينبعث منها نور خافت ، وأحنى رأسه ودخل :

ـ مساكم الله بالخير ··

كان الدكان ـ الذي لا يمكن أن تعطي أرضه شكلا هندسيا ـ واطىء السقف ، لو حُصر بجدران متوازية لكانت مساحته بالتقريب خمسين خطوة ، تراكمت في واجهته بضعة صناديق خشبية ، حُشيت فيها أثواب الخام الاسود والازرق والابيض، وأقفاص السكاكر ، وأشياء أخرى مجللة كلها بالغبار·· والى جانبها استقرت صفائح للزيت والدبس والقطران والكاز والحلاوة وشوال التمر ، وقد ترك الذباب عليها جميعها آثاره ، أما الغبار فقد مغنطته اليها

جاذبية خارقة ، فالتصق بها وظلت تطلب المزيد • وعلى جانب ، انتصبت ثلاث كوائر للحبوب وسحارة للبيض ، وهذه كانت عبارة عن صندوق النقد • وفي السقف الحجري ذي القطع المتباعدة ، علّق فانوس هوائي لم تمسح بلورته منذ عهد نوح • أما في المقدمة اليمنى فكانت مصطبة تعلو عن الارض المتضرسة بمقدار ذراعين ، فُرشت بخيوط حصيرة ما زال عالقا بها بعض القش •

ومن الطبيعي أن تكون الدكاكين في القرى النائية حاوية على كل ما يلزم القروي منذ ولادته حتى وفاته ، لان التخصص في بيع الاصناف يترك البائع بلا عمل • وقد يتبادر الى الذهن أن تكون هذه الدكاكين تمت بصلة الى محلات ألف صنف وصنف ومحلات كل شيء •• الخ ، ولكن الامر هنا يختلف ، لا من حيث الجوهر فحسب بل في القشرة أيضا • اذ أن المحلات الآنفة الذكر لا تفي بحاجة الفلاح ، لانه يحتاج بالتالي الى مأكولات ومحروقات وأدوية العطار وأقمشة مصبوغة ولوازم المواليد والاموات والحيوانات و •• وبما أن الفلاح لا يملك نقودا ، فهو يقايض على مشترياته دوابا وحبوبا وبيضا • وعلى صاحب الدكان أن يتقن حرفة الحلاقة والجزارة وتطهير الاولاد وقراءة الغيب والحاضر مع الالمام بالطب والبيطرة وكتابة الاستدعاءات وادارة مقهى وفندق لطالما تتحول دكانه الى ذلك كل مساء •

كان البائع ــ وهو قروي من ضواحي دمشق ــ أزور العينين قصيرا كروي الشكل ، يجلس على الحاجز الخشبي يؤرجح قدميه المنتعلتين حذاء أجرب ، التصقت بشعر رأسه طاقية صبغت بما يشبه الدبس والقطران ، ويبدو أنه لم يرفعها عن رأسه منذ غاض الماء ، وأن رفعها يحتاج الى عملية جراحية • وعلى المصطبة اضطجع شابان يتأملان سماء الدكان في خشوع • وعلى الارض بين أقدام البائع وقفت بنت في حوالي الثانية عشرة ، عارية الا من سمل يغطي الجزء العلوي من نصفها الامامي تعلّق بكتفيها بخيوط واهنة ، يغمر شعرها الاشعث وجهها كله، وقد يغفل الانسان أو يتحدث بوجودها عن كل شيء بلا حرج لان عينيها وأذنيها مختبئة تحت شعرها المتلبد •وكانت البنت تحمل باحدى يديها بيضة وباليد الاخرى علبة سردين فارغة صدئة •

وحين دخل جدعان وألقى تحيته ، رفع البائع رأسه وكشّر تكشيرة هائلة ليتعرف على القادم • ثم تنخم قائلا ، مبددا رهبة الصمت الذي كان مخيما :

ــ يا حيا الله بجدعان ••

وتململ الشابان في مكانهما في انتباه • كان أحدهما يسمى نايف وهو شقيق سليمانة أما الآخر فهو ابن عمه سالم ، وكان يبدو أنهما متعبين لفرط الجهد الذي بذلاه في جولتهما الطويلة على القرى المجاورة بحثا عن صالح الذياب زوج قريبتهما • فتش جدعان في جيب سرواله وأخرج ورقة قدمها الى البائع سائلا :

ـ والله أريد هذا الدواء اذا كان موجودا عندك ••

وتناول البائع الورقة وفردها بأصابعه الدبقة ، ثم رفعها الى حاجبيه وقد تقلص أنفه حتى صار كرة صغيرة وكأنه يشم رائحة الدواء قبل أن يلمسه ، وبرزت أسنانه الصفراء التي تكاد تتساقط تحت لثته الزرقاء المتورمة ، وراح يتلو الوصفة بصوت مرتفع :

ـ درهمان خردل (وهز رأسه موافقا) ثلاث دراهم قرفة وزنجبيل (وأومأ بالايجاب) خمس دراهم أنوَشا وحنتيتة ؛ ونوفر وعنّاب و ••

وسُمعت في الدكان حركة مفاجئة وقرقعة خفيّة ، ثم عدو قوائم صغيرة على الارض ، وضحك البائع معلقا :

ـ لعنة الله على الجراذين •• أصبحت سمينة أكثر من الخراف ، لو يمكن ذبحها في غلاء اللحم •

وقال جدعان في نفسه : أرجو الله أن يجد لي هذا الدواء لأعطيه الليلة الى فرحة وستصبح غدا معافاة • وحبس أنفاسه دون أن يسأل البائع خشية أن يرد بالنفي . بينما عاد صاحب الدكان الى أرجحة قدميه في الهواء • وسأل نايف :

ـ كيف حال اختك يا جدعان ؟•

ورد جدعان في اختصار :

ـ والله يا أخويا خربانة •••

وسأل البائع دون أن يكلف نفسه عناء النزول عن الحاجز :

ـ وما زالت خرساء ؟•

وأحس جدعان بالضيم ، ليس من لهجة الرجل في السؤال بل لتدخله

أيضا في مسألة كان يجب ألا تثير كثيرا من اللغط • وظلت البنت الصغيرة واقفة في مكانها لا تتحرك • وصاح به سالم :

ـ ولك مشي البنت وأعط جدعان دواءه ، ماذا تنتظر ؟••

وعاد البائع الى فتح الورقة وقراءة محتوياتها من جديد • وفي تلك اللحظة سُمع ارتطام شديد عند باب الدكان ، والتفت الموجودون ما عدا البنت ، ليلحظوا شبحا طويلا يرعد بسباب مضحك وهو يحشر نفسه في فتحة الباب الضيقة يكاد رأسه يلامس ركبتيه :

ـ أخذكم الله وأخذ أبوابكم يا فئران الجحور •• ارفعوا السقف يا خنافس حتى الخلق تعرف تدخل •• تفو ••

ثم انتصب القادم عملاقا يلامس رأسه السقف • وهتف البائع جذلا :

ـ حيا الله أبا مسعود •• هذا أنت أو ضوء القمر ؟•

ورد الزائر الليلي متبرما ، وهو يعصر رأسه :

ـ ضوء الهوا •• كاد رأسي ينكسر يا بعرة العنز ••

وقهقه البائع قائلا :

ـ أنت كل مرة تفعل ذلك •• واذا كسرت حجر برأسك سأشكوك للدرك ••

وشخر العملاق شخرة مجلجلة : اشكوني • (ودقّ بعصاه على مؤخرته) • أنا لا أخاف لا ذرك ولا بنات آوى •

وانفجر الرجال بضحكة صاخبة، حتى جدعان اضطر أن يبتسم ، الا البنت فانها لم تسمع شيئا •

كان القادم بدويا في حوالي الثمانين من عمره ، تطل من بين حاجبيه الابيضين المتهدلين عينا صقر جبلي ، ويضيع أنفه في تلافيف شاربين كثين ، يختلط شعرهما الاصفر بذقنه الرمادية المشعثة كشوك القنفذ اذا امتد كثيرا ، وهي تغطي وجنتيه وفمه • تلف عظامه الشاهقة عباءة من شعر الماعز تصل الى ركبتيه فقط ، أحكم ربطها حول جسده الناحل بحبل غليظ ، وقد حجب مؤخرة رأسه بشملة ممزقة عديمة اللون والتاريخ • كان ينتصب في الفراغ

الضيق يابس العود حاني الرأس ، يوحي الى من حوله كأنه مقيـد في قفص من حديد ، يجر وراءه عصا طويلة ـ وكان يتنكبها قبل أن يدخل ـ علـّق في نهايتها صرة شـُدّت خروقها الحائلة اللون بمتانة ٠

وقال البائع :

ـ مرني أبا مسعود أنا في الخدمة ٠٠

ولم يجب البدوي العجوز بل تلفت حوله باحثا عن شيء ، وتقدم شبرا الى اليسار ثم جلس القرفصاء مستندا بظهره على كوارة الحنطة ٠ تناول عصاه وسحب الصرة من نهايتها ، ثم راح يعالج فك عقدها بأصابع طويلة سوداء حتى فتحت ، وبان في داخلها كسر من الخبز اليابس الرقيق مع أشياء أخرى ٠ سحب من بينها غليونا ضخما من الآجر المطلي ، ثم راح يعبث بأصابعه الثلاث وسط الخبز ، فاستخرج شيئا من ورق التبغ الطري حشا به غليونه العتيـد ، وكان دائما يرفع رأسه ويطل على ما حوله من خلال حاجبيه المقطبين أبدا ٠٠ فيما كان صوت زفيره يرتفع وينخفض محدثا ضجة مقرقعة ٠

وخطر للبائع أن يقضي حاجة البنت أولا ، وكان يبدو عليها أنها ظلت واقفة منذ الامس ، ولا يعلم الا الله الى متى ستبقى واقفة اذا لم تـُقض حاجتها ٠ صاح بها صاحب الدكان :

ـ ها يا بنت أبي الجحشات ٠٠ ماذا جئت تشترين ؟٠

وقد لـُقب شحادة المحمد بهذا اللقب بعد وفاة زوجتـه ، ومدت البنت يدها بالبيضة ٠ وعاد البائع يصيح بها :

ـ حلاوة أم تمر ؟٠

فمدت يدها الاخرى بالصفيحة ٠ وسأل البائع :

ـ زيت حلو ؟٠

وغمغمت البنت بشيء لم يفهم ٠ ولكن الرجل رفع الصفيحة الى أنفه ثم قال :

ـ قولي زيت كاز يا أميرة ؟ هل ضاع لسانك أيضا ؟٠

وعندما انتبهت البنت الى أن يديها أصبحتا طليقتين ، رفعتهما الى رأسها وراحت تهرشه بأصابعها العشر · وصرخ بها البائع :

ـ هـي ·· كفى ·· زرعت الارض قملا يا بنت ستين كلبا ··

وحملت البنت صفيحتها بيد ونقلت اليد الاخرى الى صدرها تستأنف الهرش وهي تستدير خارجة ، ويبدو أن البائع أخطأ بارجاع الفائض من الكاز ، فسكبه في صفيحة أخرى لربما تكون صفيحة الدبس ، لانه راح يشتم البنت بسباب ناب لا يليق بموسس ··

• • •

(٩)

أنهى أبو مسعود حشو غليونــه الضخم بحركات وئيدة ، ونفض كفيه اليابسين المعروقين ثم عاد الى ربط الصرة في عناية ، وأعادها الى مكانها في رأس العصا ٠ وانتصب الشاب سالم قائلا :

ـ هيه أبا مسعود ، احك لنا كيف سرقت العنزات من مضارب عشيرة الاخرصة ٠٠

بينما كان صاحب الدكان يبحث في زوايا صناديقه عن دواء جدعان الذي بدا نافد الصبر ، فيفتح ورقة مصرورة كالكرة ثم يطويها ليفتح غيرها من جديد ٠ وهز البدوي رأسه الشبحي الداكن ، وكأنه يتعفف عن سرد قصة بالية رُدّدت كثيرا حتى فقدت جدتها ٠ وقال نايف :

ـ لا ٠٠ قصة العنزات قديمة ، احك لنا كيف ذبحت التاجر ٠٠

وحوّل البدوي رأسه يمنة ويسرة ثم دوّره في الفراغ ، ويبدو أنه ابتسم لان شعر شاربيه راح يتخلص من التشابك مع شعر لحيته ، وقال بصوت أجش عميق وكأنه يتكلم من بطنه :

ـ التاجر ؟ هـا ٠٠ سقا الله ٠٠ ظن بأنه شاطر ويقدر يضحك على بدوي ٠ هـا هـا ٠٠

وأمسك بغليونه الذي لم يشتعل بعد وراح يتأمله من خلال حاجبيه المفروشين على عرض جبينه ، وكأنه يستمد منه العون على التذكر ، وغرغر بصوت كصوت الجمل :

ـ سحقت رأسه بالحجر كما يفعل الصبي بحرباء · هوْ هــوْ هــوْ ··

وهتف نايف بانشراح :

ـ اوخخخ ·· كيف ؟ اسرد لنا بالتفصيل ··

وجلس الشابان على مؤخرتيهما وقد لذّ لهما سماع القصة ، بينما انتحى جدعان ناحية ليفسح المجال أمام الساهرين ليسمروا جيدا ، وما برح البائع ينقب في خليطه المتنافر · وقال البدوي :

ـ كنت أرعى شلية غنم ··

واستلّ من وسطه أنبوبا من خشب السنديان في طول ذراع آدخل في نهايته مبسم الغليون ورصه جيدا ·

ـ فلمحت على البعد قادما يركب حمارا ، ظننت في البداية أنه أحد الغنّامين جاء يتفقد دوابه ، وبقيت أتابعه بنظري حتى اقترب ··

وأدخل اصبعه في فتحة الغليون وراح يضغط الحشوة ويمهدها في حرص ·

ـ وعندما أصبح على مرمى حجر عرفت أنه شخص غريب ، فكمنت وراء صخرة وجررت معي الكلب حتى لا يفترسه · وحين وصل الى الغنم توقف وراح يلتفت يمينا وشمالا ثم نزل عن حماره ···

وضع الانبوبة على الارض وفتح صدر عباءته وأدخل يده يبحث عن شيء · وكان يتوقف عن الحديث لدى كل حركة يقوم بها ، وكأن حواسه كلها تعمل معه ، لم يكن مهتما بسرد القصة بقدر ما كان حريصا على تهيئة الغليون · كان يتكلم بهدوء عجيب وكأنه يزن كل حرف يتفوه به ، وعلى الاغلب ما كانت الحروف تخرج من فمه المخبأ ، وكانت الكلمة تجد صعوبة كبيرة في التخلص من شاربيه المعرّشين على وجهه كدالية كرمة ·

ـ واقترب من أحد الخراف ثم حمله ليزنه بين ساعديه · كنت مختبئا بعيدا عنه ، وكنت أراه دون أن يراني ·· وكنت أهدّىء الكلب وأمنعه عن النباح في صعوبة · وكنت أقول في نفسي : ماذا يريد هذا المخلوق الاجرب ؟· لمحت فيه أنه ليس فلاحا وان كان يضع على رأسه عقالا ، كان يلبس ملابس أهل المدن وفي قدميه نعل جديد ··

وسحب يده من صدره وفي كفه أشياء صفتها على الارض · كانت قطعة حديد ثقيلة بحجم اصبعين وحجر صوان وخرقة بالية الخيوط ·

ـ قلت في نفسي : والله ان هذا النعل يساوي جملا ، وهذا الذي يلبسونه أهل المدن ماذا يقولون له ؟·

ورد نايف : قمباز ·

ـ قنباز ·· سوّد الله وجوههم هم وأسماءهم ·· قنباز وفوقه بترة ، وكانت هذه الكسوة تلبسني عشرين سنة ··

وضع الخرقة فوق حجر الصوان وترك طرفها بارزا ، وأمسكها بين ابهامه وسبابته في يد وأمسك الحديدة باليد الاخرى بالطريقة نفسها ، وتوقفت يداه متابعا سرد قصته :

ـ قلت لنفسي : لأصبر وأرى ماذا سيفعل هذا الغشيم المسكين ، وكان قد ترك الخروف الثاني وأخذ يلاحق الثالث والكلب بين ساعدي أصبح مستفزا كالوحش ، فأمسك به ووزنه كما فعل بالاثنين الاولين · ثم راح يتلفت حوله صائحا بلهجته المطوطة والمضحكة كثيرا : وين الراعي ى ى ى ى وين الراعي ى ى ى ى ···

وضحك الرجال ، وقال البائع : وجدت لك القرفة يا جدعان وسابحث لك عن الباقي · وتابع البدوي ممسكا بزناده لا يقدحه :

ـ وزمجر الكلب وكاد أن ينفلت مني لولا أن رحت أخنقه من عنقه ، فالكلب موجود كل لحظة أما هذا الصيد الثمين فلا يأتي الا في المواسم ·· اهؤ اهؤ اهؤ ···

ورفع قطع الزناد الى حاجبيه ثم أنزلها وتابع :

ـ ورأيت التاجر يقف منتظرا أن يسمع اجابة وهو يستند على ظهر حماره · كان حمارا ناصحا أبيض نظيفا وعليه مركوب فاخر ، يتدلّى على جانبيه خرج ممتلىء بما لا يعلمه الا رب السماء ·

وفجأة رفع يده التي تمسك بالحديدة وطرقها بيده التي تمسك بالحجرة فتصاعدت عدة شرارات دون أن تعلق احداها بالخرقة ، وتوقف رافعا وجهه الشائك متابعا :

ـ وعندما قنط التاجر من العثور على الراعي ساق حماره وأراد أن يمضي ، ولكن ما ان ابتعد قليلا حتى انتصبت أمام وجهه ، فأجفل ، وهجم عليه الكلب فمنعته من ايذائه ، لان ذلك الحرامي في الظل يجب أن يكون من نصيبي ، وأنا أسمّي كل تاجر حرامي في الظل لانه لا يعرف كيف يسرق في ضوء الشمس بل يسرق تحت السقف ٠

وقدح الزناد من جديد ففشلت الخرقة في التقاط الشرر المتطاير ، وأهاب البائع الذي ما زال منشغلا بالتنقيب عن الدواء دونَ أن تفوته المشاركة في سماع القصة ـ أهاب بالبدوي أن يأخذ كبريتا ليشعل الغليون ، غير أن البدوي أخرج صوتا ساخرا من حلقومه : كبريت ؟ ما هذا الكبريت اللعين ؟ هل تريد أن تفسدني بكبريتك ؟ لا يا ابن عمي ٠٠ هذه هي ناري وبها أحرق الاخضر واليابس ٠

وصاح سالم : اتركه لا تقاطعه ٠٠ هم وبعد ذلك ؟٠٠

ـ وبعد ذلك أجفل التاجر ورفع رأسه الصغير الى الاعلى ونظر الى عصاي هذه في خوف ٠

ووضع أبو مسعود زناده على الارض ، وتناول العصا السنديانية الغلظة التي يمتد على طولها شق عريض يزيد في قوتها ومفعولها ٠ كانت عمودا غليظا بطول ثلاثة أذرع ، مليئة بالعقد ، تنتهي برأس ضخم كالحشفة مسلح بالمسامير ، يكفي أن تحط على جسد ثور لتحطم ضلعا أو أكثر من ضلوعه ، ويبدو أنها عاصرت حاملها ما لا يقل عن ستين عاما ، قتل بها عددا لا يحصى من الافاعي والزواحف وطرد بها كثيرا من الذئاب والوحوش الضارية ٠

ـ صحت فيه : لماذا تسرق الخراف يا ول ٠٠؟ فأجاب في صفاقة دون أن يخفي اضطرابه : أنا تاجر خراف ياحبّوب ولست لصا٠٠ أريد أن أشتري٠٠ وأجبته بنفس لهجته الممطوطة المائعة : تاجر خرااااف ٠٠ وهل تراني أنا صاحب هذه الخرااااف يا واوي ٠؟ وعلى كل حال أرني ما في هذا الخرج ٠ وتلكأ قبل أن يجيب : ان فيها زاده خبز وبيض ومشمش ٠ قلت له : أرني كيف يكون هذا المشمش ٠ وكنت قد سمعت به ولا أعرفه ، فمد يده الى الخرج وسحب بعض الكرات الحمراء وناولني اياها ٠ صحت فيه : كل أنت لأرى ٠٠ فابتلع واحدة ثم تفل شيئا أسود ٠ فأخذت منه بضع حبات والتهمتها ولكني لم أجد فيها ما يتفل ، قلت في نفسي : هذا التاجر يغشني ٠٠

وقال نايف : ان هذا مشمش كلابي يا أبا مسعود وله بزر لا يؤكل ٠

ـ وأنا ما يدريني بهذا الزاد الذي لا يشبع ولا يغني عن جوع ، لقد ابتلعتها كلها وتركت في حلقي طعما مرّا ٠٠

وتناول زناده من جديد وهيّأه للقدح ٠

ـ سألته : وماذا تحمل أيضا ؟ فتلعثم وراح يتلفت حوله مرتابا ٠

وقدح الزناد في قوة ، فالتقطت خيوط الخرقة احدى الشرارات ، فقربها من شاربيه وراح ينفخ فيها ، وسرت النار شيئا فشيئا وبدأت الخرقة تتوقد ، بينما تصاعدت من لحيته أدخنة ذات رائحة كريهة ٠ وصاح نايف وسالم وجدعان : النار ٠٠ النار في لحيتك ٠٠ ولكن البدوي هز رأسه في برود وكأنه يقول : لا بأس مستطفأ من تلقاء نفسها لا تخافوا ٠٠ ورفع الخرقة المدخنة بين أصابعه واستطرد :

ـ قلت له : اطمئن ان أقرب بيت شعر اليك يبعد أكثر من ساعتين ولن يسمعك أو يراك أحد في هذا الوعر ، لذلك ـ ودنوت منه ـ انزع هذا النعل وهذه السترة فأنا بحاجة اليها ٠٠

وكان جزء من الخرقة قد تجمّر بين أصابعه ، فوضعه في فتحة الغليون ، وغرس ذيل الانبوبة في شعر شاربيه وراح يمتص ، بينما أخذ الدخان يعشش في غابة وجهه الكثيفة ٠ يتصاعد من تلافيف أغصانها الغزيرة ضباب واطيء بارد مضغوط حجب نصفه العلوي عن النظر ، وسحب الانبوبة بعد لحظات ومسح مبسمها ببطن كفه ٠

ـ وبما اني طمأنته بألاّ فائدة من طلب النجدة فقد قفز فجأة على ظهر حماره كالجرو وأراد الهرب ، وكان الكلب يفهم أكثر منه ، اذ سرعان ما وثب الى ظهره وأنشب مخالبه في كتفيه والقاه أرضا ٠٠

ورفع الانبوبة الى فمه وراح يمتص الدخان في شراهة ، ولبث صامتا برهة طويلة ٠ وقال البائع لجدعان :

ـ وجدت لك القرفة والزنجبيل فقط ، ولا أريد أن أغشك فأنا لا أعرف الباقي ، اعطها هذا أولا واذا لم تشف أحضر لك الباقي من المزرعة ٠

وسأل جدعان :

ـ أيصح أن تأخذ الدواء على دفعتين ؟٠

فرد البائع :

ـ اسأل الفقير ٠ وأنا أظن ألا مانع اتكل على الله ٠٠ وسلم أمرك الى الله وعليه الشفاء ٠

وحمل جدعان ورقتين مصرورتين وهم بالمضي ، ولكن نايف أهاب به أن ينتظر لسماع بقية الرواية ، وسأل جدعان : أي رواية ؟ فبدا أنه لم يكن يستمع الى قصة البدوي بل كان غارقا مع أفكاره في مكان آخر ٠ فعاد ينتحي مكانه لغاية لم يدركها ، ولم يكن مرغما على البقاء ٠

وكان البدوي ما زال مقرفصا صامتا ، تغشاه سحابة قاتمة من دخان غليونه المتوقد ٠ ولكنه أفاق فجأة على صوت نايف :

ـ ايه يا أبا مسعود ٠٠ وبعد ذلك ؟٠٠

ولو استطاع الانسان أن يقرأ صفحة وجهه في ذلك الحين للمح عليها ظلالا عكرة من الحزن ، فقد كان يستعرض ذكرى لربما أصبحت مؤلمة غاية الايلام ٠ وأجاب في لهجة حانية يشوبها أسى عميق :

ـ وفطس الكلب ٠٠

وهتف الجميع ، ما عدا جدعان الذي وقف لا يدري ما يفعل :

ـ كيف فطس ؟٠

ـ عندما سقط التاجر عن حماره وجثم الكلب فوقه ، سمعت صوتا مكتوما وقع الكلب على الاثر مضرجا بالدماء ، كان أخي وأفضل من كل عشيرتي ٠٠

وعاد الى امتصاص دخان الغليون في شراهة ٠ وسأل سالم :

ـ وبعد ذلك ؟٠

ـ لا شيء ٠٠ اقتربت من التاجر وكانت في يده تلك اللعبة الوسخة السوداء ، فصوبها الى صدري وقال لي : لا تقترب مني أقوسك ٠٠ ولكني أمسكت به من عنقه وجررته ، ثم أحنيت رأسه على الارض وسحقتها بالحجر ٠٠

ـ وما قوسك ؟٠

ـ آ ٠٠ بلى ٠٠ رمية ، أحسست بوخزها في الليل هنا ٠٠

وكشف عن صدره الذي لم يظهر فيه غير نبات كتاني متجعد غطى الجلد كله ٠

ـ والدراهم ؟ أما وجدت معه دراهم ؟٠

ـ دراهم ؟٠ لا أدري ٠٠ وجدت في جيوبه أوراقا دفنتها في الارض وما تزال حتى الآن ٠

وسأل البائع متلهفا :

ـ ومتى كانت الحادثة ؟ هل تعرف المكان ؟٠

ورد الراعي بعد قليل من التفكير :

ـ حدثت القضية بعد ما مات الشيخ طلال أبو سليمان بأيام على ما أظن ٠

وحسب نايف الزمن ـ صارلها القضية أكثر من عشر سنوات ٠٠ ألم يسألك أحد عن الحادث ؟٠

ـ والله جاء الدرك بعد مدة واستجوبوا كل العربان ، وحين جاء دوري تظاهرت بالصمم ٠٠ وانتهى الامر ٠٠

وانطفأ غليون الراعي ، فأمال فوهته على الارض وطرقها عدة طرقات فلم يتساقط منه غير قليل من الرماد ، أما القسم الاكبر منه فقد ابتلعه مع الدخان ٠ ثم نزع الغليون من قصبته وأعاد كل شيء الى مكانه ، وراح يطوي صرته في عناية فائقة ، وبعد أن علقها في ذيل العصا استقام بالتدريج حتى ملأ شبحه فراغ المكان ، وسأله نايف على حين غرة :

ـ من أين قادم يا رجل ؟٠

وأشار الراعي بذقنه :

ـ من الغرب ، من أراضي الجولان ٠ سريت من هناك العصر ٠٠

ـ أما التقيت في الطريق بشيخ ضائع ؟

ولم يفهم البدوي هذا السؤال ، وبعد شرح قصير ، أجاب :

ـ التقيت بكثير من الفلاحين وما قال واحد منهم بأنه ضائع ٠ و ٠٠

وهنا اقترب الراعي من جدعان وتفرّسه مليئاً بعينيه ثم سأل :

ـ أما أنت قاروط عبد الله الجدعان ؟٠

فأجاب جدعان بهمهمة موافقا ٠ قال الراعي :

ـ ومزنة كيف حال عينيها ؟٠٠ سألتني مرة عن دواء لها فوصفت لها روث بقرة حامل ٠

ورد جدعان في اختصار :

ـ عميت منذ زمن طويل ٠٠

وارتجفت لحية البدوي قائلا :

ـ زين ٠٠ المهم أن تظل حيّة ٠٠

وقال سالم :

ـ صف لنا الآن دواء لأخته فرحة عسى أن تريحها أيضا من هـذه الدنيـا ٠

وتطلع جدعان الى المتكلم بعينين حمراوين وزاحم ليخرج ، ولكن البدوي استوقفه سائلا :

ـ أختك ؟٠ وهل لك أخت من أبيك ؟٠٠ مالها ؟٠

وضحك الرجال لهذه اللمزة ، مما زاد في حرج جدعان ورغبته في الهرب ٠ وسد الراعي الطريق دونه ٠ وشرح له نايف علتها مشوّهة مضافا اليها كثيرا من التفاصيل ٠ وهتف البدوي قائلا :

ـ علاجها بسيط ٠٠ فقد حدث لابنة عند العرب مثلها عندما حاول أحد الدرك ! ٠٠٠

وابتلع العبارة دون أن يتمها ٠ وسأل جدعان في اهتمام :

ـ هل يمكن شفاؤها ؟ كيف ؟٠٠

ـ خذني اليها لأراها أولا ٠٠ هل اعتدى عليها أحد ؟٠

وقال سالم :

ـ عمها الضائع هو الذي اعتدى عليها ٠٠

وصرخ جدعان مستشيطا :

ـ اخرس يا ٠٠٠ أحسن ما أذبحك يا ٠٠

ودفعه البدوي أمامه قبل أن يتم شتيمته ، في حين صرخ البائع :

ـ سأقيد عليك كيس حنطة ثمن الادوية ٠٠٠

• • •

انحنى البدوي فوق فرحة بهامته المديدة وراح يفحصها في خشونة ٠ وقال في نفسه : « حالة ساقيها مفهومة أما اختلاط وجهها فما هو سببه ؟ وعلى كل حال فلنجرب ٠٠ أما والله من فعل فيها هذا لهو ذكر خبير ٠٠ » وكان سالم عندما اتهم عمها بالاعتداء عليها لم يكن يقصد نوع العدوان الـذي فهمه جدعان أو البدوي ، فما زالت قضية الاغتصاب مسألة لا يصدقها غير أمينة والراسخين بالعلم ٠

ورفع البدوي رأسه وسأل جدعان :

ـ أما يوجد لديكم قدر كبير يتسع لعجل أو خلافه ؟٠

وارتعد الشاب غير مصدق أذنيه ، واستفسر :

ـ قدر ؟٠ كبير ؟٠٠

ورد الراعي في هدوء الحكماء :

ـ ايه ٠٠ قدر كبير يبتلعها حتى رأسها ٠٠

والتفت حوله باحثا علـه يعثر على ذلك القدر ٠ ووقعت عيناه على فهدة التي استيقظت ونهضت خلسة :

ـ ما هـذا الغراب الاعرج في منتصف الليل ؟ ظننتها مزنة ، أيـن العجوز اذن ؟٠

وردت المرأة ، وكانت تقف في منتصف الحجرة نائمة تقريبا ، تكاد لا تسمع أو تعي ما يدور حولها :

ـ عمتي نائمة ..

قال جدعان :

ـ اريد أن أعرف بالدقة عما تريده يا شيخ مسعود ..

وصرخ الراعي في نفاد صبر :

ـ ألم تسمع يا مقطوع الرزق ؟ أريد أن أغليها على النار ، هذا ما يلزم لشفائها ..

وطوّح جدعان بساعديه في الهواء ساخطا :

ـ لا يا عمي .. خير الله ولا خيرك .. ها هو الدواء سأسحقه بين حجرين وأطعمها اياه .. كيف نغليها على النار ..؟ هل هي عنز مذبوحة ؟.

وانبعث من صدر الراعي خرير شيطاني ظل جدعان وزوجته ينتظران طويلا حتى عرفا أنه كان يضحك . ومسح شاربيه وقال معاتبا :

ـ انكم فلاحون لا فائدة منكم ، وستظلون هكذا طول حياتكم حميرا لا تفقهون شيئا .. أنت تعتقد أن هذا الدواء النفاية سيعافي هذه القاروطة وان هو الا قطعة من الوحل اليابس وستدفع ثمنه كيسا من الحنطة . آه يا قرن الثور لو كنت تفهم .. أبول على لحية مَن وصفه لك ولو كان أياً كان .. قلت لك ان صبيّة من عندنا أصيبت بمثل هذه العاهة وقد شفيتها ألا تصدق ؟. انها الآن تجري كالكلاب بعد أن غليتها على النار . فجلد البقرة اليابس ضعه في الماء الساخن يصبح طرياً .. أليس هذا صحيحا يا جحش مقطوع الذنب ؟.

اقتنع جدعان بهذا المثل ولكنه لم يهضم فكرة طبخ أخته على النار ، فهي اذا لم تمت يهترىء جلدها وتصبح مشوهة لا يرضى بها ولا عزرائيل . ولكن البدوي يدعي بأنه شفى حالة مماثلة فهل يكذب؟ انه يعرف أن البدو لا يكذبون، فهم يقتلون ويسرقون ويقطعون السابلة ولكنهم يأنفون الكذب . وفكّر قليلا ، وأراد أن يجرب ما يسمونه المقامرة . أمامه الآن ورقة واحدة وهو الذي خسر كثيرا ، فاما أن يسترد كل شيء أو يضيع كل شيء .

كان جدعان العبد الله لا يعرف المقامرة ، فليس في حياته السابقة ما يقامر

به ٠ لم يكن يملك رصيدا ، وكانت حياته خالية من الضجيج ، صحيح أنها حياة تعيسة وشاقة ، ولكنها تسير في شقائها سيرا رفيقا هينا تستنفد روحه قطرة وراء قطرة ٠ كانت أيامه خالية من الهزات ومن كل ما يجعله يقف على حافة الهاوية لانه يعيش في القعر ، فليس هناك أدنى مما هو موجود فيه ليسقط ٠ أما الآن فانه يجد نفسه في موقف من أحرج المواقف التي لم تكن لتخطر له على بال : ماذا لو سلخ جلد البنت عن لحمها ؟ وبركت في ركن الحجرة تنز دما وقيحا ثم تفتح فمها لتأكل وتحمل لتقضي حاجاتها الجسدية ، ويتراكم فوقها الذباب كجيفة منتنة ؟٠ يجب أن يرفض هذه الفكرة ٠ فها هو ذا الدواء٠٠ ولكن البائع قال ان الدواء ناقص ومعنى هذا ان شفاءها به غير مضمون ، هل ينتظر أياما وشهورا تاركا البنت في هذه الحالة ، أم يسلّم أمرها الى هذا الجلاّد الذي لا يعرف قلبه الرحمة ؟٠ ستضيع فهدة من يده مع الدواب والحنطة ، وسيذهب كل شيء هباء منثورا ٠ وأحس بحرقة تتفاعل في حلقه ، وبندى يخضل عينيه ، ياالله هل يبكي ؟٠ وكاد يتهاوى لولا أن صاح جازما :

ـ أبا مسعود ٠٠ اني وضعت البنت بين يديك افعل ما تشاء وسلّمت أمري الى الله ٠٠

وتهيأ البدوي للعمل ، وكان يبدو متلهفا الى البدء ، وألقى نظرة على المكان ثم هتف :

ـ أنت يا غراب أعرج ٠٠ من أنت أولا ٠٠ ولكن لا يهم ، اذهبي وأوقدي النـار ٠٠

والتفت الى جدعان :

ـ أما تزال خائفا أيها القاروط ؟٠ لا لا تخف (وتحسس ساقيها) فجلدها متين ما شاء الله ٠

وفكّر في ذات نفسه : ترى هل استسلمت بعد تلك المعركة الضارية التي تركت هذه الآثار الرهيبة ؟ أم أنها لا تزال بكرا ؟٠٠ مسكينة هذه البنت ، فقد تذبح حال شفائها ذبح النعاج ٠ ثم نادى :

ـ وأين القدر يا جدعان ؟

وردّ الشاب ضاغطا على صدره :

ـ أظن يوجد لدينا في الحوش برميل أو جزء منه قد يصلح لذلك سأريك ايـاه ٠٠

وغمغم وهو يخرج : الله يقدّم الذي فيه الخير ٠٠ يا ربي أنا داخل عليك لا تخزيني ٠

وتناول البدوي الفتاة المتهالكة بين ساعديه ، وبما أنها خمّنت أن أمامها فصولا طويلة من التعذيب ، وأنها لا تستطيع مقاومة ، وأدركت أن لا فائدة ترجى من الصراخ ، فقد أغمضت عينيها واستسلمت الى الرؤوف الرحيم ٠٠ ولكنها فعلت كما تفعل الدودة بين يدي طفل شرس لتوهمه أنها ميتة فيكف عن ايذائها ، راحت تطاوع يديه المقدودتين اليابستين كالحطب ٠

وفحص البدوي في بادىء الامر وجهها وفمها في كثير من الجلافة ، وحاول ارجاع فكها السفلي الى وضعه بالضغط الشديد ففشل ، وأخذ يرد عـلى أنينها المتقطع بحشرجة مماثلة ، وكأنه يتهكم على توجعها ولا يصدقه ٠ وسُمعت في فناء الدار قرقعة صاخبة ، ودخل جدعان يجر وراءه نصف برميل صدىء مثقب ، وهتف البدوي :

ـ أوه ٠٠ زين زين ٠٠ ان هذا ما يجب أن يكون ٠٠ هيا املأوه ماء ، أين غرابك هذا ؟ من هي ؟ من تكون ؟٠

ولسبب ما ، خشي انْ صرح بأنها زوجته أن تنتزعها منه قوة مجهولة ٠ لذا أجاب :

ـ انها ابنة عمي وقد ذهبت لتشعل الفرن ٠٠ أنا أملأ البرميل ٠٠

وحمل الوعاء الكبـير وذهب في الليل الذي اقترّب من منتصفه الى البركة ٠

ففي شرق القرية ، وعلى مسافة حوالي خمسمائة خطوة من آخر بيوتها يوجد ما يسمونه البركة ٠ وهي حفرة طبيعية ، كبيرة واسعة وعميقة ، تنحصر بين أحجار ضخمة خشنة سوداء كانت في عصر ما كتلا من جبال ، تصب فيها مسـايل الميـاه المتشكلة من هطول المطر في السنين الخيّرة ، يقل ماؤها شـيئا

فشيئا كلما اقترب الشتاء حتى تصبح في رأس السنة طينا لازبا · واضطر جدعان أن ينحدر فوق جدار الصخور على ثلاث ، وفي الرابعة كان يحمل البرميل · كانت البركة في ذلك الوقت قد أشرفت على النفاد فصارت كالبئر ، ولم يتبق في قعرها غير قليل من الماء الموحل ، غمس فيه وعاءه ثم أوقفه ، وتحسس جداره في الظلام فوجده لم يمتلىء حتى ربعه ، فخاض في الماء وراح يكمل ملأه بكفيه ·

وفي منتصف ليلة كئيبة من ليالي أواخر تشرين الثاني ، كان الفلاح الشاب جدعان العبد الله يتسلق جدارا صخريا أسود ، متأنيا محاذرا ، على كتفه يتقلقل وعاء ضخم مليء بالماء العكر ، يمسك حافته بيد وتتشبث أصابع يده الثانية مع أظافر قدميه في ثقوب الصخور المنخورة · وفجأة رفع رأسه الى الأعلى ثم غاب عن الوعي ، افتقد نفسه كلية ·· أضاع رشده دفعة واحدة ·

وهو في جوف الارض ، شاهد السماء البراقة تتغامز على صفحتها الابنوسية ما لا يحصى من النجوم ، فأغمض عينيه – وهو في وضعيته تلك – وتوقف عن الصعود ، معلقا هكذا بين السماء وأسفل السافلين ، يهصره وينقض ظهره ثقل البرميل المتأرجح · وفي أعمق أعماقه وبدون أن يتدخل سمع صوتا رهيبا غاضبا يهدر مخاطبا اياه :

« من أنت ؟ من تكون في الحقيقة ؟ هل أنت جدعان العبد الله كما أنت الآن في هذا الزمان والمكان ، كيف ، ولماذا ··؟ أراك تتعذب ؟ فمن يعذبك ؟ من الذي فرض عليك هذا العمل الجنوني وفي مثل هذا الوقت ؟ ومن أجل أي شيء ؟ هل صحيح أنك تمزقت حتى ملأت البرميل وتتمزق في هذا الصعود لكي تطبخ أختك فيه وهي حية ؟ لماذا تشقى أنت واختك وأمك وأبوك من قبلكم وزوجتك ؟ لماذا يشقى أبوها ايضا وأمها و ·· كلكم ، كل أبناء القرية ؟ كل الفلاحين ؟ ما هي تلك القوة المجهولة اللعينة التي تسحقكم ؟ تلك الايدي الخبيثة غير المنظورة التي تفتتكم وتعصركم وتمضغكم ثم تبصقكم في قرف ·· لماذا لا تملكون أيامكم ؟ ولماذا تعيشون دائما في خوف ورجاء ، لا أمان ليومكم ولا لغدكم ··؟ لماذا لا يكون خبزكم الذي تكدحون في سبيله طول السنين من نصيبكم ؟ انكم ترهبون الحياة كما ترهبون الموت ثم تفطسون كالصيصان بدون ضجة وبدون أن تتركوا حتى قبورا ·· هل الناس كلهم يعيشون هكذا مثلكم يشقون تحت هذه السماء ؟ ان هناك آخرين

يحيون حياة سعيدة بلا شقاء ، ولهم سماؤهم وحدهم ·· هل هناك سماءان ، سماء للاشقياء وسماء للسعداء ، أم أن البشر كلهم يعيشون تحت سماء واحدة ؟ وما داموا كلهم يعيشون تحت سماء واحدة فلماذا يشقى بعضهم ويسعد بعضهم الآخر ؟ انك تقول في نفسك من هذا الذي يخاطبني ؟ لا شك أنه كافر لا يؤمن بالله ، والحقيقة أنه أنت ·· أنت نفسك تتكلم ·· انظر ·· انظر الى السماء » ·

ولم يدرك كم من الوقت مضى حين أفاق جدعان من (صحوه) · ورفع عينيه الى القبة الزرقاء ، فتسمرتا في المدى العلوي على شبح أسود شاهق يخفق الهواء بثوبه المتهدل ، وسمع صوتا هادئا حنونا كأنه صادر من السماء الطيبة :

ـ جدعاااااان ···

ووجد عند رأسه قدمين حافيتين رماديتين ، صغيرتين ولكن متورمتين ، انه يعرفهما جيدا بأظافرهما الطويلة المتكسرة ، وأحس بالثقل يرتفع عن كاهله ، وبعد برهة شعر بيدين قويتين تمسكان به من تحت ابطيه ثم تجرانه · وانساب الى أذنيه الصوت الدافيء :

ـ جدعان مالك ياخويا ··؟ مالك؟·

وصاحت فهدة بذعر :

ـ يا ربي ·· : أتبكي يا جدعان ··؟ يا حيف يا حيف ·· ماذا جرى لك ؟ كان يجب أن تنتظرني لأملأه لك ، كنت أشعل الفرن ، جدعان ··

وانحنت فوقه ـ وكانت قد انتشلته الى الحافة ـ تعانقه بساعديها وتهدهده كطفل ، ثم قربت طرف ثوبها من أنفه وقالت له :

ـ هيا تمخط ··

ورفع رأسه ، وقربت وجهها من وجهه ، فالتقت عيناهما في الظلام، فأحسا معا وفي آن واحد ، بأن كلا منهما ضروري للآخر ضرورة الجلد للعظم ، ولن تستطيع قوة مهما كانت جائرة وظالمة أن تفرق بينهما الا اذا كانت أقوى من الاله الجبار ·· ورفعت فهدة البرميل الى رأسها محاذرة أن يسقط

منه ماء ، ولكنه كان ينزف من أسفله وجوانبه على راسها وكتفيها ، فلم تعبأ ، وأمسكت جدعان من يده وسارت • وقال جدعان وهو يخطو الى جانبها :

ـ فهدة •• لا أدري ما جرى لي ، هناك ، وأنا أتسلق البركة •• لم أكن متعبا ، ولكن •• لا ادري ••

وصمت برهة وهو يجاري خطواتها المسرعة :

ـ فهـدة ••

ـ يا عونك ••

ـ أبكيت حقا ؟ هل رايتيني أبكي ؟••

ـ لا يا جدعان •• ولكن خُيِّل لي ذلك ••

ـ أنا لم أبك في حياتي كلها •• أنا خجول منك و •• من نفسي •• ولقد بكيت هذه المرة ••

ـ لا يا جدعان •• الرجال لا يبكون من أشياء صغيرة كهذه ••

ـ لا •• انت تعرفين أني بكيت ، ولكنك تخبئين عني ذلك •• لا تقولي الى أحد •• هـا ••

وراح يتعثر مسرعا الى جوارها :

ـ لم أبك •• هل بكيت حقا ؟ فهدة ••

ـ يا عونـك ••

ـ هل كنت تنتظرين طويلا هناك ؟ هل كنت واقفة منذ زمن طويل ؟ متى أتيت ؟ قولي لي ماذا سمعت ؟ هل سمعت صوتا غريبا يخاطبني ؟•

لم تجب ، وكان حفيف ثوبها بين ساقيها وحده يتشدق •

وقال جدعان بصوت أجش مخنوق وهو يسحب يده من تحت ابطها :

ـ لم أكن موجودا •• لم أحس بنفسي •• هل رايت أنت أحدا ••؟ أما سمعت صوتا هكذا لا أدري كيف شكله ؟ أجيبي بحياة أمك ••

وردت المرأة وراسها ينهصر تحت ثقل البرميل :

ـ اترك لي يدك يا جدعان لأتوكأ عليها ٠٠ وكفاك صراخا لقد وصلنا ٠٠

ووسط السكون والظلام لم يسمع غير اصطفاق ثوبها المبلل ٠ وما ان دخل الزوجان الى حوش الدار حتى سمعا غطيط البدوي يعكر صفو سكون الليل المدبر ٠ ولم يكن ايقاظه صعبا ، فقد أفاق بنفسه ، وجأر من بين شاربيه :

ـ هل حضر الماء ؟ زين ٠٠ ولكن لماذا تأخرتما ؟٠

كان مستلقيا على الارض تختلط قدماه الحجريتان بأطراف الفتاة المتماوتة ، والتي تنبعث منها رائحة دافئة ٠ وقد شغل جسده الضخم طول المكان وعرضه ، بينما كان ضوء السراج يطرف في فضول وكأنه يقاوم النعاس ليشهد حفلة مثيرة ٠ واستقام البدوي فجأة وفي حمية ، وراح يقيس حجم البرميل وحجم البنت بعينيه البارقتين بريقا رهيبا ، وبعق :

ـ ولكم ما لكم ٠٠؟ الله يخزيكم ٠٠؟ أنت جدعان مالك ؟ انظر هنا ٠٠ ألا تزال خائفا ؟ أنا أكلمك ٠٠

ووجه الحديث الى فهدة :

ـ تعالي أنت ٠٠ ولو كنت غرابا فانك أفضل منه ، فهو غير صالح الى شيء ٠٠ أعطني حبلا ٠٠

ولما لم يتحرك أحد منهما ، استشاط البدوي غضبا ، ونزع الحبل الذي يحتزم به ، وجثم فوق البنت يقيد يديها وكتفيها مبربرا بسخط :

ـ فئران لا أكثر ٠٠ الخوف قاطع قلوبكم ٠٠ تعالي يا ابنة الزنا ، لا تخافي ، من حسن الطالع أنك خرساء ، وأنا لا أخاف الا من لسان النساء لانه أسوأ شيء فيهن ٠٠ لعنة الله على حواء ٠

وحين انتهى من حزم نصف البنت العلوي بثوبها وعصبة رأسها استقام فانكشف جسده من الامام عاريا بسوءاته ، ولكنه لم يعبأ ، بل حمل اللفة الطويلة وأسقطها في البرميل ، فانطلق منها عواء مكظوم ، في حين فاض الماء الموحل من جوانب الوعاء وأغرق الارض ٠

وصرخت فهدة في حيرة :

ـ ماذا ينوي أن يفعل يا ربي ؟٠

وألم السؤال جدعان ألما بالغا ورد متحسرا :

ـ ألم تفهمي بعد ؟ أين كنت بالله عليك ؟ لماذا أوقدت النار وجلبت الماء اذن ؟٠٠ هل أصبحت مثلي لا تفهمين شيئا ، كالبقرة التي تضحك من سكين الجزار ؟٠٠

وانفتل مقهورا ثائرا :

ـ اتركيني سأغادر هذه القرية ٠٠ بل هذه الدنيا كلها ٠

ولكن فهدة تعلقت بساعده وجرّته الى الخارج وهو ينشج بصوت مرتفع ٠ وخلا الجو للبدوي العنيد ٠ فانحنى فوق البرميل الذي كان يجمع محتويات غريبة ، ورفعه بهينة الى صدره ، وخرج به الى الخلاء جاعرا ، مبددا صفو السكون :

ـ أينكم يا وطاويط الليل ٠٠؟ يا صراصير ٠٠ دلّوني الى الفـرن يا خنافس ٠٠

كان الجسد يتخبط في المـاء البـارد ، والـرأس بعصبته الكبيرة يمتط ويهتز ، تصدر عنه غرغرة كئيبة وهو يكافح ليتخلص من الماء ، الى أن أفلح واتخذ وضعا مريحا الى حد ما ٠ فقد استطاعت البنت الغريقة أن ترفع وجهها الى الأعلى بتقاطيعه المشوهة المبعثرة ، والتي زادها الجزع تشويها وبعثرة ٠ وتململت العجوز في وكرها ثم ضمت أعضاءها وتقلّصت مروّعة وقد حسبت أن القيامة قد قامت ٠ وراح البدوي بحمله يجوس أرجاء الحوش صارخا معربدا الى أن شم رائحة الدخان ٠

كان الدخان يتصاعد كثيفا خانقا ولكن بدون لهب ، وكانت السحب القاتمة المنبعثة من فجوة الفرن تحمل لفحا محرقا ، وقد بدأت أقراص الجلّة والزبل بالاشتعال ٠ وأرسل البدوي من الشتائم ما جادت به قريحته ، فيما كان الهواء يعبث بشعر رأسه وعانته الى أن وصل الفرن ٠ وهنا واجه مشكلة جديدة وهي كيفية الولوج بحمله في الفجوة الضيقة ٠ وخطر له أن يهدم السقف الواطيء ، وقد صمم على أن يتم علاجه للبنت مهما واجه من الصعوبات، مدفوعا بحبه للعمل الصالح ، واسداء المعونة الى المحتاجين ٠ ووضع البرميل عند فتحة الفرن واستقام يتلفت حوله في ضيق شديد ، والتقت عيناه بين

سحب الدخان والظلام الحالك بعينين ضارعتين متجمدتين ، تطلان عليه من الوعاء الكبير المترجرج • فانحنى فوقهما ، وفحّ فيهما مواسيا :

ـ زين يا جروتي زين •• لا تخافي •• ان لحمك على جودته لا يؤكل فلا تصرخي •• ستشفين حين يسخن الماء ، وستركضين غدا كالجدي الخبيث ••

ودفع البرميل الى الفجوة ، ثم أخرج رأسه وهو ينفخ ويلهث ساخطا لاعنا ، وتأمل السماء بعينيه المختبئتين تحت ذوائب حاجبيه وبربر :

ـ هاهي ذي نجمة الصبح ترفرف جفنيها ، سيبزغ الفجر بعد قليل •• آه ••• أوه ••

وراح يتثاءب في جلبة طاغية ، ثم تمدد على الارض ليأخذ غفوة •• ولم يدر بعد كم من الوقت أفاق على زعيق وخبط أقدام مفاجىء ، فلمح شبحين يندفعان الى فجوة الفرن ، وهمّ بالامساك بهما ومنعهما من أن يفسدا العمل ، ولكنه وصل متأخرا • فقد انتشل جدعان أخته من الماء الغالي وهي تتخبط كدجاجة مذبوحة ، وهرب بها تحت حماية فهدة الى الحجرة ، بينما ضم البدوي عباءته الى صدره مرعدا مزبدا :

ـ عليكم لعنة الله وبركاته •• لا فائدة من التعب معكم •• تفو عليكم يا جراذين يا فطائس •

وتبعهما ليسترد حبله ويمضي في حال سبيله • وكان جدعان قد فك الحبل وجرّد (الطبيخ) من ثوبها وعصبتها وهي تتلوى بين ساعديه كالافعى ، وكان على الاكثر يريد أن يطمئن على جلدها ، ولكنه فجأة صرخ في هستيريا مجنونة :

ـ يمّاه •• يمّاه •• يا أهل الخير •• آه هـاء هـاء هـا ••

وشرع يقهقه غاصا بدموعه ••

وفوجىء البدوي لدى عبوره باب الحجرة بجدعان ينقض عليه :

ـ أبا مسعود •• يا أفضل خلق الله دعني أقبّل لحيتك •• انظر •• انظر ، انها تحرك ركبتيها

ولم يبد على الراعي أنه فوجىء بأي خبر ، بل تثاءب من جديد دون

أن تظهر أسنانه ، وتقدم من الجسد العاري يضمه الى صدره العاري ويتفحص معالم الوجه المعطوطة كالشمع المحمّى ، وقال في برود الحكماء :

ـ سنكويها الآن ٠٠ أعطوني قضيبا من الحديد ٠٠ أنت أيتها الغراب ٠٠

وكانت فهدة تتصرف كالطيف ذاهلة عن كل ما يجري ٠

ـ سمعته يناديك فهدة ، وما أتعس الفهود اذا كانت على هذه الشاكلة ٠٠ ولكن لا ٠٠ أنت بنت زينة ، تساوين قطيعا من الماعز ، هل وضعت قضيب الحديد في النار ؟ في الجمر ، ادخليه في الجمر ٠٠

كانت الفتاة المسلوقة عارية تماما ، وقد نضج لحمها واحمر كالشمندر ، ولم يستشعر جدعان غيرة وهو يرى مناتنها تتضوع في ركبتي البدوي وفخذيه ٠ كان يلوك جسدها الغض بين راحتيه كالعجينة ٠ يرفعها ويخفضها ويعصرها ، ثم يقرصها من فخذيها وصدرها ، وينهال على خديها صفعا وعضّا ، فتتطاير ذوائب شعرها الاثيث الاشقر المتبلل مع كل صفعة ووكزة ، يترجرج نهداها الناميان كأليتي خروف سمين ٠ كان يشتمها ويشتم نفسه وكل البشر :

ـ هـا هـا هـا حرّكي لسانك ٠٠ انطقي ٠٠ أسمعيني صوتك ٠٠ هـا هـا ٠٠

وكانت تميل وتتلوى مع كل ضربة ٠ وارتسمت على زوايا فمها خطوط من الدماء ٠ وكان جدعان يقف بعيدا ، فرحا مغمورا بسعادة لا حد لها ، يرقب عن كثب رزقا ثمينا أنقذ من الدمار ٠٠ وكان يردد في نفسه :

ـ اضرب اضرب ٠٠ وفي قوة ، ليخرج الشيطان من هـذا الجسد ٠٠

ووصلت فهدة وفي يدها ملقط النار ، وقد تجمّر ظفراه كعيني ذئب يجوس الظلام ٠ فخطفه البدوي من يدها خطفا ، وانفجر صائحا ـ وقد استحال الى مارد جهنمي يريد أن يحطم ويحرق الاخضر واليابس :

ـ اخرجا الآن ٠٠ اخرجا ، عليكما غضب الله ورسله آمين ٠٠

واضجع الفتاة وقرّب النار من فمها ، غير أنه توقف على ثقل يسقط عليه ، فقد انقض عليه جدعان كالنمر لينتزع الملقط من براثنه :

ـ لا ٠٠ لا تشوها بحق الرسول الاعظم ٠٠ بحق الرحمن لا تحرق جلدها ٠

وصارع البدوي ليتملص من ساعدي الشاب القويين :

ـ اترك ٠٠ اتركني قلت لك ٠٠ البين ياخذك يا ملعون الوالدين والشاهدين ٠

ـ لا ٠٠ لا ٠٠ بحق الـ ٠٠ بحق كلبك الذي مات ٠٠

وهمد الراعي فجأة ، وقد أثر به هذا الاستحلاف ، وردّ في خيبة :

ـ ماذا نفعل اذن يا تيس مقمل ؟٠

ـ اكوها بغير هذا المكان ٠٠ احرقها من أينما تريد ، الا وجهها ٠٠

ـ تفو عليكم وعلى أجدادكم يا حثالة الناس ٠٠ فلاحون خروق ٠٠ ما هي الفائدة منكم ؟٠

ولم ينتظر أكثر من ذلك ، فقد غرس النار فورا في فخذها الايمن ، وزلزل الكون عواء طويل تصاعدت على أثره رائحة اللحم المحترق ، وتحرر الفك السفلي للفتاة المسلوقة وراح يرتجف باحثا عن ركيزة يستند عليها ٠٠

• • •

كان خروج الشيطان من جسد فرحة العبد الله حدثا بارزا بين سكان قرية الصيرة ، لطالما كانت الحوادث ـ ولو لم تكن خارقة ـ ضرورية لتدخل تعديلا على حياتهم ، فهي توفر لهم وقتا يسلعونه في القيل والقال واختراع الحكايات ، وبهذا ينسون واقعهم ٠ وقد دهش الجميع لهـذا النبأ المثير ، فتهافتوا يسألون ويستفسرون ٠ واعتبر الراعي أبو مسعود رسولا من عند المولى أو ملاكا من ملائكته ، على الرغم من احتقار الفلاحين عموما لهذا الجنس من البشر المتخلف ٠ قال بعضهم : ان الباري يضع سره في أبسط خلقه ، ولكن آخرين حطوا من أهمية معجزته حين عزوا اليه قرابة الى كل ما اختفى من مخلوقات الله ، يتكلم بلسانها فيفهمها وتفهمه ، ويأمرها فتطيع أوامره ٠

ولكي يوضع البدوي في مكانه الحقيقي من هذه الاعتبارات ، يجب القاء نظرة الى الاسباب التي صيرت الفتاة الى تلك الحالة :

فعندما أطلقت صرختها المعهودة ، وكان أول من تنبه لها حمار شحادة المحمد ، زحفت من مكانها قليلا ثم غابت عن الرشد ، ولم تصح الا عند حلول الظلام · ووجدت نفسها وحيدة في الفلاة ، يسحق فكيها ألم شديد ، وتسيطر على عضلات فخذيها العاريين ارتجافات محمومة · وقد حاولت أن تحركهما فأحست فيهما ألما خارقا · وكانا مشدودين أحدهما الى الآخر شدا عنيفا · وعجبت في بادىء الامر من حالتها هذه ، ولكن ما ان وخز ذاكرتها ما حدث لها حتى فاجأها الرعب ، فاستسلمت مصعوقة بدون حراك الى مصير مجهول · وكانت أثناء صراعها مع الرجل قد بذلت المستحيل من الجهد لتحصن نفسها ، وقد أصيبت بانهاك بالغ ، وتصبب منها عرق غزير · وخلال غيبوبتها الطويلة هبت عليها ريح المساء الباردة ، فصلبت الى حد ما عروقها ، وتكفّل الخوف والحرص واعتبار آخر بالباقي · ولما هجم الليل وجنت ألا مناص من النجاة بروحها وبامكانياتها الخاصة ، فراحت تحاول الزحف بين خطوط الفلاحة ، وهناك لا تذكر بالدقة صاحب اليد الذي أعانها على قطع مرحلة كبيرة حيث تركها عند طرف القرية الشمالي · وقد وصلت الى دارها بعد وقت طويل دون أن يلتقي بها أحد من أهل القرية الذين كانوا يجوبون الارض بحثا وتنقيبا ، أو لربما تخطاها الكثيرون في الظلام فارضين أنها صخرة بين الصخور ما دامت لم تطلق اشارة أو صوتا · وما ان وصلت الى جحر أمها حتى كانت متيبسة كالحطبة ·

· · ·

(١٠)

بعيد الضحى بقليل ، توقف المختار لدى باب جدعان العبد الله يعتلي صهوة فرسه الهزيلة · وأمسك بقربوص السرج يصدر تعليماته :

ـ اسمعوا يا الرَبع ·· لا أريد مناورات شيطانية ·· فأنا ذاهب الى الدرك لأخبر عن فقدان صالح الذياب لعن الله والديه أينما وجد ، حيا كان أو ميتا · وبما أن البنت قد شفيت ـ لا كان الله شفاها ولعن الله جد البدوي ـ الذي لا أدري بمَ أسميه أو أصفه ، فلا داعي الى الهرج والمرج ولمْ الناس ·· كفانا فضائح ·· ثم أين جدعان ؟ نادوه لي ··

وكان قد تجمهر لدى الباب سكان القرية كافة ، من شيوخها الذين راحوا يطرفون عيونهم الكليلة غير مصدقين ، الى الرضع على صدور أمهاتهم يمصّون حلم أثداء عجفاء · وكانت العجوز مزنة تقود الجمهرة وتشير بيديها ورأسها ، ترطن مخترعة أقاصيص ما أنزل الله بها من سلطان :

ـ رأيته ·· وكانت تصرخ وتناديني ·· سمعتها ·· بالنار كواها بالنــار ··

وخرج جدعان متعبا شاردا محمرّ العينين من النعاس · وناداه المختار أن يقترب منه ليهمس باذنه :

ـ ام ·· هل تكلمت ؟·

ـ تكلمت ولكن لم أفهم شيئا ··

ـ كيف اذن ؟ ماذا قالت ؟·

ـ قالت ان زينب وزينب ·· ولا أدري من هي هذه الزينب ··

ـ اذن لا فائدة ·· أمري الى الله عليَّ أن أمضي الى الدرك ·

ووكز دابّته بخاصرتيها فتنهدت ، ثم حركت قوائمها في تكاسل ـ كان المختار يتميز بعقل زئبقي ووقار مكتسب ، وله هيبة تعب كثيرا على تنميتها في دهاء ومكر · وكان يصانع الجميع ، يأخذ كثيرا ولا يعطي الا القليل ، مع المحافظة على أن يبدو كريما الى أقصى حد · لا يسمح لنفسه بأن تسيء الى أحد ، واذا اضطر الى ذلك يتخذ هيئة المربي الواجب سماعه · وكان تجاه الدولة ينطبق عليه المثل القائل : (أول من أطاع وآخر من عصى) · وكان ميسور الحال ، فهو متزوج من امرأتين ، انجبتا له ابنا وثلاث بنـات ، ماتت احداهن طفلة فعجل ببيع الباقيتين خشية أن يفقدهما ، أما الولد فقد تطوع في الجيش واستراح من همه ، فلا يراه إلا مرة كل سنة أو سنتين · كان يكبر صالح الذياب بحوالي خمس سنوات ولكنه ظل محافظا على كهولته لم يتعدّها · وقد بدأ قلقه على انحباس المطر مبكرا ، نظرا لانه رهن الارض عند (البيك) لقاء شراء البذار والحاجيات الاخرى ، وكان يخشى أن يخسر أرضه ، ولم تنقذه كل أريحيته من الوقوع في حبائل المرابي كسائر أبنـاء القرية ، ولكن ما كان يعزّيه هو أن رقبة الشريك نفسه صالح الذياب ، داخلة في الانشوطة ·

وشرع المختار وهو يسلك الوعر باتجاه الغرب فوق فرسه الشائخة ، يحلل الموقف بحذافيره : فعندما جاءه صالح في الليل الى المضافة ليوسطه في زواج ابنه من ابنة قريبه كان جادا ومستعدا كل الاستعداد ، وقد اتفق معه على تفاصيل المشروع · غير أنه في أثناء المساومة بدا كأنما غيّر رأيه ، ثم مرض · وفي ليلة العرس أشيع أنه حاول أن يشنق نفسه · ثم الهمس الذي دار حول زوجته أمينة بعد أن خرجت من عنده ·· ثم الآن اختفاؤه بعد العثور على العروس في حالة لا يمكن وصفها · وقال المختار بصوت مرتفع : يا سيدي لنفرض أسوأ الاحتمالات ، انه يحبها ·· يا سيدي وأنه نالها أيضا ·· ·· فهل يستوجب الامر كل هذه الاهمية التي يصطنعها ؟ وهل يمكن أن يكون ما فعله بالبنت أدهى من كل ذلك ؟ فلماذا الهرب ؟ كنا نحل المشكلة بالتي هي أحسن والسلام ··

وبعد ساعة اعترضت طريقه سكة القطار الممتدة من الشمال الى الجنوب·

فتوقف عندها وتساءل : هل قطع هذا الخط ؟ واراد أن يشد صرع الفرس الايسر ليتجه جنوبا نحو ازرع الا أن خاطرا مفاجئا اقتحم رأسه : ترى هل ذهب شمالا الى قرية (محجة) وهي الأقرب ؟ ونزل عن دابته ليستشير عقله ، وبعد قليل سمع خرير عجلة عمال سكك الحديد ، فطرف بعينيه ناحيـة الجنوب ، وانتظر حتى وصلت ، وكان فوقها أربعة عمال برفوشهم ومعاولهم ٠ وساله أحدهم :

ـ هيه مختار ٠٠ هل أضعت شيئا ؟٠

ورد آخر :

ـ لعله أضاع ذلك الرجل ٠٠

ورفع المختار يديه مستغيثا :

ـ أي أي والله أين هو بحق القرآن ؟

فأجاب الرجال دفعة واحدة :

ـ انه محجوز عند المأمور ٠

وأكمل الاول :

ـ لن تستلموه الا أن تدفعوا جزاء ٠٠ يجب أن لا تفلتوا مجانينكم على سكة القطار ٠٠

واستأنفت العربة طريقها ، في حين قال المختار : مجنون ٠٠؟ ولكنه حمد الله على هذه المصادفة الطيبة ٠ وسحب دابته منحرفا بها ناحية اليمين سالكا طريقا ترابية ضيقة موازية لسكة القطار ، وقد اطمأن الى العثور على الرجل المفقود ٠

كان الجو صافيا ، والهواء جافا يهب هبات لطيفة ٠ وكانت الارض خالية من سيقان الحنطة المحصودة وقد أتت عليها القطعان ٠ وأخذت الفرس تطامن رأسها لدى كل خطوة تشم الارض متحسرة دون أن تجد شيئا تلتقطه بشفتيها الجافتين ، في حين كان المختار أمامها يسير مطرق الرأس ، عاقدا يديه وراء ظهره يتطلع إلى موقع قدميه مفكرا ٠ لم يكن التراب الجاف ليوحي له بالامل الكبير ، كان يصرّ تحت قدميه صريرا موجعا ويئن من العطش ٠ وكان المختار

يغمغم : نحن سيّان يا صديقي ٠٠ اذا مت أنت من العطش نموت نحن من الجوع ٠٠

وربط دابته في أحد أعمدة الهاتف المصطفة على طول الطريق وابتعد قليلا ليقضي حاجة جسدية ، فاغتنمت الفرس الجائعة هذه الفرصة لتقرض خشب العمود بقواطعها الصفراء ٠

عند الظهيرة وصل المختار الى محطة (محجة) التي يتوسطها بنـــاء حجري أسود ذو طابقين ٠ وقبل أن يدخل الى المأمور أراد أن يمتحن شخصيته ٠ فلربما كان صالح فعلا قد ارتكب جرما يستوجب معاقبته لذا ينبغي له أن يخلصه ، باعتبار أنه رجل مسؤول ٠ فتنحنح وأصلح من وضعية عقاله ، والقى نظرة عابرة على عباءته الوبرية ، ثم طرق الباب وكان مفتوحــا ودخــل :

ـ السلام عليكم ٠٠

كان المأمور يجلس على كرسي معطيا ظهره الى الباب ، يسحب من آلة التلغراف شريطا طويلا يقرأ فيه على التوالي رسالة تدفقها الآلة بتكتكة رتيبة ٠ وكان في حوالي الخامسة والثلاثين ، تضيء قمة رأسه صلعة مستديرة ، رجلت على أطرافها خيوط شعر كستنائية اللون ، وكان يرتدي ثوبا منزليا فاتحا ، وتبرز أصابع قدميه اللطيفتين من فتحات حذاء أخضر من المطاط ٠ واستدار المأمور بعد دقيقة ـ قضاها المختار متصلبا في احترام ـ ليواجه الداخل ، ثم رد بعينين باسمتين يشوبهما الضجر :

ـ وعليكم السلام ٠٠ أمر ٠

وقال المختار الذي تمرّس جيدا على مخاطبة أصحاب النفوذ :

ـ يا سيدنا ٠٠ الداعي مختار قرية الصيرة ، وقد جئت بحثا عن رجل ٠٠ عن رجل شاذ أعني مختل العقل حاشاك ٠٠ وهو صاحب أسرة كبيرة و ٠٠

وقاطعه الموظف :

ـ ومن قال لك انه هنا ؟٠

وكذب المختار قائلا لسبب ما :

ـ عرفت ذلك من تجاربي ·· فقد هرب مرارا وكنا نعثر عليه في المحطات ·

ونهض المأمور فبانت ضآلة قامته بالنسبة الى رأسه الكبير ، وحكّ صلعته في عناية قبل أن يجيب :

ـ لا نستطيع أن نسلمك اياه حتى نكتب بحقه مخالفة ثم نسلمه الى الدرك ··

وكشّر عن أسنانه محتدا :

ـ ضُبط وهو ينام على السكة ، وهذه مخالفة صريحة ·· ماذا كان يحدث لو فصلت القاطرة رأسه عن جسده ؟ كنتم ستطالبوننا بثمن رجل حقيقي ··

وصمت قليلا ليردف :

ـ هل هو مجنون أم معتوه ؟ أم ما هو تماما ؟··

ـ مختلّ يا سيدنا ·· مختلّ ··

ورفع المأمور يديه في حيرة :

ـ أنا أشك بذلك لانه صار يلعب بنا كالكرة ··

ـ ماذا قال بالضبط ؟ لان هذا يهمنا ·· لانه ·· لان ·· بماذا صرح لجنابكم ؟·

وتطاول المأمور على رؤوس أصابعه وكأنه يريد أن يخفي عاهته ، وقـال :

ـ ماذا صرح ؟ قال انه يريد أن يموت دون أن يكون أحد مسؤولا عن موته ·· ولكنه تراجع فورا عن تصريحه هذا ، لم يتراجع فقط بل كذّبه أيضا ·· حتى انه نفى أن يكون قد قبض عليه وهو نائم على السكة · لا أدري ·· انك لن تفهم منه شيئا ··

وسأل المختار :

ـ وأين هو هذا الـ ·· المعتوه حاشاك ؟·

ـ فوق ٠٠ احتجزته موقتا عندي ٠٠

ـ أرجو من جنابكم أن تسمحوا لي بمواجهته ٠

ورد المأمور في تسامح :

ـ طيب ٠٠ اطلع لمنده ، الدرج هنا على يمينك ٠

وتلكأ المختار قليلا قبل أن يسأل خجلا :

ـ لا مؤاخذة ٠٠ ألا يوجد أحد ؟٠

وضحك المأمور في عصبية جدا ، وقد فهم ما يعنيه المختار وأجاب :

ـ لا الحمد لله ٠٠ نساء ؟ أعوذ بالله ٠٠ هكذا يعيش الرجل وحيدا افضل له ٠٠

وعبّر عن مشاعره تجاه هذا الجنس بعدة حركات اشمئزازية حاقدة ومنفرة ، جعلت المختار يتيه دهشة من هذا المخلوق العجيب الذي يكره المرأة ٠ ثم صعد السلم الحجري متمهلا ، متكلا على الله بصوت مرتفع ، وكأنه يتهيب من مواجهة عاصفة ٠ وأطل على الشقة الصغيرة وكان لها بابان مفتوحان على مصراعيهما ، مدّ رأسه من خلال أحدهما وهمس :

ـ صالح ٠٠ ولك صالح أين أنت ؟٠

وحين لم يسمع اجابة وضع قدمه في العتبة وهمّ بالدخول ، فسمّره صوت متوعد ينبعث من مكان ما :

ـ نواف ٠٠ اياك أن تدخل ٠٠

ورد المختار حانقا نافد الصبر :

ـ سأدخل يا ملعون الوالدين وأحطم عظامك ٠٠

وخطا خطوتين ، فوجد نفسه في حجرة ضيقة ، صفّ على جوانبها بعض الاثاث ، والى اليسار رأى بابا آخر مفتوحا فولجه بسرعة ، وكانت حجرة أكثر اتساعا من سابقتها ، فرش في صدرها سرير المأمور ٠ ودار المختار على عقبيه متعجلا ، فكاد يتهاوى ٠ كان صالح الذياب ينتصب أمامه بملابسه الداخلية ، سرواله وقميصه ، وفي يده موسى حلاقة ذات نصل عاجي يمرّر

بحدها على رقبته ليقحط شعرها ، وكان قد أزال لحيته عن آخرها · وجمد المختار لحظة أمام هذا المشهد الذي أخافه · وتساءل : ترى هل هذا المخلوق الأمعط هو صالح الذياب ؟· كان الشخص الذي أمامه بعيد الشبه عنه ، ولكنه على الرغم من ذلك كان هو نفسه بشاربيه الأجعدين اللذين لم تصل اليهما الموسى ، وبعينيه الواسعتين البارقتين بريقـا خابيا · واستلم صالح زمام المبادرة · وسأل في لهجة تهكمية لاذعة :

ـ اذن أنا مختل هـا ؟·

ورد المختار مجفلا :

ـ أنت ؟ أعوذ بالله ·· من قال هذا ؟·

ومطّ صالح رقبته حتى اختفت جوزة حلقه ، مما طمأن المختار على حسن سير الموسى · وقال وعيناه تطلان الى أسفل :

ـ ألم تقل عني هذا للمأمور ··؟ لقد سمعتك ··

واستعاد المختـار رباطة جأشه ، ورد في نبرة تنطوي على الحكمـة والتعقل :

ـ اضطررت أن أدعي هذا لكي لا يحبسوك ··

وأضاف متصنعا الغضب :

ـ لقد أصبحت في نظري ، لا بل في نظر الناس كلهم شخصا لا أدري ما أقوله عنك ، ولو كان ذلك يسيئك ·· قل لي اذن ماذا فعلت يا ابن الايش ؟·

ولم يجب صالح ، بل استدار وخرج من الباب الآخر ، وتبعه المختار الى المطبخ ، حيث كان يقف أمام مرآة معلقة في الجدار يتأمل ذقنه الناعمة ويتلمسها براحة يده ، ثم هز رأسه في ارتياح وطوى الموسى وألقى بها على الرف · وصفق بكفيه مسرورا وكأنه أنهى عملا شاقا ذا أهمية بالغة ، وانفتل الى الوراء في خفة الصبيان وواجه المختار بنظرات تنم على الدهشة · وسأله بلهجة متعقلة صادرة عن مجنون :

ـ اذن أنا لست مختلا ·· اذا اتفقنا على هذا فلا يهمني شيء والسلام عليكم · وغامت عيناه فجأة وغصتا بالحزن وأضاف :

ـ على كل حال انتهى كل شيء ٠٠ ضعت ٠٠ أفلست ٠٠ دمرت نهائيا ٠٠ انه غضب الله ، غضب الله علي ٠٠

وبح صوته من التـأثر ، وتقـدم منـه المختار مطوقا اياه ومواسـيا في لهجة ودية :

ـ صالح ٠٠ انظر الي يا ابن عمي ٠٠ قل لي ماذا يحزنك ٠؟

وانتفض صالح متخلصا من عناق صاحبه صارخا :

ـ قلت لك لم يبق لي رجاء ٠٠ ماذا يحزنني ٠؟ ألا تعرف ٠؟

ثم جلس على بلاط الارض متربعا ، مقطبا حاجبيه ، تطل من عينيه نظرات يائسة ، وقرفص المختار الى جانبه مواسيا :

ـ اسمع يا أخي يا صالح قل لي ماذا فعلت وأنا أتكفل بالمهمة ٠٠ لا تخش أحدا ما دمت أنا الى جانبك ٠٠ صارحني ثم انس كل شيء ٠٠

وحملق صالح عينيه مذعورا :

ـ أنا ٠؟ ماذا فعلت ٠؟ أعوذ بالله ٠٠ ماذا تظن بي يا نواف ٠؟ حتى انت أيضا تتهمني ، آه يا ربي ٠٠ / يا مصيبتي ٠٠ /

ولوى عنقه الأجرد ناعيـا متحسرا ٠ وقال المختـار وقـد اعتراه نوع من الاختلاط :

ـ صالح ٠٠ اطمئن يا صالح فقد شفيت فرحة تماما ٠٠ لا تخف ٠٠

وجحظت عينا العجوز في الفراغ وهتف :

ـ فرحـة ٠؟ شـفيت ٠؟ لماذا ٠؟ ماذا حصـل لهـا ٠؟ لا بد أنك تخفي أشياء كثيرة ٠٠ قل لي اذن ما هي الحكاية ٠٠

ونفد صبر المختار فصرخ في وجهه في ضغينة :

ـ أيهـا العجوز الاجرب ، قم ٠٠ تعـال لنتفـاهم في الطريق ٠٠ انك تجنني ٠٠ لقد صدق المأمور ٠٠ ستسلبني عقلي بعد دقيقة واحدة ، لا ٠٠ هذه اكبر مهزلة أراها في حياتي ٠٠ عليك ألف لعنة من رسل الله ٠٠ وليكن مأواك جهنم ٠ قم ٠ تعال ٠٠

ونهض مصعوقا ينوي الفرار ، غير أن صالح تعلق بعباءته وجره اليه في شراسة ، وهمس في صفاقة لا حد لها :

ـ لا تهرب ·· لن أدعك تذهب حتى تخبرني عن كل شيء ·· أليس جدعان مصمما على قتلي ·؟

وكان ينبغي لهذا السؤال أن يكون بمثابة اعتراف باقتراف الاثم ، ولكن المختار راح يفكر : اذا واجهته بالمشكلة فسيرفض العودة معي ، ولكني في الوقت نفسه أريد معرفة هذه المشكلة · لذا اضطر أن يشحذ ذكاءه ليحصل على الغنيمتين : فقال في حرارة :

ـ جدعان ·؟ يقتلك ·؟ ما خسيء·· / ولو ·· مافي حكومة مافي درك ·؟ ولكن أريد أن أفهم لماذا تظن هذا الظن ·؟ ماذا فعلت لـ ·· له ·؟

وشرد لبه على ضحكة خبيثة خشنة تلاعبت في صدر الشيخ وهو يرد مزأبقا عينيه :

ـ ألا تعرف ·؟

وهبط قلب المختار ولكن الشيخ أضاف،

ـ انه يكرهني كراهية عمياء ·· لماذا ؟· لانه يظن بأنني السبب في موت أبيه ·· كان عبد الله يحبني كثيرا ·· رحم الله عظامه ·· أظن أن عظامه الآن أصبحت ترابا · لماذا تنظر الي هكذا ·؟ اجلس ·· اجلس ·· فالأرض نظيفة· هنا ماء كثير نظيف « وهمس » هل تريد أن أسرق لك صفيحة ماء ·؟ انه ماء أبيض طيب تأتي به القاطرة من الشام ·· اختبيء اختبيء ، اسمع خطوات المأمور ··

وأطل المأمور من باب المطبخ صائحا :

ـ أما انتهينا من التحقيق ·؟ عجلا فقد وصل القطار من ازرع ·

ودلف الى غرفة النوم لارتداء ملابسه · في حين راح فكا المختار يرتعشان دون أن يجسر على الكلام · واستطرد صالح الذياب يفح فحيحا مسموما :

ـ نواف ·· لا تشغل بالك ، فالمأمور لن يسلمني الى الدرك ، عرفت ذلك من أول وهلة · لقد هددني بذلك لاعمل عنده خادما ، وهذا ما سأفعله ·· هل تعرف لماذا نمت على سكة القطار ·؟ لا تعرف ، سأخبرك اذن ··

وضحك ضحكة خبيثة وأردت أمام ذهول الرجل :

ـ ولماذا اقتل نفسي ؟٠ هل اقترفت ذنبا ؟٠ قل ، لم أنت أخرس ٠٠؟ هه ٠٠ هِهه يوم أمسكوني ليلة العرس والحبل في يدي لم أكن أنوي أن اشنق نفسي ٠٠

وطرف المختار جفنيه وكأنه يود لو يصحو من هذا الكابوس ٠

ـ كنت أحاول فقط ٠٠ كنت أهدد نفسي ، وعندما نمت على السكة كنت افعل ذلك أيضا ٠٠ تهديد ٠٠ مجرد تهديد ٠٠ اجلس ، لم أنت خائف ؟٠ أنت تظن بأني أتظاهر بالجنون لغاية في نفسي ، واني أتخابل لاتحرر من الفضيحة٠٠ ها ٠٠ هِهه ٠٠ اليس هذا هو رأيك ؟٠ هم ٠٠ أجب لم أنت ساكت ؟٠

وتنهد المختار غير مصدق ، وغمغم :

ـ اتريد أن تعرف ما أفكر فيه ؟٠ مليح ٠٠ اني أقول في نفسي لم يبق صالح الذياب صالحا لشيء بتاتا ٠٠ اضحى نفاية مخلوقات الله ٠٠ لقد ضاع والسلام ٠ وأية فطيسة أفضل منه ٠٠

ورد الشيخ في تعقل مريب :

ـ أليس هذا ما قلته لك من البداية ؟٠ ضعت ٠٠ أنا ضعت والسلام ٠

وصرخ المختار في وجهه مطلقا سهمه الاخير :

ـ ولكن لماذا ؟٠ ماذا يضيمك ؟٠

ـ فقدت الأرض ٠٠ ضحك علي البيك ٠٠ وأبقاني على التراب ٠

(وتابع بعد لحظة ٠٠ وهو يرمق المختار الذي جمدته الدهشة) :

ـ سيأتي في الصيف ، وحين لا يجد ما نسدد به دينه يحجز الارض ٠٠ الا ترى أن السماء لم تمطر حتى الآن ؟٠ وهذا ما ينبىء بالنهاية التعيسة ٠٠ بالخراب ٠٠ ولن يبقى لنا ما ناكله ٠٠ من أجل هذا سأبقى هنا وعلى الدنيا السلام ٠٠

وسمع شخير القاطرة وصفيرها يقترب شيئا فشيئا ، فقفز مأمور المحطة من حجرته وهو يدخل يده في كم سترته ٠ وقال المختار في روية وهو يضغط على الكلمات :

ـ اسمع يا صالح ٠٠ ليس لمخاوفك الآن ما يبررها ٠ ولكن قل لي ما هي الفضيحة التي كنت تتحدث عنها ٠؟

فرد صالح في استنكار شديد :

ـ فضيحة ٠؟ أية فضيحة ٠؟ هذا ما كنت أتوقعه تماما ٠٠ انكم تتحدثون عني بالسوء ٠٠ والله أعلم بماذا تتهمونني ٠٠ وأنت أول من يتهمني يانواف ٠٠ يا حيف ٠٠

وضم المختار قبضته غاضبا ، ثم جأر في وحشية :

ـ يا ابن الكلب٠٠ يا كافر ٠٠ والله يقول لي عقلي ان أقلع عينيك ٠٠ ألست أنت يامجوسي يا ٠٠ يا ٠٠ يا تفو على شواربك ٠٠ ألست أنت من تتهم نفسك ٠؟

ولكن الشيخ اعترض في تعقل عجيب :

ـ أنا لا أتهم نفسي يا نواف ٠٠ الله يرضى عليك ٠ ولكني قلت بأنكم تظنون بي كل الظنون ٠٠ وقد صدق حدسي ! أليس كذلك ٠؟

وقامر المختار بصوابه وقرر :

ـ مليح ٠٠ والآن وقد أسفرت عن وجهك يا سافل يا منحط فسأقول لك رأيي في صراحة : لقد افترست البنت ٠٠ ليس هذا فقط بل أدخلت في جسدها أسرة من الشياطين ٠٠ وأصبتها بمس من روحك الابليسية ٠٠ قل لي الآن فوراً ٠٠ اعترف حالا ، ماذا فعلت بها ٠؟ صالح ٠٠ صالح ٠٠ ولك صالح ٠٠ مالك ٠٠؟

وراح يهز الشيخ بيديه ليخرجه من الذهول الذي تردى فيه الى درجة التجمد ٠ والحق ان صالح ما أن سمع قرار المختار حتى بدا كمن توقف قلبه عن الحركة ٠ وأفاق في بطء ، ثم تنهد في تخاذل :

ـ هل تصدق أنت أيضا هذه النميمة ٠؟

ـ ليست نميمة، بل حقيقة ما دمت لا تجسر على نفيها ٠٠

ودافع الشيخ عن نفسه بهذه العبارة :

ـ اذن ما قولك بانها هي التي عرضت نفسها علي ٠؟

وما ان سمع المختار دفاع الشيخ هذا حتى انقلب الى مجنون خطر ، اذ أطاح بشملته وعقاله وأنشب أظافره في رأسه ، وراح يخبط نفسه متشفيا صارخا : هه هه هه • ثم توقف على تهليل الشيخ واستحسانه : مليح مليح الله يعطيك العافية ، يكفي •• ولهث المختار مقهورا معذبا :

ـ الله يكفيني شرك يا اخويا•• الله يكون في عوني وعونك •• مايخالف قول ما تريد ، قال فرحة البنت الصغيرة المسكينة الحلوة ، قال انها •• يا لطيف •• يا ربي تجيرنا •• يا ربي ثبت فينا العقل والدين •• يا رجل•• قال مجنون يحكي وعاقل يسمع •• ابنة جارك وعروس ابنك •• اه •• راح أجن راح أموت ••

وكان صالح الذياب يستمع اليه في سرور وكأنه يشهد فصلا هزليا من تاليفه • ولكنه فوجىء بهذا السؤال :

ـ ولك صالح من هي زينب ؟•

وكان هذا السؤال بمثابة الشعرة التي قصمت ظهر البعير ، اذ ما كاد يلامس أذني الشيخ حتى جعله يسقط في هوة لا قرار لها من النسيان وغشيته غاشية مفاجئة من الشيخوخة . فتهدّل كتفاه ودكنت تقاطيعه ، وبانت آثار الجدري في وجهه أكثر انتشارا وعمقا • وراح يردد كالنائم :

ـ زينب زينب زينب •••

وحبس المختار أنفاسه متذرعا بأقصى ما يملك من قوة الاحتمال ، ممسكا بهذا الخيط الرفيع كيلا يهرب من بين أصابعه ، وركز حواسه كلها على شفتي صاحبه متفحصا ارتجافهما ، وتبين في جهد كبير بعض الكلمات :

ـ الحصيدة •• الحصيدة •• لن نحصد الشعير بعد الآن ••

ثم تعالى هذيانه :

ـ اذا كان هذا ما يريده لي الله فقد ذهب تعبي وشقائي هباء منثورا ••

وصرخ على حين غرّة :

ـ لماذا لا تدعوني أموت وأستريح ؟ خلصوني اتركوووونيييي •

وقفز الى الرف ليتناول الموسى ، غير أن المختار كان أسرع منه ، فوقف في طريقه ، ووكزه بمؤخرته فوقع على الارض ، فجثم فوقه منهالا عليه بالضرب واللكم ، وأمسك برأسه وراح يدقه على البلاط دقا متواصلا عنيفا حتى فقد كل حركة ، وسمع من الاسفل صراخ المأمور :

ـ ولكم ما هذا يا جان ؟ يا عفاريت سيدنا سليمان ؟ تهدّم البيت ماذا تدقان ؟٠

ورد المختار من الأعلى متعجلا وسط لهاثه :

ـ لا شيء يا سيدنا ٠٠ سننحدر سننحدر هيا ٠٠ هه ٠

وتساءل : أين ملابس هذا اللعين ؟ وتلفت حوله ، فعثر عليها ملفوفة الى جوار الموقد ، فصرّها وربطها في سرواله ، ثم انحنى على الجسد الممدد ورفعه الى كتفه في عناء كبير ، وهبط به الدرج ينوء به ، ثم هرع الى فرسه المربوطة خلف البناء بدون أن يراه أحد ٠

كان صالح الذياب ما زال محافظا على وعيه طول الوقت ، وقد فتح عينيه حين وجد نفسه يتأرجح على صدر المختار غير أنه لم ينبس بكلمة ٠ وعندما وُضع على سرج الفرس مطويا ، رأسه الى جانب وساقاه الى الجانب الآخر ، تحرك قليلا ليحسّن من وضع جسده بصورة أكثر راحة ، فأمسك به المختار من فخذه وكأنه يداري كيسا من الطحين ، وأوعز الى دابته بالسير ٠

وكان الرجل قد تصنع فقدان الوعي ليوفر على نفسه مزيدا من الضربات ، خاصة وأن المختار بات في اللحظة الاخيرة قاسيا لا يرحم ٠ ووجد الآن أنّ من صالحه أن ينقل الى البلدة على هذه الصورة لينجو من المضايقات والاستفسارات ولربما الانتقام أيضا ، وقرر أن يبقى محتفظا باغمائه ما وسعته الحيلة ، حتى يقف تماما على حقيقة الامر ، فان وجد أن هناك ما يمسه ، أو أن حالة جدعان لا تدعو الى الارتياح اتخذ اجراء آخر يعفيه من تلقي الجزاء ٠ وأعلن في سرّه : ولأتوكل على علاّم الغيوب ٠

وثقل رأسه وبدأ يؤلمه فيما كان جسده يتقلقل مع خطوات الدابة المتعثرة، فحرّك شفتيه مغمغما : فلأصبر ٠٠ ان هذه بداية العقاب وليجرني الله مما هو أعظم ٠ وبعد أن جاد المختار بمختلف الشتائم التي تناسب الحال ، راح يستعرض المناقشة التي دارت في شقة المأمور ٠ وكانت كلمات صالح الذياب

تطن في رأسه طنينا رهيبا : « لم يكن مأمور المحطة بعيدا عن الصواب عندما صرح بأن الرجل ليس معتوها ، وهو اذا كان يتصنع الجنون فلغاية مجهولة لربما تكون سلب الناس ألبابهم · ولماذا ؟ لا أحد يعلم ·· وخشي المختار أن تكون القضية ليست الا مهزلة سخيفة ، وأن ما يدور في خلده لا يعدو أن يكون أوهاما لا ظل لها من الصواب ، والأدهى من ذلك أن يكون صالح نفسه يتخبط في وساوس شيطانية · مجرد وساوس لا أكثر ، لانه ـ كما هو واضح ـ يشك في أنه اقترف فعلا شائنا ·· وهو الى درجة من العجز لا يستطيع معها أن يثبت أو ينفي شيئا · ترى هل حقيقة ما يؤرقه هو القحط المنتظر ؟ أم أن هذا الادعاء ليس الا ستارا من الدخان يخفي وراءه الغول الذي يصطرع في أعماقه ·· لا شك أن الرجل يتعذب ، وعذابه من النوع القاسي المرير الغامض ، ما يكاد يتخلص منه لحظة حتى يعاوده أشد ضراوة وعنفا وقسوة · ترى هل لروح عبد الله الجدعان المتوفي دخل في الموضوع ؟ وهل تقمصت فرحة روح أبيها لتنتقم من عمها شر انتقام ؟ ولكن الفتاة نفسها لقيت ظروفا رهيبة لا يمكن تعيينها · ان صالح يخاف حتى الموت من شبح مجهول ، وهذه هي المرة الثالثة في ظرف قصير التي يهرع فيها للتخلص من حياته · هل كان صادقا بادعائه أنه يهدد نفسه مجرد تهديد ، أم أنه يختبر الموت اختبارا ؟ وما هذه التجربة المقيتة ؟· » ·

وتلوّى الشيخ بملابسه الداخلية فوق سرج الفرس ، فأمسك به المختار من ظهره وأصلح من وضع جسده مفكرا : عسى أن يموت ميتة طبيعية والسلام· ونهر دابته لتعجل من خطوها المتردد · وفي الأصيل أشرف على بيادر القرية ، فتوقف ، وأنزل الحمل عن الفرس التي كان خيشوماها الواسعان يرتجفان من التعب · وقال المختار حانقا :

ـ ألا تزال ميتا ؟ مليح ·· وسأريك الآن كيف يموت الخنزير موتا صادقا ، لا كذبا ولا تخريفا ·· تعال البس فأنا لا أحب عويل أراملك عن قريب ان شاء الله ··

ونزع صرّة الملابس من وسطه ، فألبسه القنباز في خشونة ثم وضع له عباءته على كتفيه :

ـ قم اجلس ·· آن لك أن تفيق اذا كنت حقا فاقدا الوعي ·

وأجفل المختار على صوت يقول له في بساطة :

ـ لماذا ضربتني هكذا يا نواف ؟٠

فردّ في تشفٍ :

ـ لأخرج ابليس من رأسك المدوّد يا تيس هرم ٠٠ ألم تعرف ؟٠

وجلس الشيخ متربعا تؤلمه عظامه وقال في بطء شديد :

ـ وماذا ستقول لهم الآن عني ؟٠

ـ أقول لهم اني التقطته من فوق المزابل أو من أي قاذورات أخرى تخطر لي على بال ٠٠

وابتسم الشيخ في تخاذل قائلا :

ـ مختار ٠٠ اذا كان يؤرقك موضوع معيّن فسأخبرك عنه فيما بعد ، أما الآن فاتركني وحيدا ولا تثر حولي ضجة ، واعتقد أن ذلك سيكون في مصلحتك أيضا ، هل تفهم ؟٠

ورد المختار في حقد :

ـ لا ٠٠ لم أفهم شيئا ، ولا تغمز لي بعينيك يا فاجر ٠٠ انك تساومني على بضاعة لا تملكها ٠٠ وبمَ ستخبرني ؟ وهل عندك ما تقوله ؟٠

وتمزقت روح المختار على ضحكة خبيثة ماكرة يتخللها صوت مغيظ :

ـ ألم أقل لك تلك الليلة أني رجعت عن هذه الزيجة ؟٠

فردّ الآخر في لهجة كالرصاص :

ـ لم أكن أدري بأنك تزاول تجارتك السوداء يا وحش ٠ وكان ينبغي لي أن أتذكرُ يوم كنت تتاجر بالعمال الزراعيين ٠ انك لن تكون أبدا الا ذلك اليهودي الذي كنته في شبابك يا قليل الدين والمروءة ٠٠

ثم انقضّ عليه وانشب أظافره في عنقه الأجرد ، وفحّ وهو يضغط على الوريد :

ـ والآن اعترف لي ماذا فعلت بها ؟٠٠ هيا ٠٠ ساخنقك ورب الكعبة واحسب أن الله ما خلقك يا فاجر يا زنيم ٠٠ وعلى كل حال فقد شطب اسمك من سجلات القرية باعتبار أنك مفقود ٠٠

وازرق وجه الشيخ وحبست أنفاسه ، فراح يجاهد بأطرافه الاربعة حتى جحظت عيناه جحوظا صادقا لا زيف فيه ، وكان المختار قد صمم أخيرا على استخلاص الاعتراف ولو أدى الامر الى قتل الرجل ، وأرخى أصابعه قليلا ليتيح له فرصة للكلام :

ـ هـا ؟ ألا تعترف ؟٠

وحشرج صالح الذياب :

ـ ٠٠ أ أ أ ق ق قول ٠٠ اقول ٠٠

ـ ماذ ؟ هات يالله ٠٠

ورفع المختار يديه ، وقال صالح وهو يغص بالكلمات ، ويزدرد الهواء ازدرادا :

ـ هذا ما أريد أنا أن أعرفه يا نواف ٠٠ وحق رب العالمين حتى تصدقني بأني لا أدري ٠٠ لا أعلم ٠٠ ورحمة أمواتك وأمواتي بأني لا أعلم ٠٠ صدّق يا شيخ ٠٠ أنا متعطش أكثر منك الى معرفة المسألة ٠٠ انتظر ٠٠ سأسألها ٠٠ سأسألها بنفسي وفي حضورك ٠٠ وسأقبل كل ما توجهه لي من تهم ٠٠ مليح ٠٠؟ دعني اذن أستريح ٠٠ آه ه ه ه ه ٠

في المساء أدخل المختار صالح الذياب الى حجرته ، موعزا الى أفراد أسرته بأن يعفوه من الكلام ، وأن يخلدوا الى السكينة والهدوء ، متغاضيا عن آثار الهياج التي كانت تطفح على وجوههم ٠ وما ان غادر الدار حتى ألفى نفسه في جو متلبد بالغيوم الدكناء ، كان أفراد القرية متجمهرين في المسارب الضيقة يتناقلون في همس حكاية بشعة ، تفوح منها رائحة خبيثة تزكم الانوف ٠ ولم يفهم حقيقة الموقف حتى وصل الى داره ، وهناك فوجيء ببداية الاحداث :

قصت عليه زوجتاه الرواية من أولها : فعند الظهر ساق جدعان أخته الى دار عمها ليرجع المياه الى مجاريها ، بعد أن شفيت واصبحت قادرة على السير والكلام ٠ ولكن حماتها أمينة ما ان رأتها في بيتها حتى صاحت واستنجدت بالاولياء والقديسين كافة ، وصرحت بأن البنت أصبحت امرأة سائبة ولم تبق صالحة لتكون زوجة ابنها ٠ وادعت بأن فرحة كانت حتى ليلة الامس

الاول بكرا لم يمسسها بشر ، فقد رفضت أن تعطي نفسها الى عريسها طوال عشرة الايام الأول التي أعقبت العرس ، وأعلنت عن أن عمها أخذ وجهها قبل هربه دون أن يدري بأنها ما تزال عذراء ، وأن لديها الأدلة الدامغة على صحة قولها · وشاطرتها سليمانة هذا الراي ، وأضافت أن قدم البنت الساقطة أصبح نحسا على الاسرة ، وستسبب النكبات والمصائب للجميع وخاصة لها بعد زوجها · وفوجيء الاخ جدعان بهذا الاتهام ، ثم ثارت ثائرته ، وهجم على المرأتين يريد سحقهما واخراسهما ، فتصدّتا له على مرأى من أم فهدة التي وقفت مكتوفة اليدين ، وقد أعملت المرأتان في وجه الشاب وصدره أظافرهما المسلحة ، وساعدهما سليم وقاسم بالعصي والحجارة حتى دحروا العروس وأخاها الى دارهما شر دحر ·

وكان المختار يستمع الى الرواية من زوجتيه فاغر الفم مستطار اللب ، ساخطا ، لاعنا ، يبصق في الهواء ، ويضم قبضتيه في عزم ليضرب بهما السماء والارض وما بينهما ، وهو يتمزق غضبا وكراهية وذعرا · وقال لهما في النهايــة :

ـ ولكم أنا نبي ·· نبي ·· فقد حزرت من البداية ، عرفت كل شيء من اول ليلة ، ولكن خشيت أن أصرح برأيي لان أحدا لا يصدقني ·· وعلى كل حال (وتنهد) ان هذه الامور تحدث في كل مكان ، ولكني كنت أتمنى ألا تحدث في قريتنا الآمنة ، ولكن ما الفائدة ؟ كلنا حيوانات ·· حيوانات خالية من الشرف ·

وحضر الخجا بعد قليل ، ثم تبعه الفقير ليبحثا مع المختار المشكلة التي باتت واضحة المعالم · وبعد أن أخبرهما المختار عن كيفية العثور على صالح ، أدلى الخجا برأيه قائلا :

ـ أنا من جهتي ، وبعد أن تفحصت القضية عن كثب ، أظن أن في المسألة مكيدة كبرى لا يعلم سرها الا الله جلّ وعلا ·· ونحن اذا شئنا أن نحصر الموضوع في أضيق حيّز ، علينا أن نعرف ماهية الحادث لنكون على بيّنة من الامر ونخمد الفتنة في أرضها ··

وصمت قليلا ليسأل :

ـ أنت ماذا قال لك صالح بالضبط ؟·

وأجاب المختار :

ـ صالح ؟ انه أجهل منا بالقضية ، انه يبدو أجحش من بهيم ، ولا يفقه من الامر شيئا ·· لا ، بل انه ـ وهذا ما يحيّر ـ أكثر منا تشوقا لمعرفة القصة ···

وقال الفقير متعجبا :

ـ ولكن كيف ما دام هو أصل البلاء ؟·

ـ صدّقاني ، انه كما أقول لكما ، فقد عييت في انتزاع اعتراف واحد من شفتيه ولكن بدون جدوى · وهو في حيرته هذه يتخبط في أقواله كالمعتوه دون أن يضفي على القضية ولو بصيصا من نور · بل على العكس ، يزيدها غموضا على غموض ··

وسأل فجأة :

ـ أما تكلمت البنت في غيابي ؟·

ورد المعلم :

ـ والله كنت في دار جدعان قبل الظهر ، وقد فهمت من البنت بأنها تعرضت لاعتداء مجهول من قبل عمها أبت أن تفصح عنه ، وكانت الاخرى تتعثر في أقوالها حتى ظننت أنها تهذي ··

وقال الفقير شامتا :

ـ بالرغم من أنهم يقولون انها شفيت تماما ··

وقال المعلم :

ـ الحقيقة لا ندري بالدقة بنوع المعالجة التي قام بها البدوي ، ولكنه أفلح في أن يجعلها تمشي وتحرك لسانها على أية حال ·

وسأل المختار :

ـ هل ذكرت أمامك اسم زينب ؟

ـ قالت انه لما رآها أصيب بما يشبه الخبل ، وناداها بهذا الاسم (زينب) ، ثم انحنى عليها لينزع من قدميها شوكة مزعومة ، وحين مانعته راح يتصرف كالمجنون ··

وضحك الفقير في مجون مصرّحا :

ـ وأغلب الظن أنه ·· أعوذ بالله ·· وهي تخشى أن تعترف خوفا من أخيهـا ·

وقال المختار محتفظا برأيه :

ـ فهمت أنّ آمنة لديها أدلة دامغة بالحادث ، فهل اجتمع بها أحد ؟·

ورد الفقير ساخرا :

ـ آثار الجريمة واضحة ، وقد حفرت سليمانة مكانها قبرا ··

ونفخ المختار نفخة تطبخ طبخة وعبّر عن وساوسه قائلا :

ـ يبدو لي أن جدعان على طبيعته الهادئة لن يعالج الامر في رويّة وتعقل ، واخشى أن يركب رأسه ·· العمى يا جماعة ، أقسم بالله العظيم اني أكاد أنفلق ·· ثم ما هو الدليل على أن قاسم لم يقربها طول تلك المدة ؟ اوف ف ف ·· أوف ·

وقرر الخجا بعد طول تفكير :

ـ أنا رأيي لا يزال هو هو ، ان البنت لم تمس من قبل عمها ، وكما قلت من البداية : في القصة مكيدة مدبرة ، أستغفر الله العظيم ، آه من كيد النساء ، ان كيدهن لعظيم ، صدق الله العظيم ··

وتشبث الفقير برأيه قائلا :

ـ أنا أعرف صالح الذياب ، وهو لا يتورع عن ارتكاب أي عمل يغضب الله وملائكته ·· وما هو الا بشر كأي رجل مسكين ذي أهواء ورغبات أرضية·· هل تنسون كيف يتاجر بأبناء القرية ، ويسوقهم للحصاد في أراضي الآغا ثم يسرق اجرتهم ؟·

وقرر المختار وهو ينهض بتثاقل :

ـ هيـا ·· أرى أن نذهب الآن وعلى الفور الى دار جدعان ، ونعمل ما في وسعنا قبل أن يصل الامر الى الحكومة فسنتردّى كلنا في الهاويـة ·· اللهم عافنا واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت أرحم الراحمين ···

· · ·

كانت فرحة قد اتخذت مكانا في زاوية الحجرة على طريقتها المعهودة في الجلوس بين أمها وزوجة أخيها ، وكانت ذابلة القسمات خامدة النور • أما جدعان فكان يضيء السراج ، عندما سُمع في الخارج تمخط وحوقلة وسعال ودبيب أقدام ثقيلة ، ودفع الباب ، ودخلت هيئة (المخترة) الواحد اثر الآخر • وكانت مزنة أول من فتح أذنيه على أصواتهم ، فرحبت بهم واستقبلتهم بسيل من الشكايات • وأدار جدعان رأسه فبانت خطوط دامية تتلوى في جبهته وحول عينيه ، وقد بدت وجنتاه أكثر بروزا وعيناه أقل ضياء • ودون أن يقول شيئا شمل القادمين بنظرة باردة ، ثم تناولَ لبادا من جانب الكوارة ومده على الارض • ووقف في كلل يحك ناصيته في اهتمام وهو باسر الوجه مقطب الملامح • وقال المختار وهو يستلقي :

ـ كيف أنت يا خالة مزنة ؟

فأجابت الضريرة بصوت كنواح الربابة :

ـ ملك الموت يزورني كل لحظة ، ولا أدري ماذا ينتظر ••

وقال المعلم :

ـ توكلي على الله يا شيخة ، لمَ هذا القنوط ؟•

وردت وهي تطرف أجفانها وتهتز كبندول الساعة :

ـ لان ما حدث هدم ركني وأطال ليلي وأمرّ عيشي و ••

وسأل المختار في عطف :

ـ وأنت يا فرحة ؟ لمَ لا تكونين اسما على مسمّى ؟•

فأطرقت برأسها ، ووجدت على التو عودا تنكش به الارض •

ـ اسمعي ، أريد أن أسألك سؤالا واحدا وينتهي كل شيء • اقترب يا جدعان ، أو ، لا ، ابق حيث أنت ، فالسؤال لا يهمك ، تعالي لأقوله بيني وبينك ••

واقترب منها حتى حاذى شاربه أذنها المغطاة بالوشاح الاسود ، وهمس :

ـ ماذا فعل بك قاسم ليلة العرس ؟•

فرمقته في بطء من زاوية عينيها بنظرة عتاب ولم تجب ، فأعاد السؤال ملحّا ، فردت بصوت مسموع :

ـ ما رظيت ·· وظربته ··

ـ لمـاذا ؟·

ـ أوجعني ··

وانفجر الرجال الثلاثة بضحكة صاخبة خشنة طويلة ، جعلت الفقير يفقد اتزانه فاستند على كتف المعلم · وعقّبت العجوز في انشراح ظاهر :

ـ انها طفلة بعد ، صغيرة ، يا كبيدي ··

وقال جدعان في نفسه وقد نبض في صدغه عرق أزرق : فلأصبر قليلا · ولذّت اللعبة للمختار فعاد يهمس :

ـ وعمك ؟ ألم يسبب لك وجعا ؟ ·

فأطرقت ولم تجب · فألح عليها مطمئنا بأن هذا السؤال ضروري لتبرئة ساحتها من التهمة الشنيعة ، فأجابت شاكية بغمغمة ناعمة :

ـ حشا فمي بالتراب ، ووضع على رأسي حجرة كبيرة ··

ـ مليح ·· والآن أنت ، اسمعي ، هذا هو السؤال الاخير ، أنت الآن كما كنت ·· أعني امرأة ·· أعني كيف أقول ؟

وكانت فهدة تراقب زوجها طوال الوقت ، فأحست احساسا مبهما بأنه في سبيله الى تحطيم شيء ثمين ، وليس من حوله غير الرؤوس ، فانتفضت بغتة ووقفت في طريقه قبل أن يتحرك · وفي اللحظة نفسها ، حدث بصورة مفاجئة ما يحيّر العقل ، فقد هبّت عاصفة عاتية أخمدت من عنفها النار التي كادت تندلع · وكما يصب برميل من البترول على جمرة متوقدة ظهر في الباب صالح الذياب بلحمه ودمه ·· وقبل أن يفيق الجميع من ذهولهم ، هجم الشيخ بلا تردد على جدعان ، ولو كان يحمل في يده خنجرا لاستطاع أن يغمده في صدره حتى القبضة قبل أن يحرز المطعون فرصة للدفاع عن نفسه ، ولكن من حسن الحظ أن الشيخ لم يكن يحمل غير فيض من المشاعر الطيبة ، اذ سجد علىَ الارض وراح يمسح شاربيه بقدمي خصمه ، ويهمهم :

ـ كاذبة أمينة كاذبة ٠٠ اسمعوا عرفت الحقيقة ٠٠ عرفت كل شيء ٠٠

ثم نهض يلهث كالكلب الحران :

ـ تعاموا معي لأشرح لكم القصة ، هيا ، الى الفلاحة ، كنت هناك ، واستردت وعيي على رائحة التراب ٠٠

وأمام دهشة الجيع ، وضع جدعان ساعده على كتف عمه ، وقال له في رزانة وثقل :

ـ عماه ٠٠ كن مطمئنا ، فأنا لم أصدق ، ولن أصدق كل ما قيل من هذر ٠٠

وقاد عمه الى الركن وأجلسه متابعا :

ـ لم يخطر لي أبدا أن تكون فرحة ضحية لك أو لأحد ، لا تخف مني فلن أؤذيك ٠ وأنا أراهن اذا كان قاسم لم ينل فرحة كما تدعي أمه فهي ما تزال بكرا ٠٠ لهذا أريد أن يرجع كل شيء كما كان ٠٠ كما هو لازم ٠٠ عيب يا جماعة الخير ٠٠ عيب يا ها الرَبع ٠٠ خافوا الله ، فهل نحن كلاب أم بهائم ؟ كيف تصدقون ؟٠

وقبل أن يتيح فرصة لأحد كي يتكلم أضاف جدعان :

ـ وبالمناسبة اذا كنت غير قادر على تأديب زوجاتك وقطع السنتهن ، فسأتكفل أنا بالامر ، والسلام ٠٠

وهز المعلم رأسه طربا ، بينما صعق المختار والفقير لترتيب الحوادث ٠ وأجهش صالح الذياب في البكاء ناعيا :

ـ يا حسرتي على آخرتي ٠٠ آه يا ابن أخوي ٠٠ يا أخلص خلق الله ٠٠ أقسم لك حتى تصدق ٠٠ آه آه ٠ كل الحق على زينب ، على زينب ٠٠

ورد جدعان في رباطة جاش ، في حين قال المختار : بدأ يخرّف :

ـ لا أدري من هي زينب هذه ، ولكني أصدقك على أية حال ٠٠ ساعدني على ارجاع فرحة الى دارك وأنا أتكفل بالباقي ٠٠

كان جدعان يتصرف في ثقة ، ويصدر تعليماته متجاهلا وجود المختار

وعضويه حاطا من اعتبارهم • وقد نهض الضيوف يلمون أطراف عباءاتهم • وقال المعلم :

ـ انتهينا اذن على بركة الله ••

أما المختار فقد عبر عن حنقه قائلا :

ـ عش رجبا ترى عجبا ، كما يقول المثل •

فرمقه جدعان بنظرة خالية من أي تقدير :

ـ لن ترى أيّ عجب •• العجب هو ما كنت تقوله وتتفاصح به للبنت ••

وبهت الشيخ نواف لهذه اللهجة غير المنطوية على الاحترام ، وقال في سخرية :

ـ الله الله يا دنيا •• تعلم الجمل العزف على المزمار •• أما صحيح يا شيخ جدعان ؟•

ورد جدعان فورا وفي نبرة جافة :

ـ أنا لست شيخا •• أنتم المشايخ ، أنا فلاح لا إكثر ، ولكني أرى أن المشاكل يمكن حلها بالتي هي أحسن اذا قلّت الاصابع التي تلعب بها ••

وتمتم المختار ببضع شتائم ، ثم لوى رقبته وخرج من الدار يتبعه صاحباه • وكان الفقير لا يقل عن المختار غيظا ودهشة وحنقا • وأراد صالح أن يذهب ، ولكن جدعان أوقفه بلطف وطلب من فهدة التي باتت يقظة منتبهة أن تغلي ابريقا من الشاي ، ثم قاده في هدوء وأجلسه في صدر الحجرة واضعا الى جانبه وسادتين ليستند عليهما •

ظلت فرحة طويلا تتأمل عمها دهشة ، لا أثر للخوف في نفسها • وتساءلت : ترى هل هذا الشيخ الذليل المقلّم الاظافر هو عمي حقيقة ؟ أين ذقنه اذن ؟ • وفهدة أيضا عسر عليها هضم ما حدث ، وقالت في نفسها وهي تخرج ملبّية طلب زوجها : اذا كان هذا أبي حقا فوداعا يا متاعب •• وربط لسان العجوز مزنة عن الكلام ، وأسلمت أذنيها للصمت لتلتقط أدق نأمة •

وقد أراد جدعان أن يختم المشكلة على وجه من الوجوه ، بعد أن أخذ

المختار يخوض في القذارات · وكان يعرف أن الرؤوس نفسها ، اذا أرادت ، وكانت جادة حقا في البحث عن حقيقة ما ، تلجأ الى أحقر السبل ، دون التوصل الى نتيجة ، اللهم ، إلا تعقيد القضية ، وتأريث نار الفتنة · فما هذه الاسئلة الدنيئة السافلة التي كان المختار يطرحها على أخته ؟ هل كان يتقصى معرفة القضية ، أم كان يهزل ويتسلى ؟· وعندما فوجىء بعمه ينتصب أمامه قبل أن ينقض عليه ، وجد نفسه في موقف يشبه الموقف الذي عاناه في الامس ، ورأى أن الخطر يحف به من كل جانب ، فهو لا بد سيرتكب جريمة ما ، ودون أن يتخذ للامر عدته ، ألفى نفسه يقول ما قاله ، وعجب كثيرا للنتائج الطيبة التي أسفر عنها كلامه ، فقد كسب عمه الى صفه ، وبهذا ربح نصف القضية ·

وتقدم ليجلس في القرب منه · وحانت منه التفاتة الى أمه فوجدها تكبو ، فطلب اليها الذهاب الى النوم ، وأطاعت العجوز بلا جدل ، وخرجت تتلمس بأصابعها حنادس الليل · وقال صالح الذياب وهو يرزح تحت وطأة التكفير وقد تدلت عيناه فوق صدره :

ـ هل آذيتك يا حبيبتي ؟·

وردت فرحة باسمة :

ـ لا ·· ولكن أرعبتني كثيرا ··

فهز رأسه خجلا وقال :

ـ لو تعلمين ؟· كنت أنا نفسي أموت من الخوف ·· وكدت أذبح نفسي · (فارتعدت) لم أكن أراك أنت ، ناديتك زينب ها ؟ هذا هو الشيطان الموسوس ، لعن الله كل الشياطين ·· (والتفت الى جدعان) : جدعان ، يا ابن أخوي ·· أما تزال غاضبا مني ·· من عمك ؟··

ورد جدعان في اختصار وكأن فكرة ما تقلق باله :

ـ لا ، ويمكن أن نعتبر الامر منتهيا ، ولكني أريد أن أعرف ··

وصمت · ويبدو أن صالح عرف ما يجول في خاطر الشاب ، ولكنه سكت أيضا · وتسربت من فجوات الباب قطع ندية من الليل تحمل رائحة الدخان · فتراقصت ذبالة السراج في جذل وكأنها تهتف : هيا تكلما ·· وقال جدعان واجف القلب :

ـ سترجع فرحة غدا يا عمي أليس كذلك ؟•

وأفاق الشيخ ، ورد في لهجة صافية :

ـ ترجع ، لمَ لا ترجع ؟ من قال هذا ؟ أمينة ؟ المرأة المصروعة ، انها طالقة على أية حال ، ولم تخصني في شيء ، قاسم هو وليّ الامر ، وسندعوه الآن ، أين فهدة ؟•

قال جدعان متهلل الأسارير :

ـ راحت تخبز •

وأضاءت عينا الشيخ :

ـ فهدة ، انها امرأة طيبة ، ألم أقل لك ؟• أنا لا أكذب •• ان العنز الجرباء تلد دائما سخلة نظيفة ، ألا تجدها كذلك ؟ ليس في العمل فقط بل في الفراش أيضا •• (وغمز بعينه في خلاعة) كيف وجدتها ؟

وأطرق جدعان برأسه خجلا ، ورد قبل أن يتورط عمه في حديث شائـن :

ـ مليحة •• مليحة •• ما شاء الله عنها •

وفرك الشيخ يديه منشرحا مسرورا ، وكأنه يقول : ها أنا ذا على علاّتي انسان نافع ومفيد •

وقالت فرحة على حين غرة :

ـ وقد كشَفتَ عليّ أيضا ••

وسادت فترة صمت قصيرة جدا ، وكانت كافية لتحدث المفاجأة ، وانتفض جدعان صائحا كالملسوع ينهبه القلق :

ـ وماذا قالت ؟

وردت البنت بلا اكتراث :

ـ ما قالت شيئا ، ولكنها قبّلتني من هنا ••

ولم يدر جدعان ما يفعله من فرط التأثر ، ثم اندفع الى الليل مناديا :

ـ فهدة ، فهديييييه ٠٠

وركض الى الفرن ، وهتف وسط الدخان العابق :

ـ فهدة ، لماذا لم تخبريني لماذا ؟٠

ـ بمَ ؟ بأي شيء ؟٠

ـ انك كشفت على فرحة ٠

وابتسمت المرأة من خلال دموعها التي تفيض في سخاء من حرقة الدخان ، وأجابت :

ـ كنت أترك لك النبأ الى حين آخر ٠٠

واذا كانت البنت صاحبة الغرم ـ كما يقولون ـ قد أذاعت السر بلا اكتراث ، فان عمها صعق من الفرح ٠ كان كمحكوم بالاعدام خففت عقوبته دفعة واحدة الى البراءة ٠ وهو عندما جاء الى ابن أخيه ساجدا مستغفرا لم يكن يهدف الى تبرئة نفسه من الجرم الذي يشك في اقترافه ، بل جاء قاصدا معرفة الحقيقة من البنت نفسها ٠ وهو ان شجب مزاعم زوجته أمينة ، لم يفعل ذلك عن قناعة تامة ٠ كان يعلم أن ادعاءها ليس الا ظنونا فأراد وهو نهبة للشك ، أن يكسب الوقت ريثما يتجلى له الموقف في وضوح ٠ وكان ان ترك داره فور مغادرة المختار ، وذهب الى الفلاحة ليستعيد ذاكرته التي فقدها ابان الحادث ، ولكنه لم يفلح الا الى حد ٠ وحفظ من المختار اسم زينب ، فعكف على ترديده طوال الوقت ، وفي صدره يرفرف كطائر جريح ماض سحيق ، يستشم فيه الحصاد ، ويكوي جبينه كرمض قاس ٠ ومهما يكن رأي السيكولوجيين في هذه المعضلة ، فقد أمسك هو ببعض خيوطها أثناء خروج روحه من جسده بعد وقت غير بعيد ٠ اذ قتل في حادث بشع بينما كان يهيم على وجهه مجنونا متشردا جائعا في أحد شوارع دمشق ٠

وكان قد نجح ـ بعد حادثة ليلة العرس ـ في تأديب جسده ٠ ولم يكن نجاحه بفعل السوط ، بل بالهرب الى الفلاحة ٠ وفي ظهيرة ذلك اليوم عندما وافته البنت بالخبز والتفت ليراها تنتصب أمامه ، حدث له ما يشبه الرؤيا ٠ فقد تمثل أمامه امرأة معينة ، وغاب عن حاضره ليعيش في ماضيه ؟٠

فمنذ أربعين سنة أو تزيد ، كان يقود فريقا من العمال والعاملات

الزراعيين لخدمة أحد ملاّك الاراضي لقاء عمولة يتقاضاها من الفريقين ، وقد وجد نفسه ابتداء من اليوم الاول زميلا لامرأة فتية شقراء ممتلئة الجسد لها طفل رضيع ، تحمله على ظهرها أثناء العمل · وعندما يبكي الطفل كانت تجلس على الارض وتخرج ثديها لترضعه · وكان يراقبها وهي تكشف عن ساقيها وفخذيها من جراء الحر والنصب ، وكانت تقضي حاجتها الجسدية في المكان الذي تجد نفسها فيه تحت ستار ثوبها دون أن تبتعد كثيرا ، وذلك لكسب الوقت والرزق · وكان الفتى يأكلها بعينيه الجائعتين متمثلا ما تجود به مخيلته من صور : ستكون مرة نائمة و ·· أو عندما تقرفص بين السنابل لتبول ·· أما اذا صرخت فسأحشو فمها بالتراب وأضع على رأسها صخرة · ماذا لو غُرست في قدمها شوكة ·· شوكة ·· شوكة ·· وأعجبته هذه الطريقة ، فراح في خياله ، وطوال الوقت ، وفي الليل خاصة ، يتقلّب على الجوى وهو ينزع الشوكة بأصابعه المرتجفة ، ثم يجلد عميرة ويستريح ·· الى أن كان اليوم الذي تحقق فيه حلمه بحذافيره ·

كانت تجلس على الارض في هجيرة يوم من أيام أيار القائظة ، واضعة قدمها الصغيرة في حجرها ، تعالج سحب شوكة أدمت الكعب · كانت تلهث من التعب ، ويتصبب من جبينها وصدرها عرق غزير · فتسمّر الى جانبها ، مشدوها أخرس ، وكأنه يعيش في أحلامه التي لن تصبح حقيقة · فصرخت فيه وقد أغضبها سلوكه : شوكة يا حمار ·· وكانت هذه آخر كلمة سمعها من المرأة ، وبالتالي آخر صورة لها في ذاكرته · اذ تركها ومضى خجلا حائرا الى منـاظرة العمال ، وهو يلعن جبنه وتخاذله · ثم طرد من العمل في اليوم نفسه ، ليغيب بعدها زمنا طويلا في مرض خطير ، قيل انه تسمم في الدم مع حمى في النخاع الشوكي · ـ

· · ·

أقبلت فهدة تقزل في مشيتها ، وهي تحمل الخبز والشاي ، مشرقة مهللة الاسارير · وطلب أبوها اليها أن تذهب لاستدعاء أخيها قاسم على الفور ، ثم أوقفها :

ـ انظري ·· هل عندكم ما أنام فيه ؟ اجلبي اذن معك فراشا ، فأنا أريد أن أنام هنا ، عند ابنتي ··

ورحّب جدعان في حماسة :

ـ يا حيّا الله ٠٠ يا حيّا الله ٠٠ أهلا وسهلا ومرحبا ٠٠ الدار دارك ٠٠

وخرجت فهدة مسرعة لتصطدم بشبح متوار عند باب الدار ، فأجفلت شاهقة :

ـ خالة سليمانة ٠٠؟

ـ هس ٠٠ ماذايفعل صالح عندكم ؟

كانت سليمانة قد أحست بخروج زوجها من الدار ، عقب وصوله بقليل ، فتعقبّته متسترة حتى الفلاحة ، حيث راحت تراقبه وهو ينكش الارض ، ويدور حول نفسه ويخاطبها مبربرا ساهما ٠ ثم تبعته الى دار جدّعان ، فشهدت فصل المصالحة بغرابته ٠ وفي الوقت الذي خرج فيه الشيوخ الثلاثة ، هرعت الى دارها لتعلن عن أن صالح قد جنّ تماما ، ثم عادت الى هنا لتتسقط آخر الانباء ٠ وأجابتها فهدة حذرة ، وهي تزن كل كلمة ، وكان واضحا أن الثقة مفقودة ما بين المرأتين :

ـ انه لا يفعل شيئا ٠٠ ولكنه تعب قليلا ، وأنا ذاهبة لأجلب لـه فراشا ٠

وصفرت سليمانة متعجبة :

ـ فراش ٠؟

ـ فراش ٠٠ و ، يريد أن يرى قاسم

وفحّت المرأة في الظلام :

ـ ماذا يطلب منه ؟ ماذا ؟٠

ـ لا يطلب شيئا ٠٠ دعيني أذهب ٠

وافلتت من بين يديها ، وتابعت طريقها مسرعة تعلو وتهبط وكأنها تركب جملا ٠ وقد وجدت أمها في حجرة الدار السفلى وحيدة ٠ فأفضت اليها برغبة أبيها ٠ وأجابت الام قلقة :

ـ ولكن كيف نستطيع اخبار قاسم ؟ فقد حجزته أمه في العلّية ٠

ـ سنرتب الامر ، ولكن اريد أن أسالك ، هل صدّقت أنت أن أبي أخذ وجه ابنة عمي ؟

وأشاحت الام بوجهها مخفية ضحكة كريهة وأجابت :

ـ لا ٠٠ لم أصدق ٠

ونبرت فهدة في وجه أمها غاضبة :

ـ لماذا لم تدافعي عن شرفها إذن ؟

وتقلّص وجه الام في حقد ، أضفى عليه مزيدا من البشاعة ، وهرّت من حلقها :

ـ أمة علي تندب علي ، لماذا لا يكسّر الفخار بعضه وأستريح ٠٠ أنا أعرف أن فرحة ما زالت بكرا ٠٠ عرفت من ٠٠

ثم توقفت متحصنة بسر معرفتها دون أن تبوح به ، ولعلّها كانت هي التي أعانت فرحة على الوصول الى القرية ليلة الحادثة ٠ ونهضت قائلة :

ـ انتظري هنا ، لربما أفلح في خطف قاسم لأرسله معك ٠

وتوقفت فجأة معقّبة :

ـ ينبغي لك أن تعلمي أننا اتفقنا على ارجاعك الينا أيضا ٠٠

ولم تلتفت الى اعتراض فهدة التي سقطت جزعة لهذا الخبر ٠

استطاعت أم فهدة أن تقنع أمينة بضرورة مواجهة قاسم لأبيه ليحسم الموضوع ، وليتم الرجوع عن هذه المبادلة من أصلها ٠ وحين عبّرت أمينة عن مخاوفها من انتقام جدعان بولدها ، طمأنتها بأن جدعان لن يمس قاسم بسوء ، زاعمة أن جدعان نفسه قد بات يأمل في أن يزوج أخته زواجا أكثر ربحا ٠ وما كانت هذه الخدمة التي أدّتها أم فهدة لابنتها ، الا جزء من تدابيرها الخبيثة ٠

وحملت فهدة فراشا ، ثم ساقت أمامها أخاها ، الذي بات في الآونة الاخيرة عبدا لمشتهيات الضرائر الثلاث ٠ أما هي فراحت تدور في دوامة من الهواجس : ترى ما سيحدث اذا اتفقت العجائز على الرجوع عن المبادلة ، وهل

يقبل جدعان ؟ وقالت لأخيها وثقل الفراش يحني رأسها حتى ضاع شكلها في الظـلام :

ـ قاسم ·· أنت لا تحبني ، ولكني أقول لك ولا أكذب : ان فرحة ما تزال بكرا كما هي ليلة العرس ·· وأمي تعرف هذا أيضا ·· ولك هل تشك في أبينا ؟ ولو ·· أين المروءة ؟ كيف تصدّق نهيق أمك ؟ ولك أما تحبها ؟ ولك وحق الصحابة الطاهرة انها تساوي كل بنات الديرة ·· بنت زينة وما شاء الله عنها ·· بس يا حيف ·· يلعبون بعقلك مثل الجدي ·· ولك كن رجلا ·· أنت ما انت صغير ·· لا تخف ·· سترفع لك ساقيها عندما تريد ، وسترى ··

وكانت تلهث ، وتجهـد أفكارها لتسوق كلاما جديدا يقنع أخاها ، ولتحرضه على التمسك بفرحة ، ولتحثه على رفض الرجوع عن المبادلة · وكان هو الى جوارها يتخبط مفكرا : كيف يتم الامر عندما أعرّي فرحة من ثوبهـا ؟ هل تضحك أم تبكي ؟ وهل تقبل ولا تمانع ؟·

ومرت سليمانة تهرول من قربهما دون أن تراهمـا ، وكانت تبربر مأخوذة :

ـ يا خراب بيتك يا صالح الذياب ·· هي البنت عذراء ؟·

وطارت الى دارها لتعلن عن النبأ المشؤوم ·

(١١)

كان المعلم (الخجا) واسمه حسن الصبح شيخا في حوالي السبعين من عمره • وهو أرمل ، ضئيل القد ، صغير الرأس ، تميزه لحية رفيعة كالعثنون ، وصوت أجش غليظ • وكان أبوه ناسكا ، مُعرضا عن الدنيا طمعا في كسب الآخرة • فأراد أن ينشىء ابنه على شاكلته • حمله ذات يوم الى جامع ازرع ليخدم الامام وينال العلم على يديه • وقام الابن بالواجب ، فتعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم • وعاد الى القرية بعد سبع سنوات على قدر كاف من الفهم والتعقل • وباعتبار أنه صار المتعلم الوحيد في القرية فقد افتتح في دار أبيه (كتَّابا) لتعليم أبنائها ، لقاء أجر سنوي من الحنطة أو المواشي ، في حين ظل يتردد على شيخه كل جمعة ليكتسب منه مزيدا من العلم والفضيلة •

وسأله شيخه ذات يوم :

ـ هل جمعت شيئا يا حسن ؟

فاجاب الطالب الشاب في تادب :

ـ والله جمعت كوارة عدس وكوارتي حنطة وشعير وبضعة رؤوس من الغنـم •

ورد الشيخ ناصحا :

ـ مليح ، اذن ينبغي لك الآن أن تكمل نصف دينك ، وسأزوجك ابنتي وستفي باقي الثمن عندما تجمع قدرا آخر من الرزق

ورضخ المعلم الصغير للامر وتزوج ابنة شيخه التي تكبره بعشرة أعوام

وكانت تشكو من علة خبيثة ٠ وعندما اطمأن الوالد لمستقبل ابنته ، سلّم روحه الى بارئه راضيا مرضيا ، دون أن يترك غير طيب الذكر ٠ ولكن اسم الفقيد لم يختف من الدار غير مدة وجيزة ٠ اذ سرعان ما عاد يتردد عندما أنجبت الزوجة وليدا أطلق عليه اسم جده (صبح) ٠ وكان صبح خاتمة حياة أمه أيضا ، فقد ظلت مغمضة العينين دون أن تكتحل برؤيته ، وكأنما قُدّر للدار أن لا تتسع لأكثر من اثنين في أيسر الحالات ٠

وملأ الطفل فراغا كبيرا في حياة أبيه المعلم ، فرباه واعتنى في تعليمه حتى شبّ عن الطوق ، فتطوع في الجيش ٠ وكان حسن سلوكه ونظافة سجله سببا في ترفيعه التدريجي حتى عام ١٩٤٨ حيث استشهد في معارك فلسطين ، فأدرج اسمه في سجل الخالدين ٠٠ وبعد مدة قصيرة وصل الى قرية الصبرة ـ قضاء ازرع طرد صغير مختوم باسم حسن الصبح ٠ وكان الطرد يحتوي على وسام فلسطين مع منحة مالية ضئيلة وميداليات شرف أخرى ، علقها المعلم على الجدار الاسود ، وراح يقتبس منها تعريفا جديدا للحياة وللافكار الوطنية والقومية ٠

وليس هو الحزن أو اليأس الذي جعل المعلم يغلق (كتّابه) ويشتري بما جمعه قطعة أرض ليزاول الفلاحة ، بل هو حب الحياة ٠ فقد فكر بأن يتزوج مرة أخرى وينجب أولادا يفخر بهم ، ويعلق أوسمتهم على الجدار حتى يمتلىء صدر الحجرة بالنياشين والميداليات ، وما زال هذا الامل يراوده حتى الآن ٠٠ وقد أدخل ذلك الطرد البسيط تحولا كبيرا في حياة الرجل ٠ لم يدرك في البداية ماهية الخبر الذي نمي اليه عن ولده ، ولكن عندما فتح المظروف اكتشف وجود نفسه ، وتساءل بكثير من العجب : لم أكن أعلم بأني على هذا القدر من الاهمية في الحياة ٠٠ أنا اذن انسان معتبر ٠٠

وعندما توصل الى هذه الحقيقة ، وجد نفسه مسؤولا عن كثير من القضايا التي يعانيها مواطنوه ٠ وملأت صدره الحماسة ، فرشح نفسه لمختارية القرية ٠ غير أن أمورا مادية جعلت الشيخ نواف يسبقه الى هذا المنصب فقنع المعلم بأن يكون عضوا ، وبهذا يكون مفيدا على أية حال ٠

أما الفقير فكان على النقيض من المعلم ، مهملا ، كسولا ، عديم الايمان بالهدف ٠ ترك أرضه مرتعا للشوك والفئران بعد أن أفنى والده حياته في

الحصول عليها • وكان أن زاول الفلاحة ردحا من الزمن الى أن اختفى أبوه في ظروف غامضة ، فذهب للبحث عنه • وكان لا يزال صبيا طائشا ، تلعب برأسه المعارف الهزيلة • والتقى خلال تجواله بأحد الأفاقين فرافقه ، آملا في أن يكون وسيطا لاستحضار والده المفقود ، أو روحه اذا أمكن • وصار بمرور الايام تلميذا ومساعدا له ، ناسيا ـ في غمار حماسه لبدَع الرجل ـ مهمته الاساسية من وراء تركه قريته وأرضه • يتشرد معه من مكان الى مكان ، وقد اكتسب معظم صفاته وأخلاقه • أرخى أولا للحيته العنان ، واستعار من أستاذه سمادا كريه الرائحة يجعل اللحية محافظة أبدا على شكلها الكث وبياضها الناصع ، ثم ارتدى لباسه المؤلف من ثوب أبيض ، وقطعة حبل تربط الشملة الى رأسه •

وذات يوم ، وكانا قد وصلا في طوافهما الى جبال الساحل ـ افترشا لنفسيهما مكانا في ظل كثيف لأشجار السرو ، وراحا يتناولان طعامهما • وأخرج الحاوي من جرابه زجاجة نبيذ ، ونظر الى مساعده قائلا :

ـ ايه يا محمد •• ألا تشرب معي ؟

وكان الشاب ، الفقير الصغير ، يظن أن التصوف من مقتضيات المهنة ، فأجاب :

ـ ان ذلك محرّم فيما أظن •

وضحك الشيخ ملء شدقيه اليابسين وقال :

ـ انك تخطىء يا ولدي في تعريف الحلال والحرام ، من أجل هذا أرى أن عليّ أن ألقنك درسا وأجري على الله •

ورفع الزجاجة الى فمه وأفرغ نصفها في جوفه ، وسأل :

ـ هل تعرف أولا ما هي القوة المسيطرة على هذه الارض ؟•

وأجاب الشاب دون أن يبذل جهدا في التفكير :

ـ اذا لم تكن قوة الله فقوة من اذن ؟•

ولكن الشيخ رفع يده النحيلة معترضا ، وقد اتسمت تعابير وجهه المقددة بسيماء عبقرية :

ـ هناك قوتان تتصارعان بلا هوادة : قوة الله وقوة الشيطان ٠٠ قوتان جبارتان طاغيتان تحاول كل منهما التغلب على الاخرى بلا جدوى لانهما متعادلتان تعادلا تاما ٠ ولكن عندما تخور احدى القوتين ، أو ترجح كفة على أخرى ، يحدث ما يحدث في الارض من زلازل وطوفانات ونكبات أخرى ٠

وحمل الزجاجة الى فمه وعبّ منها ثم تابع كهانته :

ولكل منهما ، الله والشيطان ، أنصاره ومريدوه بين سكان الارض ٠ وقد وعد الله جماعته بجنة وسعها السموات والارض تجري فيها أنهار خمر وعسل وفيها فاكهة وحور عين ٠٠ اذا اتبعوا طرق الهداية ، هدايته ، وتنكبوا عن طرق الضلال ، طرق الشيطان خصمه ، واستطاع بواسطة رسله أن يرسل الى الارض كتبا أبانت ذلك بالتفصيل٠ فجن جنون الشيطان ، ماذا يفعل ٠؟ اضطر أن يقوم بهذا العمل بنفسه وبصورة عملية ، فخلق في الارض كل الملذات التي وعد الله بها أتباعه في الجنة ٠ وقد ربح بذلك ربحا عظيما ٠ جعل الكثيرين يؤمنون ، أو بالاحرى يقولون المثل : عصفور باليد خير من عشرة طائرة ٠

وأفرغ الحاوي محتويات الزجاجة في حلقه ، ثم أعادها الى الجراب ، وقد احمرت عيناه وراحتا تغزلان في حزن أفكارا جديدة ٠ وسأل :

ـ ام ، أين وصلنا ٠؟٠٠ خير من عشرة عصافير طائرة أليس كذلك ٠؟ ماذا تريد أن تعرف أيضا ٠؟

ورد الفقير الصغير وقد أسكرته هذه المعجزات سائلا في تعجب :

ـ ولكن من خلق الشيطان ٠؟

وقال الشيخ وقد التوى لسانه :

ـ الله ٠٠ الله هو الذي خلق الشيطان أول ما خلق ليجرب بـه الطينـة الملعونة ٠ وكان يريد أن يصنع سائر الخلق على شاكلته ، ولكن عندما نفخ فيه من روحه امتلأ وارتفع عملاقا شاهقا رهيبا ، قدماه في الارض وقرناه في السماء، ثم صرخ صرخة مدوية استمرت قرنا أو يزيد ، فغيرت شكل الارض الاول من أساسه ٠ اذ ارتفعت الجبال ، وسقطت الوديان ، وفاضت الانهر والبحار ونبت الشجر الخ ٠٠ الخ ٠ وانقض الخالق على صنيعته يريد أن يخمد أنفاسه ، ولكن ا كان من القوة والجبروت بدرجة خطا فيها خطوة صغيرة ليصبح بمنأى بعيد،

وعرف لاول وهلة أن له أجنحة فجربهما ، واذا به يطير بين السماء والارض محدثا العواصف والرعود ٠

وتفرس الشيخ في وجه تلميذه ليستطلع مدى تفهمه وهضمه لهذه الافكار ثم تابع :

ـ وعندما وجد الله أن أول خلقه قد أفلت من بين يديه ، قال في نفسه : « يجب أن أصنع البقية أصغر حجما ، فصنع آدم الذي هو أبونا الاول ٠ وكان هذا أقل تمردا من أخيه الكبير ، وذلك لضعفه وصغر حجمه ٠ فلم يعص خالقه الا بعد مدة ، وذلك عندما وجد الى جانبه امرأة ٠

وصمت قليلا ليسأل فجأة :

ـ هل جرّبت المرأة في حياتك يا محمد ٠؟

وصعق الشابّ بهذا السؤال ورد في اختصار :

ـ لا ٠٠

وأطلت من عيني الحاوي نظرة رثاء وقال :

ـ اذن لم تكتشف وجودك الحقيقي بعد ، وعلى كل حال لا بأس ، سأعلمك في حينه كيف تقطف هذه الثمرة القاتلة من فرط ما هي شهية ٠ هذه الثمرة التي قذفت بأبينا من السماء الى الارض ٠٠ (وردد بصوت خافت) : وقيل اهبطا بعضكم لبعض عدو ٠٠

ثم عاد يشرح ، ضاغطا على الكلمات ليخفي ارتجاف لسانه :

ـ وخشي الله أن ينتج آدم ذرية عاقة تزحم الارض وتعيث فيها فسادا فخلق الملائكة ٠٠ خلقها بأعداد كبيرة لا يحصرها حصر ولا حدّ ، خلقها دقيقة الحجم بصورة لا ترى ، وأرسلها الى الارض لتتجسس على أبناء آدم وتنقل اليه أخبارهم ٠ ثم نادى الشيطان، وكان هذا يمرح ويسرح ملء السموات والاراضي الاربع عشرة ، وقال له متشفيا مهددا متوعدا : « أيها الشيطان الرجيم ، أيها الخارج عن طاعتي ، المتوغل في معصيتي ، اني خلقت غيرك من العباد غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، ليرغبوا الي ، ويفرغوا الى عبادتي ، ويسبحوا بحمدي ، ولن تجد بينهم لنفسك عضدا أو سندا ٠ ولكن الشيطان أرعد بضحكة

مجلجلة ، وأجاب في قحة : « لن أجعلك يا ربي تطمئن أو تستريح أو تأخذك سنة من النوم ، وسأطغين عبادك أجمعين • » ورد الله منذرا بالويل والثبور وعظائم الامور : « وعزتي وجلالي ، اما من تبعك منهم فسأدخله جهنم وبئس المصير • » وقال الشيطان : « الايام بيننا وسنرى من الظافر • فقد أغويت من البداية عبدك آدم بطرفة عين ، ثم جعلت ولديه يقتل أحدهما الآخر ، والبقية تأتي • وتميز الله غيظا ، وصرخ في الشيطان : « اذهب عليك لعنتي وغضبي الى يوم الدين ، وعزتي وجلالي لاجعلنك مع من تبعك لجهنم حطبا • » وارتجفت الملائكة أمام هذا التهديد وهذه اللعنة ، فبكت بدموع ثخينة ، تساقط المطر من جرائها على الارض مدرارا •

وصمت الشيخ مهموما ، وكأن ما قاله انصب على قلبه كالحديد المصهور ، في حين فكر الفقير في نجابة : « ان هذا ما يهمنا نحن الفلاحين بالدرجة الاولى » • وسأل الشيخ :

ـ بم تفكر يا بني •

فأجاب التلميذ :

ـ اني قرأت شيئا من هذا في القرآن عند المعلم في قريتنا •

وبرقت عينا الشيخ في لهب أزرق وقال :

ـ أنت لا تكذبني ها •؟ اياك أن تشك في أني أقول الحقيقة ••

ورد الشاب مفصحا عن شكه :

ـ ولكن المعلم فسر طرد آدم من الجنة لانه أكل من الشجرة كما ، ورد في القرآن •

وهتف الشيخ بغتة :

ـ هذه هي الشجرة •• هذه هي الشجرة •

وتلفت الشاب الى حيث يشير الاستاذ ، ليلمح امرأة تسير قريبة على طريق ملتوية ، تتلفت حولها وكأنها تبحث عن شيء ضائع • فصاح فيها الافاق :

ـ هيه •• هيه يا بنت ••

فتوقفت المرأة والتفتت ناحية الصوت • كانت قد جاوزت سن الشباب ، ترتدي ثوبا زاهي الالوان وتحمل في حجرها شـيئا ، وقد ظهر تحته سـروالها الطويل الممزق • وسألت في لهجة ثاقبة خاصة :

ـ أما رأيتما في هذه الناحية جديا صغيرا هاربا •؟

ونهض الافاق مسرعا ملوحا بيده وهو يقول لتلميذه :

ـ انتظرني هنا ريثما أعود •

واجتاز بضع أشجار كثيفة الى أن وصل الى المرأة • وهناك شاهده الفقير يحدثها حديثا وديا ثم يسيران جنبا الى جنب صعودا في الدرب المتعرجة الى أن اختفيا عن أنظاره • وبعد انتظار طويل ، استبدّ به القلق ، فحمل الجراب الجلدي الموشّى بالخرز الملون ، وبقطع متنافرة من المعادن الصدئة ، ووضع فيه بقايا الطعام ، ثم راح يتبع الاثر بعد أن أحكم ربط الجراب الى كتفه • وكان الجراب ثقيلا ، يحوي : خليطا من الكتب الصفراء من مختلف الاحجام ، وزجاجات من العقاقير المركبة التي صنعت خصيصا لخلق الامراض ثم علاجها ، وأوراقا مصرورة لأصباغ وبخور .وأعشاب تستعمل لكثير من الشؤون ، وأنياب ذئب ، وقواطع وحش ، ومخالب طيور ، وجمجمة بشرية ، بالاضافة الى : شموع ملونة ، وسوائل محرقة ومذيبة ، وحفنة رمل أحمر ، وورق لعب و ••• باختصار ، كل ما من شأنه أن يوصل أفاقا الى الرغيف •

وبعد أن صعد الفقير دربا طويلة تكتنفها الرهبة من كل جانب ، وجد نفسه في غابة مظلمة كثيفة متشابكة الاغصان ، لا يرى من خلال سقفها الاخضر بصيص من نور السماء ، وانقطعت الدرب في تلك النقطة • وجلس على الارض ليستريح ، وفي خاطره يجول حديث معلمه عن الله والشيطان • وراح يتساءل : ترى لمن ستكون الغلبة ؟ ولأي منهما ينبغي له أن يتحزّب ؟ وقال في نفسه : لا شك في أن معلمي يؤمن بالشيطان ومنه يستمد العون وتحقيق المعجزات • وارتعد فجأة على نعيق طائر فوق رأسه ، ثم هرب الطائر الغريب تاركا الاغصان تصطفق من ورائه اصطفاقا يبعث البرودة في الجسد • ونهض الفقير باحثا حوله مليّا ، ثم قرر : انه لا يمكن لبشر أن يتجاوز هذا المكان ، فأين اختفيا اذن ؟ واعترته رجفة خفية • وخطر له خاطر مباغت : لربما انهما لم يصلا الى هنا ، ولكن أينهما على أية حال ؟ فحمل جرابه على الفور وعاد أدراجه •

كانت الدرب تنحدر على كتف واد سحيق ، مجرد النظر الى حافته يبعث على الدوار • تسمع من جنباته ضجة مبهمة قصية الاثر • والتفت الشاب الى اليسار ، واصاخ السمع مليا ، فتجلت له الاصوات أكثر وضوحا : لا شك في أن هذا الوادي هو وادي الشيطان ، وها هو ذا صوته يرقص على مزامير سيدنا سليمان • وجمد الدم في عروقه حين تذكر شكل المرأة ، لا شك أنها جنية حقيقية ، تسكن هنا وتختفي مع صيدها كالاثير • وأطلق ساقيه للريح ، منحدرا في الطريق حتى أدركه الليل في طرْطوس • وعاد أخيرا الى قرية الصيرة بالشكل الذي لاح فيه للجميع بأنه الرسول بُعث حيا •

• • •

في اليوم التالي لحادث المصالحة المثيرة بين جدعان وصالح ، اجتمع المختار وعضواه في المضافة • وبعد أن أوقدوا النار ، انبطحوا حولها يتدارسون الموقف • وقال المختار وهو يشد ذقنه القصيرة ، وكانت الاهانة لم تتبخر من رأسه :

ــ يحيّرني جدعان كثيرا ، فما قدرت أن أعرف الذي في رأسه • فهو كل مرة شكل •

ورد الخجا وهو يقيس طول سبحته :

ــ أنا لا أرى في الموضوع ما يحيّر يا نواف ، فالرجل لمس العقدة في يده فجلّها ضاربا عرض الحائط بكل الاعتبارات •

واعترض المختار حانقا :

ــ أنا أرى الامر من ناحية أخرى • وأخشى أن يكون قد ضحى بشرفه وسمعته طمعا في الدواب والاستقرار •

وانتفض الخجا في عصبية :

ــ أية سمعة وأي شرف تتحدث عنهما يا رجل ؟ أنا لا أرى في الموضوع ما يمس جدعان ، علك صدقت ما تعوي به المأفونة آمنة ؟•

وتكلم الفقير لاول مرة مؤيدا بلبلة المختار :

ــ لا دخان بلا نار يا معلم ، لا دخان بلا نار ••

ولكن المعلم رد عليه مغيظا :

ـ اسكت أنت يا محمد ، اسكت خيرا لك ، ودع لي الرد عليك الى غير وقت (ومضى يخاطب المختار) وقد قال سيدنا علي كرّم الله وجهه : ليختزن الرجل لسانه ، فان هذا اللسان جموح بصاحبه . أما أنت يا نواف ـ اذا أردت الصدق ـ فقد رحت تطرح على البنت أسئلة ما أنزل الله بهـا من سلطان .. كنت تعالج الظنون كحقائق لا تقبل الجدل . وكنت أنا أراقب جدعان من طرف خفي ، وكان يتهيأ للوثوب ، ولا أبالغ اذا قلت ان المسألة أصبحت وسخة للغاية .

وتكدّرت عينا المختار ، وأطلّت منهما نظرة قهر ، وأجاب في نبرة تعتمل بما في نفسه :

ـ أنا سأرفع يدي من القضية يا حسن . وهذا ما تريده أنت ، ولأقل ما يقولونه : فخار يكسّر فخارا .. الحق عليّ من الاول ، كان لازم ما أتدخّل، لان العالم بقر حاشاك ، والحمار تكرّموا عن ذكره يبقى حمارا ولو أطعمته المن والسلوى ..

ورد الفقير معترضا :

ـ لا .. لا يصح أن نترك شؤون الناس ما دمنا مسؤولين عنها .. والناس خلقوا ليحلّوا مشاكل الناس . فلنترك اذن الاهالي يذبح بعضهم بعضا ...

وطرح المعلم ما في صدره المعبّأ تجـاه الفقير وصاح محتدّا مهـددا بسبحته :

ـ اسمع يا محمد .. : اكلمك أمام المختار ، وبعد ذلك افعل ما تريد ، ان تصرفاتك لا تعجبني ، أقول الحق ، ولا أخشى في الحق لومة لائم ، أنت فلاح مثلنا بالدرجة الاولى ، صحيح أنك متعلم ، ولكنك لا تخرج عن كونك أحد سكان هذه القرية المسكينة ، ان عدم اقترانك بامرأة حتى هذا الوقت ، لا أقول انه يقلل من شانك ، بل .. ماذا أقول ؟ بصراحة ، ما سمعته يُهمس به كثيرا .. لا مؤاخذة ، اعني باعتبار أنك تشغل مركز مساعد مختار عليك أن تكمل دينك ..

وامتقع وجه الفقير فبان من لون لحيته ، ولم يبال المعلم الذي احتد كثيرا بانفعال خصمه ، بل أردف :

ـ ان ما قاله جدعان ذلك الفلاح البسيط هو عين الصواب : اذا كثرت الاصابع احترق الطعام ، والموضوع أصبح تسلية لا أكثر ، أنا أعتبر أن خضوع صالح الذياب بين أقدام ابن أخيه كان بمثابة مسك الختام ، فلم الخوض في القضية من أول وجديد ؟٠

ورد الفقير محاولا اخفاء اضطرابه :

ـ ان مشاكلنا يا شيخ حسن لا تنتهي ، واذا أردنا أن ننفض أيدينـا منها ونحن رؤوس القرية فـ ٠٠ الله أعلم ٠ بالامس حدثت مشكلة موت زوجة شحادة المحمد ، ولو لم نتدخل بها لوقع ثلاثة قتلى على الاقل ٠ وقبلها خُطفت ابنة علي الصوص ، ولو لم نصالحهم لما علم الا الله ما كان سيحدث ٠٠ واليوم قصة فرحة و ٠٠ لقد كتب الله علينا أن نكون هكذا ، ولا سبيل الى محو ما كتب الله ٠٠ ولكن علينا أن نلطف من المضاعفات حتى لا يستغلها الشيطان ٠٠

وبرقت عينا المعلم كأنه عثر على كنز ، فاستقام في مكانه صائحا :

ـ الشيطان ٠٠ هذا ما أريد أن أقوله دائما ٠٠ هذه الافكار الـ ٠٠ أستغفر الله العظيم ، المبتدعة ٠ اني في حياتي الطويلة ، وخلال كل القراءات والكتب التي قرأتها لم تمر علي هذه الخزعبلات ٠٠ هذه الـ ٠٠ أخاف أن أذكرها بلساني ، وعلى كل حال ، ناقل الكفر ليس بكافر ، أن تجعل الشيطان في صف واحد مع الله العزيز القدير ٠

ولمح الفقير في عيني المعلم نشوة الفوز فلم يدعه يسكر بهذه النشوة ، فرد في برود :

ـ اذن اعمل بالمثل القائل : لا عين ترى ولا قلب يحزن ، ودع الناس ياكل بعضهم بعضا ، دعهم يترددون في ذنوبهم حتى يهلكهم الله كما أهلك قوم عاد وثمود ٠

وأحس المعلم بأن الفقير بدأ يثوب الى الرشد ، فأراد أن يلقنه درسا هامـا :

ـ نحن نعرف أن قوى الخير ، مهما كانت وافرة ، لا تستطيع أن تعيد التوازن الى حياتنا نحن الفلاحين ، لماذا ؟ لان مشاكلنا هي ليست من صنع أيدينا كما يُظن ، فان لها أسبابا ، وما هي هذه الاسباب ؟ هذا هو السؤال الذي ينبغي لنا أن نطرحه على أنفسنا ، أنت مثلا ، لم تمت زوجتك غرقا ، ولم تتهم أحدا بموتها ، لانه ليست لك زوجة ، كما أنه لم تُخطف ابنتك ، فليس لك بنت • وأختك لم تتعرض لأي اعتداء ، لانك وحيد • ليس لك مشاكل • رغيفك متوفر ، ولا تجهد نفسك في البحث عنه • أما اذا وجدت حولك أفواها فاغرة تطلب اللقمة ، وصدورا عارية تموت من البرد والحر ، فانك حينذاك ستغرق في المشاكل الى أذنيك • هذا هو سبب البلاء الاعظم ، لقمة العيش •

وحدّج زميليه بنظرة متفحصة وهو يزدرد أنفاسه ، ثم أردف :

ـ نحن لا نجد للعيش طعما بدون مرارة ، لاننا اعتدنا على ذلك منذ سقطنا من أرحام أمهاتنا على التراب • ورضعنا السم من أثداء جائعة ، وظللنا نأكله ، حتى بتنا نعتبره هو الغذاء الوحيد الموجود على الارض • تصوروا أننا لا نستطيع العيش بدون حوادث تهزنا كل يوم ، واذا لم توجد حوادث ، افتعلناها افتعالا ، لاننا نعيش في التعاسة والشقاء • وهذا هو الكابوس الذي يخيّم على صدورنا ، بدون أن نقوى على الصحو منه • واذا صحونا فجأة ألفينا أنفسنا ضائعين ، كالطحان الذي يفيق من نومه عندما يتوقف حجر الرحى عن الطحن • أصحيح ما أقول أم هذر ؟ هيّا قولا ••

ولم يجب الرجلان • كانا الى حد ما يحترمان أقوال حسن الصبح ، لانهما أقل منه قراءة ومعرفة • وكفكف المعلم عباءته ، وهمّ بالنهوض وهو يزمجر لاهثا ويمسح أرنبة أنفه ، لولا أن سمع وقع أقدام ثقيلة تصعد درج المضافة • وظهر على العتبة شيخان جليلان بملابسهما الدينية ، الجبّة والعمامة البيضاء ، تفوح رائحة البخور من أردانهما الطويلة • وألقيا السلام بصوت خاشع ، ثم خلعا أحذيتهما وتقدما حافيين لمصافحة المستقبلين •

أُفرد لرجلي الدين المتعبين صدر المضافة ، وفُرشت تحتهما المراتب والوسائد • كان الشيخ عبد الغفور ـ وهو الاكبر سنا ـ يتمتع بلحية طويلة سوداء الشعر متعوب على تشذيبها ، تطل من قسمات وجهه الممتلىء وعينيه الكبيرتين الصافيتين دلائل صحة جيدة • أما الآخر ، وكان يبدو أنه ما زال

طالب علم ، فلم يكن غير ظل لأستاذه ، يراقب حركته فيجاريه على نحو تنفيذها . وتنحنح الشيخ عبد الغفور ، امام الزرع ، وسائر الجنوبي . ثم أفصح عن مهمته ، فيما كان المختار يشرد بأفكاره الى سوء دجاجته معصوفا لتكون ضحية هذه الامسية . والمعلم والفقير يتخذان هيئة الوقار .

قال الشيخ ، انه مكلف من قبل مديرية الاوقاف بالطواف على القرى لعمل الترتيبات اللازمة من أجل صلاة الاستسقاء التي ستقام بعد شهر . موعزا الى المختار بأن يأمر الاهالي بتوزيع الصدقات ، وانهاء الخلافات . واحلال التحابب والتآنس بين المتخاصمين ، والتذلل الى الباري عز وجـل واستجداء الغفران منه ، كما طلب اليه ، أن يصوم القادرون ما استطاعوا من الايام ، وأن يغتسلوا ويتطهّروا من الجنابة ، ليكونوا بين يدي الله أنقياء محللين ، وأن يحضروا معهم الىٰ مكان الصلاة حيواناتهم وأطفالهم وأحياءهم كافة ، مع كل صفائحهم وجرّاتهم . وأنهى الشيخ تعليماته بتلاوة الحديث الشريف : (لولا شباب خُشَّع ، وبهائم رتّع ، وشيوخ ركّع ، وأطفال رضّع ، لصبّ الله عليهم العذاب صبّا .) . وبعد أن امتلأت البطون ، وتجشأت الحلوق ، غادر الشيخان المضافة ، مودعين بالجلال والاكرام . ونهض المعلم في أعقابهم ينفض عن كاهله عبئا ثقيلا .

وفي المساء لعلع صوت الراعي سعدو من أعلى سطح المضافة ، مناديـا الناس ألاّ يذهبوا في الغد الى الحراثة ، حاضّا الجميع نساء ورجالا وأطفالا أن يجتمعوا صباحا في البيدر الكبير . وقد عرف الاهالي بأن شيخا وقورا حضر من الجنوب ليؤم الفلاحين في صلاة غوث الى الله لينزل المطر . وكان الفقير يردد في مكمنه : ان الملائكة تضحك دائما ، ولا سبيل الى استدرار دموعها الا بلعنة صاعقة أبدية .

. . .

(١٢)

قبل شروق الشمس ، كان الاطفال يمرحون في البيدر الكبير ، صغارا شاحبين هزيلين ، يتلوون كديدان الفواكه · تخفق الريح بأسمالهم ، وتمقصهم منزلقة على سطح جلودهم العارية · كانوا يتدحرجون على الارض ، ينهضون ويقفزون ، يمسك بعضهم بتلابيب بعض ، ثم يعودون الى الغوص في التراب الخشن ، صائحين مائجين ، ينشقون مخاطهم ولعابهم في شراهة ونهم · وكانت أصوات أولاد شحادة المحمد تترك في السمع طنينا جارحا لانها اعتادت على العويل · فقد تركتهم أمهم هكذا فجأة بدون انذار · ذهبت منذ سنتين لتملأ صفيحتها من البركة ولم تعد الا في احتفال كبير · جيء بها مسجاة يقطر الماء من ثقوبها كافة ، وكأنها تفيض بالينابيع · ولم تخلد الى مأواها الاخير ، الا بعد أن عُرّيت تماما من قبل الطبيب الشرعي أمام جمع من الناس · حتى أن فاطمة يتيمتها الكبرى ، وكان عمرها ثماني سنوات ، تساءلت في غرابة : ترى لماذا ينبت الشعر في هذا الموضع أيضا ؟·

ثم زحف الشيوخ على أكتاف بعضهم بعضا ، محاولين تنظيف نواياهم · ومن سوء الحظ أنهم كانوا مضطرين من أجل ذلك لان يستعرضوا أحط وأرفع ذنوبهم وآثامهم · وكانت مزنة وهي تتأبط ذراع كنتها تندم على ذكريات تفوح منها رائحة عطرة ·

وكان الشباب في الصفوف الخلفية يتثاءبون ، وكأنهم يدعون الى عمل شاق ، أصعب من شق الارض وتفجيرها بالخير والبركة · وهكذا تناثر سكان القرية في البيدر ، وهم يتشاورون في أمور أبعد ما تكون عن الغاية التي حضروا من أجلها · وتصاعد من أحد الاطراف ثغاء آمنة يدعو أم فهدة الى

الغرس ويلع زبلة · وكان حضور المختار في تلك اللحظة سببا في تأجيل العاصفة التي بات هبوبها وشيكا · وكان الفقير من وزانه ما زال يردد : يا ملائكة الله ·· يا ملائكة الله ·· مبتعدا ما أمكنه عن المعلم ، كيلا يسمع دعاءه · وكان قد اكتشف فيه خصما رهيبا يبطن أكثر مما يظهر ·

وأفلح الشيخ نواف بعد عناء أن يخمد الضجة المتصاعدة · وتقدم من لوسط الى أن وصل الى حجر كبير ، اعتلاه بالاستناد على كتف أحد الاطفال ، ـاستهل خطابه ببعض الشتائم ، ثم ارتفع صوته :

ـــ اسمعوا يا المرابع ·· : ستقام صلاة استسقاء الى الباري عز وجل ، هل تفهمون ؟ أعني صلاة غوث الى الله لينزل لنا المطر · لان الموسم بات لا يبشر بالخير ، وذلك من شرور أعمالكم يا لطيف ·· ليس تجاه خالقكم فقط ، بل تجاه بعضكم بعضا · وحضرة المولى جلّ وتعالى يؤاخذ الناس على أعمالهم ، ويرى أنكم حتى الآن لا تستحقون رحمته ، قبل أن تنظفوا قلوبكم ، أعني تنسوا خلافاتكم ، وتخلصوا بنياتكم ، وتتصالحوا ، ليعفو عما سلف · أليس هذا صحيحا يا شيخ حسن ويا شيخ محمد ؟

وانتهر الاطفال صارخا :

ـ ولكم اسمعوا يا جان ، يا عفاريت اتركونا نكمل ·

في حين رد المعلم والفقير على تساؤل المختار بعبارات غامضة موافقة ·

ـ ·· ويجب أن توزعوا الصدقات · (واستدرك بعد أن تنبه الى نظرات الريبة في عيون الناس) هذا ما قاله الشيخ عبد الغفور بالحرف الواحد، كما يجب الصيام ، وهذا مطلب سهل ، الصيام ، ما معنى الصيام ؟ الصيام عن المعاصي بالدرجة الاولى · ثم الطهارة ، الطهارة ، الطهارة ·· من كل الدنس ··

وفاضت قريحته فجأة ، بين ذهول الفلاحين أكثر من اصغائهم :

ـ انكم لا تغتسلون من الجنابة ، مع أن هذا فريضة · انكم لا تغتسلون ولو كان الماء فيضا · انكم كالبهائم ولا مؤاخذة اذا كبَّرت كلاما ، ولكن هذا المظبوط كالبهائم · صحيح أن الماء قليل الآن ولكنه موجود · واذكروا الله ، اذكروه كثيرا وفي كل لحظة ، لتخافوه ولا تعصوا أوامره ، ولتبتعدوا

عما نهى عنه ، لانه غفور (وتذكر أن الشيخ اسمه عبد الغفور) غفور ، رحيم • ولكنه شديد العقاب • (وهز اصبعه في الوجوه) وقد حبس عنا المطر في الاعوام الماضية لاننا لم نكن أهلا لرحمته • وفي هذه السنة أيضا ، رآنا جل جلاله لم نفق الى صوابنا •

ورمق جدعان الذي كان منزويا في الخلف بنظرة معينة ثم عبر بأنظاره بين الحضور باحثا عن صالح الذياب الذي لم يكن لوجوده أثر • وابتلع ريقه متذكرا كلاما جديدا :

ــ ايه •• لم نفق الى صوابنا ، فأراد الله أن يؤاخذنا على شر أعمالنا ، وقد يميتنا من الجوع •

ومطّ عنقه ونظر الى الخلف فلمح صالح الذياب يجري متعثرا بأذياله ، وهو يلوّح بشيء في يده • فحدّثه قلبه بأن الحكاية غير نظيفة ، وحصر أفكاره بالحديث الشريف الذي سمعه من الامام فأنهى به خطابه :

ــ اذا لم يخشع الشباب ويركع الشيوخ والاطفال و •• البهائم لـ •• لا أدري ما سيفعله الله بنا ••

ثم ضاع صوته في الضجيج المنبعث من الجهة التي وصل اليها صالح الذياب • وكان يحمل خرقة دامية يتشبث بها بين أصابعه ، ويلوّح بها في الهواء • وقد ثارت الضجة عندما تعلقت سليمانة بذراعه تحاول انتزاع ما في يده • ولكنه تخلص منها ، والقاها أرضا ، ودعس في بطنها ، قافزا مزمجرا :

ــ انظروا يا خلق الله ، انظروا •• ظهر الحق وزهق الباطل ، اشهدوا على كذب الكاذبة الفاجرة •• اشهدوا على كذب أمينة ، وأنت يا مختار لم تصدقني ، وسيجازيك الله على تعذيبك لي ••

كان يعوي في استطراد ، هائجا مائجا ، منتفخ الأوداج ، عيناه كالجمر ، تبرز أوردة رقبته حتى لتكاد تتفجر • :

ــ أنت يا الله اشهد •• اشهد على هذه الخرقة ، ها هو ذا شرف البنت ، أنا بريء بريء بريء •• وها هي الشهادة على براءتي • اتركوني ، خلص ، اتركوني •• ماذا فعلت لكم ؟ ماذا فعلت يا ربي ؟ ماذا فعلت ؟•

واختنق صوته · وكانوا قد تكالبوا عليه من كل جانب ، لينزعوا الخرقة من يده ثم أجهش في بكاء مر يائس يفطر القلب · وقامت سليمانة فزاحمت حتى وصلت اليه ، وأمسكت بيده ، وقادته الى جانبها حيث راح يمشي طائعا ذليلا ، لاوي الرقبة ، تبلل لحيته النامية دموعه المدرارة ·

ثم شبت العاصفة · واذا كان نقيق الزوجات هو تكرار للحقائق الثقيلة ، فان عداء آمنة لضرتها أم فهدة لم يكن وليد يوم وليلة · واذا كان قد ظهر في السابق أن العلاقات بينهما لم تكن الى درجة بالغة من السوء ، فلا يعني هذا أنها كانت تبعث على الاطمئنان ·

فعينما خلا الجو لأمينة الى جانت ضرتها ، أمسكت بتلابيبها على الفور ناعقة مولولة :

ـ أنت السبب يا ساقطة ، يا فارطة يا أم أربع وأربعين ··

وردت أم فهدة مشدوهة مدافعة عن نفسها :

ـ أنا ؟· ماذا فعلت يا أختي يا آمنة ؟·

ـ أنت تعرفين ما فعلت يا واطئة يا جيفة منتنة يا قفة عفن ··

وردت أم فهدة بتذلل :

ـ ولكن يا أختي يا آمنة لا تصيحي هكذا ، عيب قدّام الناس ·

وأجابت الاخرى محتدة صارخة :

ـ ولك ·· قدّام الناس ، أريد أن أفضحك قدام الناس ، يا جاسوسة يا منحوسة يا ابليسة ··

وحينما أفلست أم فهدة من كل ما تعبّئه من خنوع ، كشرت عن أنيابها في وقـار :

ـ انك أنت يا آمية سبب المصائب ·· أنت كما يعرفك كل الناس ، وصالح لا يقول الا الحقيقة ·

وجن جنون آمنة لهذا الرد غير المتوقع ، وفقدت السيطرة على لسانها ، فراحت تتخبط بلا وعي في شتائم مقذعة :

ـ ولك حتى أنت يا سافلة يا زانية يا أم القمل ٠٠ حتى أنت تتهمينني ؟ روحي اسمعي سيرك المزكمة ، لملمي بعضك قبل ما أقول كل ما أعرفه عنك يا منحطة يا سائبة ٠٠

ولم تسكت الاخرى أمام هذا الاتهام الصارخ بل أطلقت على أهدافها :

ـ أنا الملم نفسي ؟ أنا أم أنت ؟ يا عجوز متصابية ، يا التي تعرض جسدها لكل راغب ٠

وأعلنت آمنة على الفور :

ـ ولك يا كومة الزبل ، من كان يروح الى دار شحادة المحمد كل ليلة ؟ آ ٠٠ قولي أمامهم جميعا ٠٠ قولي هيا ٠٠ آ ٠٠؟

ففجرت الثانية قنبلتها بدون تأخير :

ـ وأنت يا قديسة يا حلوة يا نظيفة يا مشاء الله عنك ، أما نسيتي سروالك عند الفقير ؟ أتظنين أن أحدا لا يدري ما تفعلين عنده ؟ ها ٠٠؟ أين سروالك المنقط ؟٠٠ روحي خذيه من عنده ، خبأه لك في الصندوق يا شريفة ٠٠ الذي بيته من قزاز ما لازم يرمي الناس بحجارة ٠٠

ومن حسن الحظ أو من سوئه ، أن الفقير كان قد انسحب مع الشيوخ اثر اختتام الخطبة المتيدة ، وقد أنذرتهم أنوفهم بقرب انفجار البركان ٠ وقد يتبادر الى الذهن أن وجود الفقير قد يمنع أم فهدة عن التعرض له ، ولكن الواقع أن وجوده كغيابه في هذه الحالات التي تذكر بالمثل القائل : (أنا الغريق فما خوفي ٠٠) ولو كان الفقير موجودا ، لاكتفى بالاجراء الذي اتخذه شحادة المحمد الذي شهد الحفلة عن آخرها ، وقد عبّر هذا عن خزيه مستغفرا محوقلا ، باصقا في الارض والهواء ، لاعنا المرأة وخالق المرأة ٠

أما ما أصاب المرأتين كليهما من هذه الاتهامات الفاضحة ، فلم يكن ليلوث فيهما شيئا ، لا لان الغريق لا يخشى البلل ، بل لانهما في ثورتهما وحقدهما الدفين ، كانتا غافلتين عن كل ما يعرّض سمعتهما للخطر ٠ ومن العجيب أن النظّارة أنفسهم ، لم يعترهم أي أثر من الدهشة أو الاستغراب ، بل راحوا يطرفون عيونهم بلا اكتراث ولكن في فضول وكأنهم يقولون : كل شيء جائز ، وما نحن الا بشر ، والله أعلم ٠

وباعتبار أن الاعلان ووسائل النشر والاذاعة مفقودة في القرى النائية ، ولا تعدو أمور سكانها من شؤون تحتاج الى أن يعلن عنها ، فقد اتفق ، والحاجة تبرر الواسطة ، على أن تنشر المشاكل في عرض مسرحي واقعي في الوقت المناسب · ويكون هذا الوقت عند حدوث اجتماع عام يضم أكبر عدد من السكان ، كالاعراس والجنازات وصلوات الجمعة · حيث يقف المتخاصمون وجها لوجه ، على طريقة سوق عكاظ ، ثم يلقون بعصيهم ، فاذا هي حيات تسعى ·

وكان خليقا بصالح الذياب دون سائر الناس ، أن يمنع وقوع تلك (الطوشة) ، باعتبار أنه القيم على المرأتين · ولكن الرجل فقد نفوذه نهائيا فجر اليوم عندما ضبطته زوجته آمنة يتلصص على الباب الذي اختلى وراءه العروسان ، وقد أنشبت فيه مخالبها ، واستنفرت سكان الدار الذين أجمعوا على أن الرجل بات فاقد الرشد وليس مالكا لأي اعتبار · واذا كانت آمنة تعلم بأنها ملأت الجو بفرضيات لا أصل لها ، فلم تشأ أن تندحر محاطة بالخزي والعار ، بل أرادت أن تثبت شخصيتها على أي وجه من الوجوه· فبدأت بزوجها ، وبعد أن تركته في حالة يرثى لها من الخجل والانهيار ، التفتت الى ضرتها أم فهدة ·

وكانت بالامس الاول قد أجبرت على تقبل الامر الواقع تحت سطوة زوجها ولهفة ولدها ، الذي وجد نفسه يعود فجأة الى أحضان عروسه · وحزرت أن مؤامرة قد حيكت من ورائها ، غزلت خيوطها فهدة وأمها لتنفيذ المبادلة التي ظلت تعمل على احباطها · وساءها أن تكون ضحية لمكر ساذج ، فأرادت أن تؤكد شخصيتها على الشكل الذي كان ·

أما عثور صالح الذياب على دليل براءته ، فلم يكن يتطلب جهدا خارقا · فقد اغتنم فرصة اشتباك زوجاته الذي بدأ في الدار وانتهى في الاجتماع ، وصعد الى العلية في حالة مشفقة من الهوس والتخاذل ، وشاهد العروسين وقد انزوى كل منهما في طرف متعبين شاردين ، يرقب كل منهما الآخر في ذعر ، وبينهما تتكوم خرقة بيضاء مبللة بدم طازج · وكانت البنت قد أسلمت نفسها دون ممانعة ، بعد أن تغلب العريس على العنة التي لازمته طول اليومين الماضيين ·

فات جدعان العبد الله شهود التصادم الى أخره · اذ تسلل خفية الى داره

فور اعلان عمه عن النبأ السار ، ولكن دون أن يملأ صدره الفرح العارم ، أو تراود أفكاره آمال كبيرة · قد يكون مفعول تلك الخرقة الدامية قد أحدث تأثيرا لا يستهان به عند المعلم والفقير ، الا أن جدعان أحس بانه يتجرّع غصة ، فأطرق على مضض ، وحمل أدوات حراثته وذهب الى الفلاحة · وقد تبادل المعلم والفقير في عودتهما من الاجتماع نظرات الشماتة · قالت عينا الاول : « ألم أقل لك أن البنت عذراء ؟ »· بينما قال الآخر بالنظرة نفسها : « ألم أقل لك أن للشيطان يدا في كل شيء ؟ » ·

في حين كان جدعان يردد في نفسه وهو يسوق حماره الى البرية : « طيب ·· ترى ماذا بعد ذلك ·· ؟ » ولم يكن خالي البال بالرغم من اجتياز العقبة الكأداء هي رجوع أخته ، وبعد التغلب على المشكلتين الاساسيتين : شفائها وبراءتها · كان ما يقلقه هو حالة عمه ، فبعد أن توسم في الرجل نصيره الاول ، يراه الآن قد أضاع هيبته وكرامته ولربما عقله أيضا ، وأصبح مجردا من كل ما يجعله أهلا لان يقول كلمته الحاسمة عند المرحلة القادمة · فما دام رب البيت بالدف ضاربا ·· وقاسم لا يمكن الاعتماد عليه بأية حال ، فكلمة تأخذه وأخرى تأتي به كما يقولون ، لذا لا يمكنه احتلال العرش الذي خلا بزوال سطوة أبيه · فسليمانة وآمنة اللتان لم تتفقا في حياتهما على شيء تآخيتا الآن في سبيل خراب البيت · وسكوت حماته لا يمكن أن يركن اليه ، لانها لا تخرج عن كونها امرأة · وقد تنقصها الدوافع المباشرة لتبرز أظافرها ، ولكنها تبدو بسلبيتها تجاه الحوادث كمن يبيت أمورا خطيرة تنتظر الفرصة المواتية لتنفيذها ·

كان جدعان يفكر بهذا وبأمور مشابهة ، يعذبه الاحساس بالظلم والاضطهاد · وقد يسرّى عنه لو كان الظلم المحيق به آت من خصم يوازيه في القيمة · فهو لا يستطيع أن يفعل شيئا تجاه امرأة أو امرأتين · والاسد رفض أن ينازل الدب بالرغم من الاستفزازات · وعار على الرجل أن يضرب امرأة غير زوجته · والضرب هو الوسيلة الوحيدة لكف أذى المرأتين وكسر شوكتهما · ولمن يشتكي؟ للمختار؟ لا ·· لم تبق له ثقة بهذا الصنم · كان يظن أن المختار مختار ، فاذا به أقل من رجل · وخطر له أن يبوح بمتاعبه للمعلم ، فقد يكون هذا أقوى شكيمة وأسلم قلبا ، وله على كبر سنه ورسوخ شخصيته دالّة على الجميع ، فلمَ لا يذهب اليه عند العودة من الحراثة ؟·

وما ان انتهى جدعان بأفكاره الى هذا الحل ، حتى سمع صوتا يناديه معولا من تخوم الفلاحة :

ــ روح يا جدعان ·· روح روح روىىى ···

والتفت ناحية الصائح ، فلمح فهدة تطوح بيديها في الهواء فاقدة عصبة رأسها ، وينكش شعرها الريح ويعبث به ·

فرد عليها مجفلا منقبض الصدر

ــ مالك ؟· على أىش ··

وصاحت المرأة لاهثة مقطعة الانفاس :

ــ بساع بساع ·· (بسرعة)

وتركته عائدة مهرولة · وكان جدعان في تطيّره على حق ، اذ ما ان وصل الى الدار متعجلا حتى صُدم بفقدان الماشية · وفجأة اسودت الدنيا في عينيه · وراح فترة يتخبط على غير هدى لا يدري ما يفعل ، ثم نخر من أنفه نخرة قوية تعبّر عما يفور في صدره من غضب · وكانت الدار خالية من أمــه وزوجته · وفسّر نفير الدجاجات المنذعرة وريشها المتطاير على أن الاغارة على الدار لم تمض في يسر وسهولة ، وأن المهاجمين قد واجهوا مقاومة عنيفة · وفكر قبل أن يبدأ العمل : ترى هل هناك رجال ؟ ومن يكونون على وجه الدقة ؟ وتناول من الارض قطعة منجل صدىء وقفز خارجا من حوش الدار يحرق الارّم ·

كان الوقت بعيد الظهيرة · ومسارب القرية خالية الا من بعض الاطفال الذين يتناطحون غير مبالين بما جرى وسيجري حولهم · ومرّ جدعان من فوقهم كالعاصفة ، غائم العينين ، ينفر من جبينه عرق أزرق · كان يعرف هدفه تماما ، لذا توجه اليه بلا تردد · وقرب دار عمه التقى بأمه ، تضرب صدرها وتحار متوجعة داعية بصوت خفيض :

ــ يا ربي قامت القيامة ، يا ربي ما عليّ ملامة ·· ياهيء ياهيء ياهيء ··

وتجاوزها جدعان غير عابىء بها على الاطلاق · وتناهى الى أذنيه صوت فهدة من الداخل يناوش مبحوحا خائرا :

ـ أرجعوا الدواب يا بوّاقة يا حرامية ٠٠ أرجعوها ٠٠ جاء جدعان ٠٠ جـاء ٠٠

واحسّ وهو يتخطى عتبة الحوش بأيد تمسك بتلابيبه ، غير أنه تخلّص منها في عنف ٠ ثم قفز بلا تروٍّ تضغط أصابعه على النصل في قسوة ٠ كانت فهدة تقف في منتصف الفناء ، ممزقة الثياب ، دامية الوجه ، تشير بيديها اشارات متوالية ، وكأنها تريد أن تعبّر بالحركة عن ألفاظ نابية بعد أن خانها الصوت ٠ وفي احدى الزوايا ، كان صالح الذياب يقتعد حجرا كبيرا يستعرض المشهد في كثير من الفضول ٠ وقرب باب الحظيرة ، وقفت سليمانة وآمنة في المرصاد ، مشمرتي الاكمام ، مسلحتين بعصيّ غليظة ، يطفح وجهاهما بالشر والتحدي ، وهما تصوّبان الى فهدة نظرات شذراء تفيض بالتهديد والوعيد ٠

اقترب جدعان أولا من عمه ، فاستقبله هذا بابتسامة مشفقة ، ورفع يديه وكأنه يقول : انظر ما تفعله هاتان الخبيثتان ٠/ غير أنه ما لبث ، عندما لمح وجه جدعان ، أن ارتد الى الخلف صائحا مستغيثا :

ـ لا ٠٠ يا ابن أخوي ٠٠ أنا داخل على قبر أبيك لا تضربني ٠٠

وقال جدعان في نفسه : ها هو ذا الرجل قد انتهى ٠ وتقدم من الحظيرة ، فتصدت له المرأتان في طيش ورعونة ٠ فتوقف مفكرا : بأيّهما يبدأ الحصد ؟٠ ولكن ، وكما يعاف الوحش لحما رديئا ، أدار لهما ظهره ودفع باب الحظيرة بقدمه ٠

استعاد جدعان البقرة والنعاج وقد انفثأ غضبه تقريبا ٠ وحدّثته فهدة في طريق العودة عن تفاصيل الحادث ٠ وسألته وهي تمسح وجهها من آثار المعركة :

ـ هل يؤلمك ظهرك كثيرا ؟

فبغت بالسؤال ، ورد :

ـ هـا ؟٠ لماذا ؟٠ صحيح ٠٠ يظهر انهما ضربتاني كثيرا هنا ، أحس بلوح كتفي يتفتت ٠

وقالت الزوجة وهي تهشّ على الدواب :

ـ آمنة هي التي بدأت بضربك بلا رحمة وأنت تدخل باب الحظيرة ، وقد أصيبت ساعدي وأنا أحول بينها وبينك • (وشمَّرت عن مرفقها) بدأت تتورم •

قال جدعان :

ـ أين فرحة وقاسم ؟ لم أر أحدا ، وأمك أيضا ، أين هي ؟•

ـ تشاجرت مع خالتي آمنة عقب عودتك ، وحين عادت أمي الى الدار ، تعاونت آمنة مع سليمانة على تجريدها من ثيابها ثم تركتاها نصف عارية وهي بين الموت والحياة • وقد ساعدتها على الهرب الى دارنا وبعد قليل ساعدتني عليهما حين مهاجمتهما الدار ، وقد جاءت زوجة المختار الكبيرة وأخذتها الى عندها •

ولم يبد على جدعان أنه تحمس كثيرا للقصة ، فعاد يسأل :

ـ وفرحة ؟• أريد أن أعرف ••

ـ طردتاها من الدار ، ولكن قاسم لحق بها الى البيادر •

وفكر جدعان في اغتباط : ها هو ذا لطفل يخطف الحلاوة بعد أن تذوّق طعمها •

وطرح فجأة هذا السؤال :

ـ ولكن كيف حصل عليها ؟•

وضحكت الزوجة في خجل :

ـ أنا أدري ؟• الله يأخذه ••

قال جدعان

ـ الله يعمي عينه •• أنا أدري ؟• كنت أفكر : كيف أصبح قاسم رجـلا ••

وداعب جدعان زوجته بنظرة دافئة وهو يدخل الدواب الى حوش الدار ، وكأنه يقول : يا حبوبتي الماكرة بدأت تفكرين جيدا •• كان يداخله نوع من السرور لان الحادث مر بسلام • وراح يتصور لو كان المهاجمون رجالا •

أو لو جوبه عند استرداد الماشية بصلابة أكثر ، اذن لما تردد في استعمال سلاحه، والله وحده يعلم كيف ستتعقد الامور · وقد اعتبر الاغارة على داره في وضح النهار ، سابقة خطيرة ، سيكون وراءها ما وراءها من محاولات · وكان السؤال الذي يؤرقه : أنا لم أعتد على أحد ، فلمَ أكون هدفا للعدوان ؟·

وفي المساء حضرت حماته الى الدار ترتدي ثوبا عتيقا طويلا استعارته من زوجة المختار · وافضت المرأة الى صهرها بما تم من أمور هامة خلال لجوئها الى دار المختار · قالت انه اجتمع هناك حشد من العجائز ، وقد دعين الفقير ليضع ثقله في القضية · وبعد استعراض المشكلة من كل وجوهها ، قررت المجتمعات ، بناء على نصيحة الفقير ، التحايل على الشيطان باستعمال قليل من الحكمة · وأن تعود فهدة مع أمها الى دار صالح الذياب ، على الا تقطع صلاتها بزوجها · فتأتي يوميا لتخبز له وتقوم بواجباتها اليومية · وأن تفعل فرحة مثل ذلك ، على أن يتم لقاؤها مع قاسم في مكان ما · وهذا حل مؤقت ريثما يدب الخلاف في الجبهة الشمالية ــ تقع دار صالح الذياب في شمال القرية ــ وستتكفل هي ــ أم فهدة ــ بهذه المهمة ، وعندها يمكن قهر الحليفتين كل على حدة ، وتعود المياه الى مجاريها · وتوقفت المرأة عند هذا الحد من الحديث ، راغبة عن الخوض في التفاصيل السرية التي أوردها الفقير ، خشية أن يجد فيها جدعان ما يمسه فيعرض عن الفكرة من أساسها ·

وحقيقة الامر أن الفقير حلّ المشكلة على طريقته الخاصة : فقد أعرب ، خلال الاجتماع ، عن اعتقاده بأن الضرتين ــ سليمانة وآمنة ــ بعد أن استولتا على شؤون الدار ، أبت عليهما (كرامتهما) أن تسير الاوضاع وفق مشيئة رجل مسلوب ، لا يملك من أمره شيئا · وان ما تم من أمور المبادلة ، كان خارجا عن مشورتهما · وان في هذه المبادلة غبنا فاحشا لكلا الفريقين · ففرحة تساوي أكثر من قيمتها ولكن كزوجة لغير قاسم ، لان هذا الغر الذي لا يعرف « كيف يمص العظمة » لا يستحق بنتا تفتل الرؤوس ، بل تكفيه أية أنثى · واستنتج الفقير : أن الضرتين المتيدتين ، آمنتا بأن وجود فرحة في دارهما كان من دواعي جنون الزوج ، وهذا يشكل خطرا كبيرا على سلامتهما · وقد هزّت النسوة رؤوسهن موافقات على تحليل الفقير الصائب · وعندما وجد هذا نفسه يتربع على عرش المعرفة بين حوارييه وأتباعه ، ذوات الرؤوس التي « أينعت وحان قطافها » شرع بالقاء تعاليمه : « ان هذا الحل قد يغضب

انه القوي الجبار المتكبر ، ولكننا بحاجة الى لعنته ٠٠ » كان يصطنع هيئة محفوفة بالخطورة ٠ وكان يتحدث بلهجة تنبض بالألم

« تصوّرنَ أن لعنة الله رحمة ٠٠ »

وبدا كمن فُتحت أمامه أبواب السماء ، فراح يقرأ من خلالها سطورا تجلّ عن الرؤية ٠ فاستطرد غائم العينين يراقب أوصال المستمعات المرتجفة من وراء أثوابهن الداكنة :

« اننا نساير الشيطان لانه أقوى منا ٠ فهو يسيطر على الناس جميعا ويخضعهم لارادته التي لا تقهر ؟٠ وهذه الارادة تعارض ارادة الله ولكنه هو الذي خلقها ٠ انظرن الى سليمانة وآمنة ، لقد أصبحتا من أتباع الشيطان ، ضاربتين عرض الافق بكل ما أمر به الله ، وقد انتصرتا ٠٠ اننا نتردّى كلنا في الهاوية التي حفرها لنا الخالق ، ولن ينقذنا منها غير لعنته الصاعقة ٠ وعندها تصحو الملائكة ــ على مبدأ اشتدي أزمة تنفرجي ــ وتكون اللعنة بمثابة السوط الذي يلهب ظهور أضعف مخلوقات الله ، فترتجف وتبكي ٠٠ وعندها تهطل دموعها على الارض ، فتكون لنا غيثا ٠ نحن لا نأكل حتى تبكي الملائكة ٠ ، ولا نعيش الا بدموعها ، وهي لا تبكي حتى يغضب الله ٠ فنحن معذبون في الدنيا والآخرة ، وتلك خطيئة أبينا آدم ٠ في الدنيا نعيش في الدموع ، وفي الآخرة تنتظرنا جهنم وبئس المصير ٠ وذلك بأمر الله العزيز القدير ، ولغاية لا يعلمها الا هووووو٠٠ » ٠

ويبدو أن ارتجاف أوصال النسوة ، كان بمثابة أرجوحة بطيئة الاهتزاز ، سرعان ما خدّرت منهن الأعضاء ، فاستسلمن كلهن للرقاد ، مكوّمات بعضهن فوق بعض كتلا سوداء بعصب كبيرة ٠ وكما فعل « الفارابي » بمستمعيه ، نهض الفقير مكتئبا وولّى الأدبار

تفحّص جدعان العبد الله العرض الذي تقدمت به حماته ، فوجده يدعو الى التأمل ٠ فهو اذا لم يطفىء النيران المستعرة فعلى الاقل يطمرها تحت الرماد ٠ وبما أنه لم يكن على ثقة كافية بهذه المرأة ، فقد وضع في ابنتها كل أمله ٠ خاصة عندما أظهرت وجودا عند الاغارة على الدار وانحيازها الى جانب الدواب ٠

وسارت الحياة بعد ذلك على منوال جديد : عادت فهدة الى دار أبيها ،

ورجعت فرحة الى أخيها · وعمل جدعان يوما كاملا على تمتين باب الحظيرة فبات يصعب اقتحامه · فالدواب لم تدخل في تلك الاتفاقية ، وستظل ملكا له مهما تقلبت الظروف والاحوال · ولجدعان في ذلك رأي لا يتنازل عنه ، وهو أن البقرة والنعاج ستظل ملكا له لقاء الـ (عطب) الذي لحق بأخته وخفّض من قيمتها ، فقد أصبحت امرأة ··

وقد تم تنفيذ الخطة في يسر · كانت فهدة توافي زوجها في الفلاحة ، وفرحة تقابل ابن عمها سرا ، وأصبحت المسألة بالنسبة اليهم أمرا مسليا ولكن لا يخلو من منغصات · كان يكتنفهم شعور غامض لا يبعث على الرضى · كانوا يحسون أنهم يرتكبون أعمالا آثمة · وانهم يسرقون خفية أشياء لا تخصهم ، يتمنون صادقين لو أنهم لا يسرقونها · غير أنهم وجدوا أنفسهم مدفوعين دفعا الى اتيان ما يُخيّل لهم أنه فسق وفجور وأعمال ممنوعة ترتكب في الخفاء · وكان لا مناص من الهرب · واصبحوا يعتقدون أنهم مذنبون · كان كل منهم يحدّث نفسه طول الوقت : ترى هل سيرانا أحد ؟ وكيف العمل ؟ وما هي الوسيلة ؟ ويضعون الترتيبات المناسبة ، ويفكرون · وملأت قلوبهم هموم من نوع عجيب ·

وتكاثفت خيوط (المعاهدة) التي رسمتها مخيلة الفقير ، فاصبحت تقيدهم كحبال غليظة · وتحولت مقابلاتهم مع الايام الى احساسات مقيتة وبغيضة · وذبلت فرحة ورقّ عودها · وكانت ترفع الى وجه أخيها في المساء نظرات مذنبة ذليلة ، وكانها تقول له : هل أنت غاضب عليّ يا أخي ؟ في حين كان هو يتجاهل نظراتها ، ويقف وسط الحجرة حائرا قلقا ، وكأنه يبحث عن عزيز مفقود · كان يحس بأنه أضاع شيئا من ذاته · فقد تغيّر عليه الليل برمته · ولم يفلح في الافتراض بأنه رجع كما كان وحيدا غارقا في هريز نفسه · عجز عن الرجوع الى الخلف ، فقد فصله عن شبابه سور أملس شاهق ، لا يمكن ازالته أو تخطيه · أما من ناحية أخته ، فقد تبدلت كل عواطفه حيالها ، بات يحس بأنها امرأة غريبة لا تخصه بشيء ، ولا تربطه بها أية رابطة · أصبحت بالنسبة اليه وعاء قديما استنفد كل نفعه وأضحى غير صالح لأي استعمال · كانت في الماضي تهمه بقدر ما يمكن أن تجلبه من فائدة ، أما الآن فاصبح وجودها يضايقه ويكربه · فهي عدا عن كونها لا تملأ الفراغ الذي خلا بغياب فهدة ، تزيد في توسيع هذا الفراغ ، لانها تذكره بها على الدوام ·

ومن الجهة الاخرى ، كانت فهدة تبتلع الغصص • شرعت تحن الى التبن والى الفراش والى الرجل • الى الانسان الذي نسيت عامتها في أحضانه • صحيح أنها كانت تقابله كل يوم أو يومين ، ولكنه في مشاغله النهارية كان لا يذكرها الا لماما ، وذلك بعد أن تقرع له الجرس وتلح كثيرا في قرعه • كان يتصنع التعب فيستلقي على التراب ثم يجرها من ثوبها الى جواره •

وكانت فهدة قد عرضت على الضرتين في اليوم التالي لعودتها ، أن تكسب ثمن رغيفها بالذهاب الى الفلاحة ، على أن يساعدها قاسم ، نظرا لان أباها أسقط من الحساب ، فوافقت المرأتان فورا ــ كانتا تحبان الارض على الرغم من كل شيء • وبذلك تم تنفيذ الخطة بالسهولة المتوخاة • وكان أخوها في الطريق يربكها بأسئلته وأحاديثه عن الجنس ، وكانت تجيبه قدر استطاعتها ، وتوجهه حسب الامكان ، واضعة نصب عينيها أن تكسب وده ، وأن تشعره بأنه أخوها الاصغر • وهناك في الفلاحة كان يتم التبادل •

كان قاسم على تبلده ، يشعر بأنه يدخل من الباب الضيق • وبأن كتفيه محصورتان بين عارضتيه • ومع هذا لم يكن يعاني الى الدرجة التي يعانيها ابن عمه ، لانه كان يقضي شهر العسل • وما زالت نشوة الظفر باقتحام الخلية وتذوق شهدها المسكر تملأ رأسه • كان ما ان يصل الى البرية ، حتى يسرّح الثورين ، ويدفع فهدة الى زوجها لترسل له فرحة • وأحيانا ، عندما يحدث القليل من البطء في حضور عروسه ، كان يندفع بنفسه ، فيلتقي بها في الطريق ، وهناك يضجعها على التراب نافد الصبر ، بادئا حفلة الصباح •

ولكن شهر العسل صُرم على غير توقع • اذ فوجيء يوما بخالته سليمانة تقوم بدورية ، ومن سوء الحظ أنها ضبطتهما وهما يحرُثان الارض • فقد يعجبها طبيعة العمل الآخر ، فترضى ، وتطلب متوسلة أن يعيدا تكراره •

وهكذا •• ما ان ضبطت قاسم مع فرحة ، بدلا من أن يكون مع فهدة ، حتى صبّت النكير • وباعتبار أنها أصبحت القائدة العليا ، فقد أمرت على الفور بعدم (اختلاط الجنسين) • واتخذت لتنفيذ هذا التدبير عنصرا جديدا هو أخوها نايف •

كان نايف هذا ــ وقد مر ذكره في فصل سابق ــ في الثامنة عشرة من عمره ، طويل القامة ، خشن العود ، ولو لم يكن أمرد الوجه لبدا أكبر من سنه

بكثير • يحمل رأس أخته البيضوي ، وعينيها الواسعتين المتباعدتين ، ويقال أن أمهما كانت تشتهي ـ عندما تحمل ـ رؤية الارانب • وكان الفتى على ضخامته ، خفيفا كالبالون ، طائشا كفراشة ، مفتقرا الى كل دواعي الرسوخ • لا يعمل شيئا ، بل يتناول رغيفه من الفرن ، ثم يهرع الى مكانه الدائم على مصطبة الدكان ، ويظل هناك حتى يجوع أو تناديه حاجة جسدية ، ثم ما يلبث أن يعود •

وقد طوته أخته البكر تحت جناحها بمجرد أن لوّحت له بفرحة • فاستنفرت خياله ، وأثارت فيه كوامن الجنس • قالت له :

ـ سأزوجك منها •• لها ساقان تتمنى الملائكة أن ترفعهما •• أريد منك فقط أن تساعدني عليها ••

وتطوع الولد في خدمتها على الفور • وشرق بلعابه سائلا :

ـ وأي شيء تطلبين ؟ أنا تحت أمرك ••

فهدّأته بحركة من يدها قائلة :

ـ انتظر الآن •• ولكن في تربص وحذر •• يجب أن لا يعرف أحد بما سنفعل • أريد منك أولا أن تكون لي عينا عليهم • وأن توافيني بأخبارهم • أنا حبست فهدة في الدار ، ولكن تلك الخنزيرة لا بد أن تفلت في النهار ، فلا يمكن حجزها عن الذكَر كأي حمارة أخرى •• وقاسم لجمه صعب • وجدعان ذلك الثور اللعين أخاف منه أكثر من الضبع ، وأخشى الا أستطيع استرداد الدواب منه ••

وتنطّح نايف :

ـ هل أسرقها لك ؟•

واعترضت الاخت قائلة :

ـ لا •• يكون الحق معنا يصبح علينا • لازم ننتظر حتى تبرد الحديدة، وعقب ذلك نغلق مشكلة جديدة •• وخالتك آمنة ترتب من ناحيتها الموضوع مع الفقير ، فهو يعمل في صالحنا ، والمختار نفض يده من الموضوع كله •• وعندما نسترجع البقرة والنعاج أمهّد أنا لك الطريق لتخطف فرحة وتهرب بها ، وليشنق جدعان نفسه ، وأمرنا لله •

وفشلت أم فهدة في مساعيها الحميدة في الدخول بين ضرتيها ، على الرغم من أنها استعملت سلاحها العتيد ، التملق والوشاية والتذلل • وقد حدّثت سليمانة عن حكاية التعاويذ والرقيّات التي استحضرتها آمنة من عند الفقير ، لتحاربها بها • كما قصّت عليها قصة السروال :

ـ •• وتبعتها من وراء لوراء •• واختبأت هناك خلف الحجارة •• وسمعت كل شيء •• وكانت مستعجلة فنسيت سروالها • وحاولت أن أسرقه ولكن الفقير خبّأه في الصندوق •• يا أختي يا سليمانة اقشعر بدني من هذه الفعلة •• وهي تتهمني أنا •• بالله عليك هل تصدقينها ؟• هذه الزانية ••

وردت سليمانة دون أن تحفل بهذه الرواية :

ـ كلاكما وسختان زانيتان ، أزنى من كلبة •• بل أنت أشد سفالة •• كيف تخونينني يا بنت الف وألف كلب ؟ لماذا لا تصفّين في صفّي يا أم عرقوب ؟•

فما كان من أم فهدة ، الا أن ركعت تحت ضرتها ، وراحت تبلل قدميها بدموع التماسيح •

• • •

وكان من نتائج تدابير عدم الاختلاط التي اتخذتها سليمانة ، أن اضطرب برنامج جدعان من جديد • فطوى القصة في صدره ، بعد أن بيّت أمرا صمم على أن يعلن عنه في حينه • وراحت أخته تغيب عن الدار طول النهار لتأتي في الليل متسللة كالقطة ، تفوح منها رائحة الاثم • وهذا ما يفسر ثورته عليها ، وضربه اياها ذلك الضرب المبرح ليلة الاستجواب •

وكان موعد صلاة الاستسقاء يقترب ، وفصل الشتاء يزحف بطيئا كالثعبان ، ساما وبدون ضجة • والايدي تمسك بالقلوب الواجفة من هذه السنة الجليفة • فالسماء مرعبة صافية • والشمس مشرقة لا تدعو الى الرجاء • وجميع الفلاحين ، ما عدا القلة ، مدينون بثمن البذار الى المرابي • وقد أ'خذت عليهم السندات والصكوك • وو'قع عليها بالبصمات العشر • وهذا البذار سيصبح طعما للديدان وفئران الحقول اذا لم تَجُد السماء بالغيث • ولو كان محصول السنة الفائتة طيبا لأمكن توفير البذار • ولكن تجار الحبوب

لا يدخلون حالة الفلاح في حسابهم ، ففي الوقت المحدد يبرزون سنداتهم ، ثم يبدأ رجال الدرك أعمالهم ، وتشرع الدوائر العقارية بنقل ملكية الاراضي الى أصحابها الجدد ، ويُقتلع الفلاح من ترابه ويُلقى به بعيدا كسنديانة يابسة تنتظر الفأس ثم المحرقة .

• • •

(١٣)

أفاق جدعان ذات ليلة على دبيب قوائم تعدو مذعورة وسط حوش الدار ، فاستل منجله من تحت الوسادة ، وهبّ قافزا الى الخارج لاستجلاء الامر · كان الوقت بين الفجرين الكاذب والصادق ، حيث يكون الليل أشد ما يكون عشوة وتفحما · فلمح وحشا ينط من أمامه تفوح منه رائحة الدم ، وهو يجر بأنيابه فريسته المتحركة · وكان الذئب أسرع منه ، اذ طوّح بفريسته من فوق الجدار وولى وراءها الادبار · وبعد أن سبرت عينا الشاب الظلام ، شاهد باب الحظيرة مفتوحا والدواب خارجة منها تلهث من الخوف والتعب · ولم يتوقف لحظة واحدة · اذ سرعان ما قفز من فوق الجدار الذي تهدمت حجارته ، وجرى وراء الوحش ليستخلص الفريسة من أنيابه · وعند تخوم القرية ، عثر على بقايا احدى النعاج ومن بينها الكرش والامعاء ، فحملها وعاد يتلظى لفداحة الخسارة · وسأل أخته ما اذا كانت قد أوصدت باب الحظيرة بعد أن عشّت البهائم ، فردت بأنها لا تذكر ، فصرّ بأسنانه وتلفظ ببعض الشتائم التي تناسب الحالة ·

وعند انبلاج الصبح ، عرف بأن الفريسة كانت احدى نعاج عمه · وشاهد بين بقاياها جنينا لم يكتمل بعد · وفكر قليلا قبل أن يلف الجنين والامعاء في خرقة بالية لغاية لاحت في نفسه · وعرف حين طلوع النهار ، بأنه لم يكن وحده هدفا للاغارة ، فقد سطا ثعلب على احدى الدوز ، وفتك بعدد من طيور الدجاج· وكانت خسارة الفريقين كبيرة تدعو الى الحزن ·

وبعيد الظهيرة بقليل ، تصاعد ثغاء الراعي سعدو يدعو الناس الى صلاة الاستسقاء · وبما أن هذا النداء كان متوقعا في كل لحظة ، فقد ففرت

الكوى المظلمة أفواهها ، وتمطت من داخلها أجساد وهياكل انسانية متعبة ، لتزحف في كسل ووناء الى غرب القرية ·

كانت جميع صنوف الشقاء ماثلة في الحشد المتنافر الذي اكتمل في البيدر الكبير · لبّى سكان القرية وصايا المختار ، فحضروا مع بهائمهم وصفائحهم وجرارهم وأطفالهم ، ناسين أن يصوموا ويتصدقوا ويغتسلوا من الجنابة · فقد صعب الاتيان بهـــذه الوصايا ، خاصة على من استطاع لها فهما ·

وبدأت الضجة تتمش في مسارب القرية المهشمة ، التي تقطعها حواجز من الحجارة ، ماثلة غامضة المعالم مبهمة الاشكال ، تفصل ما بين سطوح متطامنة ، تلتصق بالارض كالانوف المفطوسة · وكانت سماء أواخر كانون الاول (النيرة) تستلقي بكل سعتها وثقلها على الارض العطشة الغبراء المبرقشة بالحجارة السوداء ·

كان الحشد يضم شيوخا وعجائز يبدؤون من الارض وينتهون عندها ، قصمت ظهورهم عوادي الزمن ، وأحنت رؤوسهم مرارة العيش · وشبابا سحقت عظامهم الشدائد ، وخطفت من عيونهم نور الامل · ونساء غضّنت بشرتهم ضروب الألم ، وسرقت من وجوههم نضارة الحياة · وأطفالا ذبلت براعمهم قبل أن تتكون ، فضاعت أشكالها وألوانها · وبالاجمال ، كان البؤس هو الصفة المميزة لاعطائهم صفة الانسان ·

كما ضم الحشد بهائم مهزولة ، ضامرة طاوية ، يجأر بعضها في وجوه بعض ، وكأنها تتساءل عن مخرج من هذا الضيق · وصفائح صدئة مثقّبة ، ترتطم بالتراب وبعضها ببعض ارتطاما قاسيا ، دون أن يمسها أحد ، وكأنها تصوّت لتثبت وجودها أيضا ·

وتقدم الشيخ عبد الغفور من هذا الحشد المتبعثر ، الذي نظّمته صنوف القوارع في فوضوية متقنة · وأهاب بصوت خاشع أن يحسر الناس عن رؤوسهم وأن يقلعوا أثوابهم ثم يرتدوها مقلوبة تذللا الى الله · وبدأ هو بنزع عمامته ، فبان شعر رأسه الشائك المجزوز ، وتلكّأت النسوة في تنفيذ الامر ، فصرخ الشيخ فيهن :

ـ لا يغش أحد أحدا ·· فبين يدي الله يستوي الناس جميعا ، ولا ينظرن

أحد الى عورة أحد ٠٠ ان يومنا هذا كيوم الغاشية ٠ وجوه يومئذ خاشعة ٠ عاملة ناصبة ٠ تصلى نارا حامية ٠ صدق الله العظيم ٠

ووافى المشهد على كماله ، عندما نزعت النسوة العصب عن رؤوسهن ٠ وتجلّى الموقف عن : شعور منفوشة ، ولحي شائبة ، ورؤوس صلعاء ، وهيئات مستسلمة بلهاء ، ووجوه كالحة باسرة ، تطل منها نظرات باردة خرساء ، وأفواه مفغورة في وحشية ، ووجنات هيكلية مهزولة ٠ وكانت الروح المشتركة المهيمنة على القوم : هي الغباء ، والجهل ، والاخلاق النكدة ، والبغض ، والكراهية ، والمقت ، والتمرد المحلّي ، وكأن الشر بمعانيه كافة قد مر على هذه الجباه ووسمها بوسمه الرهيب ٠

واستدار الامام نحو القبلة ٠ فأقام الصلاة ، ودعا الى تقارب الصفوف وانتظامها ، مناديا في نبرة دعائية : « واستقيموا يرحمنا ويرحمكم الله ٠٠ » وتخلخل النظام عندما اعترضت البهائم سبيل المصلين ٠ ورفع الشيخ يديه وقد باعد ما بين أصابعه حتى مس ابهاماه شحمتي أذنيه وصاح : « استغفر الله ٠ » وأعاد الاستغفار سبع مرات بصوت ممطوط ، قرأ بينه بعض الآيات جهرا ٠ ثم ركع وسجد على التراب ، والمصلون من خلفه يحذون حذوه ٠ وتشاجر الاطفال في الصفوف الخلفية عند السجود ، وبقي بعضهم ساجدا مستريحا ، مغفلين قيام الشيخ ٠ وكانت سوءات أكثريتهم ظاهرة لاصقة في وجوه رفاقهم ٠ وأعاد الامام الاستغفار خمس مرات ، ولم يستقم الاطفال من سجودهم الا عقب التسليم ٠

وبعد انتهاء الصلاة ، نهض الامام وأشار بيده الى مؤتميه أن يقفوا ٠ ورفع كفيه الى السماء وبدأ الدعاء في نبرة مرتجفة مؤثرة :

: اللهـم ٠

وصمت ٠ وهز رأسه ليتبعوه ٠ فارتفعت الأكف الترابية الخشنة ٠ وأعـاد :

: اللهـم ٠

وردد الجميع بأصوات متنافرة ، تفتقر الى اللحن ، ولكن لا ينقصها الصدق والبلاغة ، وفي درجات متفاوتة الايقاع ، مرتفعة ومنخفضة ، جاهرة وهامسة ، خشنة وناعمة :

: اللهوووومااااا ٠

: أغثنـــا ٠

وردد الجميع في التواتر نفسه :

: آغ ييييثنـــاااااا ٠٠

: غيثـــا ٠

: ٠٠٠

: هنيئـــا ٠

: ٠٠٠

: مريئـــا ٠

: ٠٠٠

: مريعـــا ٠

: ٠٠٠

: غدقـــا ٠

: ٠٠٠

: مجللا ٠

: ٠٠٠

: سحا ٠ طبقا ٠ اللهم اسقنا غيثا ٠ مغيثا ٠ نافعا غير ضار ٠ عاجلا غير آجل ٠ آ ٠٠

واربـدت سحنة الشيخ فجأة وهو يرى في الخلف ما لا يراه أحد ٠ اذ صدم بمشاهدة حمار أبرش يهم بالاقتراب من جحشة ٠ وأكمل الشيخ دعاءه ساخطا يائسا :

: اللهم اسق عبادك ٠ وبهائمك ٠ وانشر رحمتك ٠ وأحيي بلدك الميت ٠ اللهم ٠

: اللا ·· هوووومااا ·

كانت الادعية تنبعث من الحناجر ، غاضبة ، محشرجة ناعقة ، مستمدة : من الخيبة ، من ضروب الحرمان ، من شظف العيش ، من الظلم ، من قسوة الطبيعة ، من عوامل الفسق ·

: انت الله لا اله الا أنت · أنت الغني ونحن الفقراء · اللهم أنزل لنا الغيث · على الصعيد · وال ··

كانت الجوقة الجاهرة بالدعاء ، تعبر عن الالم المرير ، عن الحمق ، عن الجهالات ، عن النزق والعناد ، عن الخوف والاضطراب والقلق · والاكثر من كل ذلك عن اللهفة والجوع والعطش ·

: واجعل ما أنزلت لنا قوة وبلاغا الى حين ·

ولم يكن الداعون يفهمون معنى لـ : الصعيد ، والآكام ، والظراب ، ومنابت الشجر ·· ولكنهم ظلوا يرددون :

: اللهم لا تنسنا من فضلك · ولا تغفلنا من رحمتك · أنت الله لا الـ الا أنت وصلى الله على محمد ··

• • •

وبما أن كل جمع لا بد له من حاصل ، فكانت هذه هي الحصيلة الاولى لصلاة الاستسقاء · فما ان مسح المصلون على وجوههم ، وقبل أن ترتفع الصلاة الى من أهديت اليه ، تقدم جدعان العبد الله من الوسط ، يجر معه صرة الجنين والامعاء · ونادى بصوت يضج بالشكوى والاتهام :

ـ اسمعوا يا أهل الخير ··

وارتبك المختار · وحاول أن يسحب الشيخ عبد الغفور ليجنبه الاطلاع على المهزلة ، ولكن الشيخ وقد اعتبر نفسه من أهل الخير ، سحب ردنه من يد المختار ، وتوقف مصغيا الى المنادي · ونبر جدعان مستطردا :

ـ أنا للآن وقد مضى على زواجي أكثر من شهرين لا أعرف حالي ان كنت متزوجا أم أرمل ·

وسُمعت بعض الضحكات العابثة ، يتخللها شتائم مقذعة ساخرة بغيضة · ولم يلتفت الشاب الى الاصوات التي راحت تقاطعه ، بل استأنف خطابه :

ـ واذا دام هذا الحال ، فأنا أرى نفسي مجبرا على أن أبادل بأختي التي هي الآن في حوزتي أي مخلوقة أخرى ٠٠

وارتفع من الزحام صوت ناب يقول :

ـ أرجع اذن الدواب التي أخذتها بدون حق يا ذنب الحمار ٠٠

وكان المتكلم هو نايف ٠ ورد جدعان :

ـ ان الدواب التي يتحدث عنها هذا اللقيط الصغير أصبحت ملكي لقاء ما تعرضت له أختي من مصائب ٠ عدا أنها خاست كثيرا في هذه الزيجة غير العادلـة ٠

وفجأة تقدم قاسم بن صالح الذياب وصاح في حماسة :

ـ انك يا جدعان العبد الله لا تستطيع أن تأخذ مني زوجتي ٠

فرد جدعان ، وكان لا يأمل في أن يحصل على هذا الاعتراف على رؤوس الاشهاد :

ـ اذن خذ زوجتك وارجع لي زوجتي ، ولنعش مثل الخلق ، وكفى الله المؤمنين شر القتال ٠

وعلى الفور تقدمت آمنة بمعارضتها للمشروع :

ـ نحن لا نريد أختك المشؤومة في دارنا ٠٠ ويكفيها أن تسكن في البيادر كبقية الكلاب والحمير ٠ تكفينا المصائب التي ألحقتها بنا ٠ أرجع لنا البقرة والغنم وعقبها نتفاهم ٠

وقبل أن تصمت أكملت سليمانة :

ـ لا نريد مصائب أكثر ، هذه البنت منحوسة من يوم خلقت ولا نريد أن تحل نحسها علينا ، رد لنا حقوقنا ولا نريدُ شيئا ٠٠

وانتفخت أوداج الشاب ، وجأر بصوت يغص بالغضب :

ـ ان ما تجدفان به أنتما الاثنتان ، يا بنات آوى ، ليس غير فساء ، رائحة كريهة بلا تفريغ امعاء ، واذا لم تخرسا وتعودا الى داركما فاني ٠٠ أقول هذا أمام الجميع ، أقطع لسانيكما و ٠٠

وقاطعته المرأتان في صوت واحد :

ـ أنت يا قفص العظام ؟ أنت يا كومة الزبل ؟ أنت تقدر أن تمس أطراف ثيابنا بأصابعك النجسة ؟.

ونسي جدعان في ثورته ، أن ما يستفز المرأة اكثر من أي شيء ، هو تهديدها بالضرب . ولكنه أدار لهما ظهره وراح يخاطب قاسم :

ـ اتفقنا يا رجل ، أنا أحكيك أنت ، بدون أن تتدخل النساء ، هل تريد فرحة أم لا تريدها ؟.

وتنطنح نايف للرد :

ـ انه لا يريدها .. قال لي ذلك . وقال انه عندما ينام معها لا يدري ما يصير له ، فهي تمرضه وتهدّ قوته ، وتمتص عافيته ، و ..

وقاطعه جدعان :

ـ قلت لك اخرس أنت يا قملة ولا تسمعني نباحك ..

ورد نايف في رعونة :

ـ أنا سألوث شرفك .. أنا سأمرغ عرضك في الوحل .. من تظـن نفسك يا ..

وفقد جدعان سيطرته على نفسه . فانقض وسط الجمع ليتناول غريمه ، غير أن هذا سُحب الى الخلف وحيل بينه وبين جدعان . وفي غضون ذلك ، كان الامام قد استأنف استغفاراته ، مهيللا مبسملا محوقلا ، يدور رأسه في أسف ، وكأن اتعابه في الصلاة ذهبت أدراج الرياح . وفي الوسط ، كانت كتلة سوداء تجلس على الارض بوجهها المغلق ، تهتز اهتزازها الناقوسي ، وتصفق بيديها تصفيقا رتيبا ، وتردد في نفس الرتابة : يا أهل الخير .. يا أهل الخير ، مدوا أيديكم يا أهل الخير ..

وصاحت سليمانة :

ـ والآن سنأخذ بقرتنا ونعاجنا الاربع .

وطار صواب جدعان . وصرخ في وحشية ليحبط الشرك الذي نصب له :

ـ ولك أيّ نعاج أربع يا خنزيرة يا مجوسية ؟ ألم يأكل الذئب واحدة ؟ وهذه أحشاؤها مع الجنين ·· (وفرد الصرة على الارض فتصاعدت منها رائحة خبيثة) ·

قالت سليمانة :

ـ أنت تكذب ، النعجة التي أكلها الذئب هي لك ، ونعاجنا سليمة ، ها هي ذي موجودة هنا ولن نرضى بغير أربع مع البقرة ··

وتحرك جدعان بضع خطوات ليصبح قريبا من الدواب التي كانت تتخبط وسط (المُصلّى) · ومن الغريب أن صالح الذياب كان يقف قريبا ، يفرك كفيه في سرور طفولي ، وكأنه يتعجل وقوع كارثة يذهب ضحيتها ثلاثة على الاقل ، وأن يكونوا من أسرته · راصدا طول الوقت حركات جدعان ، وكأنه يخشى أن يتنبه الى وجوده ، فيمسك بخناقه ويجعله أول الضحايا · في حين كان المعلم ، حسن الصبح يعـدّ حبات سبحته في عصبية وقلق ، راجيا الله أن ينفضّ الجمع على خير · أما الفقير فقد استهوته المشاجرة ، فاستند على صخرة كبيرة ، ينفخ في النار بكل جوارحه · غافلا عن أن عينيّ المعلم ترمقانه بين الحين والآخر ، وتخبئان له شرّا مستطيرا · وفي هذه اللحظة تدخـل المختار ، وقد وجد نفسه مدفوعا الى العمل · فتقدم من جدعان وجره من كم قميصه ، داعيا اياه أن يلفّ الموضوع · غير أن هذا في هياجه ، ارتكب فعلا جعله هدفا للسخط · اذ أمسك المختار من صدره وهزه في عنف ، صائحا في وجهه :

ـ أمَا أنت سبب البلية ؟ ما أنت الذي أوقعني في هذه الورطة الملعونة ؟·

ورد المختار في رزانة يشوبها الكثير من ضبط النفس :

ـ أقول لك نتحاسب فيما بعد ·· عيب الآن ، عندنـــا رجل غريب (وهمس) يشكونا للدرك ·· للدرك ··

وقاده من يده متوجها به ناحية الدار · غير أن جدعان خلّص يده في قسوة ، قائلا :

ـ اتركني ·· أريد أن آخذ دوابي ··

وهرع الى نعاجه ليفرزها عن بقية دواب القرية · وكانت فهدة قد

سبقته اليها لمعاونته · ولكنه ما كاد يمسك احدى النعاج من قرنيها ، حتى ألفى نفسه ينكفىء على الارض اثر صدمة هائلة · ولما أراد أن ينهض ، حطّ على ظهره ثقل باهظ · وتعالى على الاثر صياح فهدة التي وقعت أيضا من أثر الهجوم · وبينما كان جدعان ينافح ليخلّص جسده من تحت وطأة نايف ، كان يفكر : بأنه أمام احتمالين لا ثالث لهما ، اما أن يموت ، أو يظل صامدا الى النهاية دون أن يتخلى عن ظلف من أظلاف دوابه ولو اجتمع عليه أهل الارض قاطبـــة ·

وقد أمدّه هذا التصميم بالقوة والعون · فرفع يديه الى كتفيه حتى حطتا على رأس خصمه واستطاع بكثير من الجهد أن يحيطه بأصابعه ، وكان سهل الامساك نظرا لاستطالته ، وجذبه في قوة الى الامام فوقع الجسد الكبير كغرارة من الصوف · وعندما رفع جدعان رأسه ، علم أن قاسم وأخاه سليم قد دخلا المعركة مسلحين بالعصي · أما سلاح المرأتين فكان الحجارة · وأعاقته بضع ضربات على رأسه وكتفيه ، الا أنه نهض وأمسك بنايف من نهايتيه ورفعه عاليا ثم أهوى به على الارض · واستدار ليتلقف الباقين فأحس بألم هائل أفقده صوابه ــ فقد تعلق نايف بخصيتيه ، وراح يضغط عليهما ضغطا فظيعا · ولولا أن رفسه في وجهه في اللحظة المناسبة لكان يخشى أن يفارق الحياة · ومن البديهي أن الرجال لم يقفوا مكتوفي الايدي أمام هذه (الطوشة) ، واستطاعوا أن يحولوا دون وقوع المزيد من الأذى ·

تمكن جدعان في النهاية من الاستحواذ على ماشيته ، غير مبال بالشج الدامي الذي أصاب جبينه · وساقها الى الدار مع أخته وأمه اللتين ما برحتا تعولان ، ناسيتين أن المشاجرة قد انتهت ·

ونوقشت في المضافة ميزانية (الجمع والطرح والضرب) · وقد حاول الشيخ عبد الغفور أن يصغي الى الحديث بكثير من التفهم ، مبديا أسفه البالغ لان الصلاة على أهميتها ، لا يمكن أن تُقبل نقية طاهرة ، ما لم تصدر عن قلوب أكثر طهرا ونقاء · وأن ما شاهده عقب الدعاء الحار لا يمكن الا أن يدنّس الدنس نفسه · وخفف المختار من أهمية الحادثة ، مقتصرا ، في تبيان الاسباب ، على افتراس الذئب للنعجة · ضاربا الصفح عن الدواعي الاساسية للمشكلة · وقال للامام :

ــ لا تزعج نفسك كثيرا يا سيدنا ·· فمشاكل الفلاحين لا تنتهي · وان

الله سبحانه وتعالى لن يؤاخذهم على شر أعمالهم • لانه يعرف بلواهـــم ويعطف عليها •

ورد الشيخ عبد الغفور :

ـ ولكني سمعت ذلك الشاب يتكلم في صدق عن حادثة زواج ، أو ما أشبه ذلك •

فأجاب المختار :

ـ لا يا سيدنا •• قضية الزواج انتهت من زمن بعيد • حدث خلاف في البداية ولم يبق منه غير الذيول الخفيفة • وهي عبارة عن ثرثرة نساء لا أكثر • والقضية الحالية اجمالا لا تعدو عن كونها افتراس ذئب لنعجة اختلف الفريقان على ملكيتها •

وكان المختار متوقعا أن يمر الامام بمخفر الدرك في طريقه الى الجنوب ، من أجل هذا عمل على أن يحصر الموضوع في نطاق ضيق • وقد اجتمع بعد ذلك بصالح الذياب ، وكان يحتفظ ببقية من رشد ، وأوعز اليه أن يضبط لسانه ولسان أسرته •

وخلص الامام الى أن دعا لعباد الله المسلمين بالرحمة والمغفرة • ثم التفت الى الخجا ، وكان يعرفه عن طريق طلب العلم ، وسأله :

ـ مالك يا شيخ حسن ؟ أراك ذاهلا عن أمور الناس •

وتنحنح المعلم • وكان ينتظر الفرصة ليفرغ المرجل الذي يضطرم في صدره • وحدّج الفقير بنظرة كشواظ من نار ، وقال :

ـ أنا يا سيدنا لا أعتب على الجهلة مهما قالوا وفعلوا ، ولكني أعتب على من يضعون أنفسهم في مرتبة أولى العلم والمعرفة ، ثم يخرصون على الناس ، ويجدفون بالله ، ويقولون ما لا يعلمون •

وارتجفت لحية الفقير ، ودكن لونه حتى صار كلون الرماد ، وانتفض واقفا يريد الانسحاب • ولكن الامام استمهله ، ونقل أنظاره بين الحاضرين مستفسرا في اهتمام :

ـ خير ان شاء الله •• الى هنا يصل التنابذ ؟ الى شيوخ القرية يسري الخصام ؟

ورد المعلم حانقا :

ـ سله ٠٠ سل سيد العارفين ٠٠ دعه يحدثك عن حلقات الوعظ التي يعقدها بين النساء ليحشو رؤوسهن الفارغة بأقاويل لا يهضمها غير كل أفاك أثيم وملحد زنيم ٠٠

وتمتم الشيخ :

ـ قل أعوذ برب الفلق ٠ قل هو الله أحد ٠ ما هذا ؟ ماذا تقول يا محمد ؟ ٠

ورد الفقير في اختصار ، هادفا الى حسم المناقشة :

ـ لا شيء يا سيدنا ٠٠ التباس وسوء فهم لا أكثر ٠

وصرخ المعلم محتدا :

ـ قل يا محمد ، تكلم ٠٠ الدين المخبأ لا يساوي صرماية حاشا من قبالي ٠ قل ٠ هل نحن في حاجة الى لعنة الله ؟٠ هل الشيطان أقوى من الله ؟ هل الملائكة ٠٠

وكانت كل كلمة تخرج من شفتي الخجا تنقض على الامام كالصاعقة ٠ فهب مصعوقا مرتجفا موليا الأدبار ٠ وظل ينفض جلبابه طوال الطريق ليتخلص مما علق به من كفر وزور وبهتان ٠ ولم يكذب خبرا ٠ عرج في طريقه على بلدة ازرع ، وأخبر الدرك بالمشاجرة ٠ ومن هناك استقل القطار الى المحافظة ، حيث سطر كتابا طويلا الى المفتي العام ، يشرح فيه بالتفصيل حالة الفلاحين الدينية التي تدعو الى اليأس ٠ وعبر عن أنه لا يرجو كثيرا من الصلاة التي أقامها في العديد من القرى ، لان الناس لم يكونوا مهيئين لها ، ولم تتوفر لديهم الشروط الضرورية للوقوف بين يدي الله ٠ وان الخالق اذا من عليهم بقطرة غيث ، فلأنه أرحم الراحمين ٠ وتحدث عن مشاكل الفلاحين وخصوماتهم بكل دقة وتفصيل ، وألمح الى أن قرية واحدة لم تخل من حادثة أو عدة حوادث شاهدها بأم عينه ، اما قبل الصلاة أو أثناءها أو بعدها مباشرة٠ حتى أن أحد الرجال ذبح رفيقا له أثناء الصلاة في قرية (شطحه) لانه وقف الى جانبه ، وكان بينهما ثأر قديم ٠ وذكر الشيخ بأن العداء متفش ، لا بين الجهلة والشباب فقط ، بل تعداهم الى الشيوخ المعتبرين ٠ وختم الامام كتابه

بفكرته التي خرج فيها ، وهي أن ما يحتاجه الفلاحون في الحقيقة لا غيث يهطل من السماء ، لانهم لا يستأهلون ذلك الخير ، بل سياطا تلهب ظهورهم ، وتطهر قلوبهم ، وتحني منهم المناكب والرؤوس •

وكان المعلم قد خبر بمحاضرة الفقير من احدى زوجات المختار • ولم تكن المرأة تقصد الوشاية ، بل كانت تطلب من المعلم تفسيرا لبعض ما خفي عليها فهمه • وقد أرجأ الخجا محاسبة الفقير الى حين ، ممهلا الامر دون أن يهمله ، مترقبا موعـد الصلاة لينهض بعدها ويشهّر بالفقير على رؤوس الاشهاد • ولكن جدعان كان سبّاقا الى عرض مشكلته ، وفوّت عليه تلك الفرصة الذهبية • ومهما كانت تلك المساجلة القصيرة التي جرت في حضور الامام ، فقد أوفت على الغاية • فقد خذل الفقير شر خذلان • ومن حينها انزوى في داره • ولم يظهر خارجها حتى فاجأه القحط • فهاجر الى دمشق مع المهاجرين ، حيث عشّش في ضاحية من الضواحي مدعيا النبوة •

• • •

منذ فجر اليوم التالي ، زحف جميع الفلاحين الى الحراثة في نشاط لم يسبق له مثيل • اندفع الشيوخ والشبان والنساء والاطفال أيضا • خرج صالح الذياب والمعلم والمختار ، وشيوخ آخرون كانوا في الماضي يتوكلون على أبنائهم أو زوجاتهم في العمل • حملوا معهم كل ما يمكن أن يشق الارض ويقلب التراب • تنكبوا معاول محطمة النصاب ، وفؤوسا مفصولة الرأس ، ورفوشا بالية ، وسيوفا قديمة ، وقطع محاريث صدئة ، ومناجل مثلمة ، ومذاري حديدية ساقطة الاسنان •

كانت مسارب القرية منذ الوضح الاول تضيق بالزاحفين وتضـج بهمهماتهم ، ودبيب أقدامهم ، وأصواتهم التي تحض الاطفال والحيوانات على الاسراع والتحفز • كانت الصلاة قد استنفرتهم ، وشدت من عزائمهم ، وألهبت حماسهم ، وشحذت هممهم • عاد الامل الكبير يراودهم ، ويجمع شملهم وقوتهم• مسقطين من حسابهم اعتبارات الشيخ عبد الغفور جميعها • كانوا يفكرون بأنهم قد صلّوا الى الله ، ومنحوه كل ما يستطيعون من ذل وخضوع ومسكنة • وكانوا صادقين في أدعيتهم ، لطالما خرجت من جوارحهم ومن أعماق قلوبهم • لم تكن خصوماتهم ، وعداواتهم ، وسفالاتهم ، وأخلاقهم النكدة ، لتقف فاصلا بينهم وبين الله ، لانها كانت في نظرهم خصوصيات لا يهتم لها الخالق العظيم ،

ولم تكن ذنوبهم وآثامهم لتبرر غضبه ، لانها ليست معاصي ، بل اجراءاتطبيعية يفرضها وجودهم بالذات ٠

وعكفوا على نبش التراب بأدواتهم كافة ، باذلين جهدهم وطاقتهم دون كلل أو فتور ٠ كانوا يحدثون أنفسهم بصوت مسموع ، ويناجون الله والسماء والاداة والحيوان ، يرفعون رؤوسهم في كل آونة ، ويرقبون حواشي الافق ، ويرصدون حركة الريح ٠ وأخذ العرق يتصبب من جباههم وزنودهم ٠ ولم يفت هذا من أعضدهم ، بل زادهم تيمّنا وحماسة ٠ كانوا يرهفون حواسهم لالتقاط دوي الرعد أو دوي أي شيء آخر ٠ وراحوا يسبشرون بقرقعة أمعائهم ، بنعيق الغراب ، بهدير القاطرة ، كانوا يضربون الارض في هوس وتعجل وعنف ، تراود رؤوسهم الافكار الطيبة : ستنزل المطر بغزارة ، وستسير في هذه الأخاديد ، وستشرب الارض ، وتمتلىء البرك ، وترتوي البهائم ، وسنحسو الحليب الساخن ٠ سينبت الزرع ، وسيرتفع هكذا طويلا طويلا حتى يصبح سنابل عالية خضراء ، وسنحصد ، وندرس ، ونذرو حبات الحنطة الذهبية ٠ ستمتلىء البيادر ، ونوفي ديوننا ، ونعبىء كوارنا بالمؤونة ، وتبقى لنا الارض ٠ هيا ٠٠ هيـــا ٠٠ أيها المحراث ، أيها الثور ، أيها المعول ، يا الله ، ساعدنا لنعيش ٠٠

وفي الاصيل سمعت فجأة صيحة من أحد أطراف الفلاة الواسعة ٠ والتفت الجميع من كل حدب وصوب ، ليروا غمامة زرقاء كثيفة ملبدة عند الافق الغربي ، صبغت حواشيها بحمرة قانية ٠ كانت السماء في تلك البقعة كأنما أصيبت بجرح بليغ ٠ ها هي ذي شواهد الخير ، ستنبجس المطر من هذا الجرح ٠ هيا يا ملائكة ٠٠ ابك ابك ابكِ ، يالله ، يا من يقبل الدعاء ، صب علينا لعنتك ٠ وفي تلك اللحظة خُيّل الى الكثيرين أنهم يسمعون هزيم الرعد جليا واضحا ٠ ها هي ذي الغمامة تتحرك ، وقرص الشمس يظهر من ورائها كبيرا باهتا ٠ ها هي ذي الشمس تهزم ٠ لا شك أن صلاة الاستسقاء أتت أكلها ٠

وشرع الفلاحون يرقبون السحابة الثقيلة ، ويستعجلونها ، متمنين أن يسيطروا عليها ، ويشدوها بأسنانهم ، بأظافرهم ، بحبال قلوبهم ٠ ولكنها تابعت زحفها البطيء البطيء ، ثم ٠٠ ابتلعتها الارض ٠ ولم تكن ضجة الرعد الخلبية ، غير أصوات سرابية أحدثها تلهفهم وتيقظهم الشديد ٠ ولم تكن الغيمة الا ضبابا كاذبا لا يذوب مهما صافحته رياح الجليد ٠ والأسوأ من

ذلك ، ان السحاب والرعد لم يتكشفا عن غير الدركيين • اللذين نبعا من الارض على غير توقع • وبهت الكثيرون من رؤيتهما •

وكان ان مثل أمامهما نايف وقاسم ، كما أورد المختار في شهادته • وجيء بعدهما بجدعان الذي نال نصيبه من لسع السياط • وتم التحقيق الارجوازي على النحو السالف • أما الهمس الذي دار بين المعلم والدركيين ، فكان حول القضية من أولها الى آخرها ولكن في ايجاز وغموض جعل المحققين ينفضان أيديهما من الموضوع ، وينصحان برفع المشكلة الى القضاء •

(١٤)

غادر جدعان المضافة وعيناه حمراوان كبركتي دم ٠ لم يكن موجعا ، فالجَلد لا يؤذي فلاحا الا اذا أقعده عن الحركة ٠ ولم يكن يحس بالاهانة ، لان الضرب صدر عن يدعليا متحكمة لا طاقة له على شلّها ٠ولم يخطر في باله أنّ ما اصابه كان ظلما وعدوانا ،وعلى الرغم من اكتشافه أنّ التحقيق كان مبتورا ومشوها٠ كما أنه لم يكن خائفا أو متهيبا٠ لم يكن لأيّ من هذهالاسباب أو كلها مجتمعة دخل في تكدر عينيه ٠ ان ما اصابه في الحقيقة نوع من اليقظة المفاجئة، مماثلة لذلك الاحساس الغامض الذي اكتنف قلبه في الشهر الفائت ، عندما كان يصعد جدار البركة وعلى كتفه برميل الماء ٠ فاجأه احساس بصرخة تنبعث من أعماق القلب المظلم ٠ « لماذا حدث ذلك ؟ لأي شيء تُخلق المشاكل ؟ وهل و'جد الناس في الدنيا ليتعذبوا ؟ »

واحاط جبينه بأصابع يده ٠ ورفع رأسه الى سماء منتصف الليل المكتنزة بالنجوم ٠ وبصق في حقد ٠ ثم دلف الى حوش الدار ، متوجها الى الحظيرة رأسا ٠ وصاح بدون فكرة سابقة :

ـ فرحة ٠٠ يا فرحة ؟

وتذكر أنه سحق عظامها في مساء هذه اللية بالذات ٠ ولكن هذا التذكار لم يخفض من قساوة نبرته ٠ وظل ينادي :

ـ ولك يا فرحة ؟

وأجابت الام من الداخل في لهفة وحنان :

ـ جدعان ٠٠ رجعت يا عيني ؟ ارني ، ايش قالوا لك ؟ أعادوا لنا ابنتنا فهدة ؟

ورد الابن متغاضيا عن هذه الاسئلة :

ـ أيقظي فرحة ، أيقظيها ··

ـ بعدها نائمة يا ابن أبوي ، مسكينة ، ظلت تئن طول الليل ، الله يخزي الشيطان · فرحة ·· فرحة ·· قومي راضي خيـّك ·· قومي يا قليبي قومي ، الله يأخذ روحي لأستريح ··

وخرجت البنت بعد قليل ، مغمضة العينين ، تمضغ ريقها في صوت منغم ، وتحك صدرها من فوق ثوبها بيديها الاثنتين · وسألت في رنـّة رخيمة يأكلها النعاس :

ـ مالك ؟ من أين تنادي ؟

وأجابها وهو يخرج الدواب من الحظيرة :

ـ جلـّلي الحمار ، تعالي جلـّليه ·

وأجابت فرحة وهي تدور حول نفسها ترتجف من البرد :

ـ واين هو ؟ أين وضعت الجل ؟

ورد الاخ في غلظة :

ـ في جهنم الحمراء التي على رأسك ·· لاقيه ، أو ائت بأي لبادة وجلليه بها ··

ثم أردف في تذمر :

ـ يا بنت الملعون ، انك لا تصلحين لشيء ، وتعدّين الدار لا تخصـّك أبـدا ···

ووشوشت البنت لنفسها : « انه ما زال غاضبا عليّ ، أو لربما هو غاضب من شيء آخر » ·

جمع جدعان في حوش الدار البقرة وسبع نعاج ، أربعا تخصه من السابق ، والثلاث الباقية من مهر أخته · ثم أوعز الى فرحة أن تمشي في المقدمة · وبحث في الارض عن عصا أو ما أشبه ذلك ، وخطا بضع خطوات ، حيث تناول مذراة خشبية ، حطـّم أسنانها بقدمه وهو يغمغم : « لم نبق في

حاجة الى أمثال هذه ، ما دامت السماء لا تريد أن تمطر » · وجعل من نصابها عصا راح يهش بها على الدواب ، يطرق بها الارض ويشاشيء · وسألته أخته وقد خرجا من باب الدار :

ـ الى أين يا جدعان ؟

وأجابها من الوراء مهددا :

ـ قلت لك امش جنوبا أو أعيد كسر ضلوعك · ·

وصمتت البنت على مضض ، سائرة دون أن تحير جوابا · واجتاز القطيع الصغير بيادر القرية ، ثم تلقفه السهل المترامي الاطراف ، متخذا سمته نحو الجنوب · واذا عرف أن الزمن كان نهاية شهر كانون الاول ، أمكن معرفة حالة الطقس من البرودة ، في منتصف هذه الليلة الكئيبة الظلماء · وكانت أجراس الكنائس في الاطراف النائية البعيدة تقرع جبين العالم مبشرة بميلاد السيد المسيح · أما هنا ، فلم يكن يسمع غير نباح كلاب مستوحشة ، وعواء ذئاب تستشعر وقوع الكارثة ·

كانت البنت تتهزع في المقدمة ، في خطوات سريعة قصيرة مضطربة ، على الدرب الترابي المتعرج ، الذي سلكه حصانا الدرك في المساء ، تصطك أسنانها من صبارة البرد ، وتعقص وجنتيها أظافر الليل المجهول · ومن تحت أقدامها العارية ، كان التراب الناعم يخشخش ويتنفس كالمحموم · كان النوم قد انتزع من عينيها انتزاعا · ولم تستعد عظامها بعد راحتها ، من جراء الوهن الذي أصابها من اليدين القاسيتين المتشفيتين · وعلى الرغم من أن رطوبة الليل جعلتها تصحو تماما ، الا أنها ظلت تسير كالنائمة ، وكأنها في حلم مفجع رهيب · تسوقها قوة غير منظورة الى مصير غامض مشؤوم · كانت لا تعرف الهدف الذي تسري اليه ، ولا الغاية التي من أجلها تساق · ولم يخطر لها ، أن أخاها ــ في هذه الفورة ــ قد يقودها بحيلة النعاج ، ليذبحها في هذه الفلاة ، بعيدة عن السمع والبصر ، تحت ستر الظلام القارس البهيم · ولكن ، ولو خطر لها ذلك لما غير من حالتها شيئا ·

فقد تعاونت ظروف كثيرة على جعلها لا تختلف عن ذوات الاظلاف التي تجري وراءها · لم يكن يفرقها فارق عن أي حيوان من حيوانات القطيع الذي تترأسه · وما كان يجول في رأس البقرة كان يجول في مخها · ظلام في

ظلام في ظلام ··· فالبنت غافلة منذ البداية ، والاحداث التي تتابعت بعد ذلك زادت في بليّتها · ثم ثورة أخيها في المساء وارواء غليله منها · وأخيرا هذه الرحلة الليلية الصامتة ، كل ذلك جعلها تتصرف كالمسلوبة ، لا ارادة ولا تفكـير ·

كانت تتقدم في الغبش محاذرة ، كالضرير الحديث العهد ، لا تدري أين هي ، ولا الى أين تُقاد · تتبع آثار الدرب بأقدامها · تتلفت كل لحظة الى الوراء لتتأكد من أنها ليست وحيدة ، وأنّ ما هي فيه ليس الا حقيقة واقعة ، حقيقة أقسى من الكابوس ·

وفي المؤخرة ، كان جدعان وحماره يسيران متجاورين ، وبين الفينة والفينة ، كان الحمار يلتفت الى رفيقه ، يحك أنفه في خاصرته ، ويدور بينهما ما يشبه الحوار :

ـ ألا تركب يا جدعان ؟

ـ انتظر قليلا حتى اتعب يا أخويا ···

ـ مالي اذن أراك تعبا مكدّرا ؟

ـ انني أقاسي من تعليل أشياء لا أفهمها في هذا العالم ، وقد ضُربت هذا المساء ظلما وعدوانا ·

ـ هاء هاء هاء ، اني أرى قميصك ممزقا ·

ـ انك تفهمني أكثر من الآخرين ، ولا أظن أني أُضرب لو كان الناس حميرا مثلك ·

ـ ومع هذا تعيّرون عديمي الفهم بأنهم حمير ·

ـ هذا خطأ يجب تلافيه · وعلى كل حال ان حياتنا كلها أخطاء ·

ويرفع جدعان ساعده الى ظهر حماره :

ـ أنت ترى بأني حافي القدمين ، ولم أنس أن أضع على ظهرك لبـادا ·

ـ اني أرى ·· هاء هاء هـاء ·

وكانت العلاقة التي تربط جدعان العبد الله بحماره ، تختلف كثيرا عما هي عليه بين زوج مماثل · أصبح حمار جدعان قصيرا ، واطيء الظهر ، ناتيء العظام ، حلؤ جلده وخفّ وبره ، ومُسحت قواطعه بعد أن تجاوز عمره السبع سنوات · وقد عاشا معا ردحا من الزمن ، وحيدين متلازمين ، متعاونين في سبيل العيش · يتقاسمان معا الشظف وكد النهار وفلاحة الارض · كان وجه أحدهما في وجه الآخر طوال الايام ، من الفجر حتى الغروب · وبما أنه لم يكن لأيّ منهما غير صاحبه ، فقد كان يشكو اليه هموم قلبه ولواعج نفسه ومصائب دهره · كما أنه لم يكن ليضنّ أي منهما على الآخر بابتسامة اذا ما وجد المبرر ، أو بهمسة اذا ما ضاق الصدر ، أو بنظرة عتاب اذا كانت تسرّي عن الروح ·

كانا صديقين وفيين ودودين ، يحب أحدهما الآخر ، ويبذل له كل ما يستطيع · وأصبح الحمار على مر الايام يفهم صاحبه حق الفهم ، وصار يعرف ما يريده منه قبل أن يخطر لبال الآخر ما يريده · ومع الزمن اكتسب لنفسه دالّة عليه · فكان يرفسه في رفق · أو يعضه في نعومة · أو يضك رأسه على صدره · وفي المقابل ، كان جدعان يشتمه بلا ضغينة ، ويشد أذنيه ، ويلوي قوائمه ليفحص الحافر ، ويربت على ظهره في عنف ولكن في كثير من الطيبة · وكان يتفقد أسنانه ، وينقّي له العلف · وفهم الحمار ما كان يدور بين صاحبه وبين زوجته :

ـ مالك يا جدعان ؟ أراك حزينا ·

ـ أرى أن الحمار قد شاخ ، فهو لا يجهز على كل عشائه ·

كانا يسيران وراء الرتل متراصفين يفكران ، وتعتلج في صدريهما خواطر عدة · واذا كان الحمار يتنهد بين الحين والآخر ، فلأن فكرة استعصى عليه استنتاجها : « الى أين نذهب هكذا في هذا الليل دون سكة حراثة ؟ » · وكان قد لاحظ في الآونة الاخيرة الحالة السيئة التي طرأت على صاحبه · فقد غابت من حياته تلك المرأة العرجاء الطيبة · صحيح أنها كانت أعز منه عليه ، الا أنه بسببها كان ينال قسطا كبيرا من الراحة · وذلك عندما تستلقي الى جوار زوجها في الفلاحة · ونخر الحمار من خيشوميه في حرارة وكأنه يقرر : « انّ ما تشكو منه يا صاحبي عانيت أنا منه الكثير ، ولو لم أظفر بجحشة فتية بلقاء (أثناء الصلاة التي اشتركت فيها) لكنت أكثر منك حنينا الى الأنثى ·· » ·

وكان جدعان بدوره يراقب تفتح أفكاره وهي تبزغ شيئا فشيئا. وخلص الى حقيقة غامضة : ان الشر كله يكمن في معاملة الناس . فمنذ اللحظة التي خلق فيها حتى التقى بعمه ذلك اللقاء اللعين كان انسانا آخر . وكانت تلك اللحظة هي نقطة التحول في حياته ، وكانت النصل الحاد الذي بتر حياته بترا . ومن حينها بدأت المتاعب . كان في الماضي انسانا خليَّ البال ، يخيّم الهدوء على عمره . يعيش وحيدا مع هرير نفسه دون هزات أو قلاقل . وعندما خرج من عزلته تلك بدأ الهرير يعلو شيئا فشيئا حتى انقلب الى عواء . وقد توصل خلال تفكره الطويل الى أن التعامل مع الناس يؤدي الى وجع الرأس . فبمجرد أن يدخل بينك وبين أحد نعجة أو فرخة أو حتى رغيف تبدأ المتاعب . ووجد في غرابة ، أن المرأة هي من أسباب البلاء الكبرى . ولكنه لم يستطع أن يفهم كيف يمكن للناس أن ينعزلوا كل عن الآخر دون أن يتعاملوا . وقال في نفسه : يبدو أن السر كامن ليس في تعامل الناس في حد ذاته ، بل في شيء آخر لم يفلح في استكشافه .

لم يضع جدعان العبد الله مشكلته وحدها في تحليل الموقف ، بل أدخل وقائع أخرى . فهذه المشاجرة لم تكن الاولى من نوعها خلال هذه المدة . فلا يكاد ينقضي يوم الا وتقع مشاجرة ، واذا استُقصيت أسبابها وُجد أن وراءها رغيفا . واذا كانت المرأة على رأس السبب فلأنها سلعة كبقية السلع لانها تُباع وتُشرى كالدابة . ولكنه تساءل : كيف يتم الامر اذن اذا لم يكن كذلك ؟

وعندما وصل الشاب بأفكاره الى هذا الحد ، وجد أن جراح ظهره تخزه وخزا أليما . وندم على أنه في عجلته لم يرتد كساءه المصنوع من شعر الماعز ، خاصة وأنه شعر بالبرد يلسع صدره ويخترق جلده حتى العظم . وأهاب بأخته أن تسرع ، فلربما كان الاسراع موفرا لبعض الدفء . وفوجئت البنت بهذه الاهابة ، فأجفلت ، وأفاقت على أنها ما تزال تسير في العراء والظلماء ، أمام قطيع صغير من الماشية ، على الدرب الموغلة الى الجنوب ، والتي لا تعرف الى أين ستنتهي . واستجاب الحمار الى الامر ، فمد من خطواته حتى تجاوز صاحبه . وظل يتقدم حتى وصل الى فرحة ، وشرع يدفيء أسفل ظهرها بأنفاسه الحارة المتلاحقة .

وعاد جدعان الى تفحص خواطره . راح يقارن حياته السالفة بحياته

الآنية • وتساءل : ألم يحدث في ماضيَّ ما يكدّرني ؟ واستعرض بعض الحوادث • موت أبيه ، مرض أمه ثم فقدانها البصر • تعرّضه للموت عندما وجد نفسه بين فكي الوحش • تذكر هذه الملمّات وغيرها ، مغفلا من حسابه طريقة عيشه المنخفض ، ناسيا جدبه الروحي وفقره الادبي وعوزه الى تحقيق انسانيته وجوعه الى حياة أفضل • ولم يذكر هذه الاعتبارات لانه لا يعرف لنظائرها وجودا • فهو يعيش كما يعيش الفلاحون من مواطنيه • وكيف يعيش هؤلاء الفلاحون ؟ لم يطرح هذا السؤال على نفسه ، بل سمعه ذات مرة ، لا يدري كيف وأين ومتى ومن طرحه ، ولكنه يذكر الاجابة :

« ••• لا يأكلون في يومهم ، وطوال أيامهم ، غير رغيفهم الجاف ، المصنوع من الخليط : شعير وحنطة وذرة مجتمعة ، تطحن وتخبز • وفي فصل الربيع ربما تغير الحال قليلا • فاما أن يغمسوا لقمتهم بالبرغل ، أو بما يفيض من خضخضة اللبن الرائب عندما يصنعون منه السمن •• هذا السمن الذي يبيعونه ليكتسوا بثمنه ، وأحيانا يظل الفلاح على لقمته (الخليطة) اذا لم يكن لديه ما يخضّه • أما اللحم ، فيكون عيدا حقيقيا ذلك اليوم في السنة ، الذي يدرك فيه فلاح حيوانا قبل أن يلفظ أنفاسه ، فيذبحه • وهذا قلّما يحدث ، لان الفلاح يظل يأمل في أن يشفى الحيوان ، حتى ولو مات وشبع موتا • واذا تحقق للفلاح ما يفصل له جلده عن الطبيعة من الملابس ، فهذا هو الخير العميم •• » •

وتذكر جدعان موت أبيه • كان غياب الأب صعبا في بدايته ، فقد وجد نفسه وهو ما يكاد يترعرع ، ربّاً لعائلة ، عليه أن يوفر لها العيش ، ولكنه منذ ذلك التاريخ أدرك أن الدموع لا تطعم برغشة • كما أنه تذكر حادثة الضبــع :

منذ خمس سنين ، وفي صباح يوم من أيام الشتاء ، وكان شتاء كريما ، رفع على ظهر حماره هذا كيسا من الخليط ، وذهب به الى بلدة محجة التي تبعد ساعتين ليطحنه • واضطر هناك أن ينتظر حتى المساء لان دوره في الطحن قد جاء متاخرا • وعاد يتلمس طريقه وراء حماره وسط ليلة باسرة حالكة ممطرة • كانت السماء تسح ، والارض تنبع ، والريح الصاعقة القارسة تمو ل من كل جانب • كان يتشبث بكيس الدقيق مداريا اياه كيلا يسقط • ففي هذه الحالة لن يجد من يساعده على رفعه ثانية ، عدا أنه يصبح عجينا •

كانت قوائم الحمار تغرس في الوحل وتنتزع منه في صعوبة كبيرة · والحمل . بفعل ماء المطر ، يزداد ثقلا · وكانت أقدامه هو تتزلق لدى كل خطوة · ولم يكن ليرى أمامه ، بل ظل يعتمد على عيني البهيم وأنفه · وكان هذا يسير متعجلا ليصل الى الدار ويتخلص من الحمل الذي ينقض ظهره · وكان الفتى ، في حالته هذه التي لا يمكن أن يحسد عليها ، يحصي الدقائق والخطوات · يعد من الواحد الى العشرة لكي يصرم الوقت · حاسبا بين الحين والآخر كم مضى عليه من الزمن ، وكم تبقى له ليصل · خاشيا أشد الخشية ، أن يقع الحمار أو يسقط الجمل · وقُبيل منتصف الطريق ، حسب تقديره ، تسمّر البهيم فجأة ، ثم ارتدّ الى الوراء · وسمع جدعان طرق أذنيه برقبته ، فعرف بأنه أجفل لسبب ما · وراح يدفعه وينهره ، ولكن الحمار أقسم على أن لا يحرك قائمة من قوائمه ، وقد برّ بالقسم على الرغم من جميع الالتماسات التي قدمت له · وغامر الفتى بالحمل ، وتقدم خطوتين ليستكشف الطريق ، فروّع بزمجرة وحشية تزلزل كيانه · وامتلأ وجهه بالرذاذ المنتن الكريه المتطاير من لعاب الوحش · ولم يكن الفتى يحمل سلاحا · وأي سلاح يمكن أن يفيد ، ما دام الوحش يكمن قريبا دون أن يُرى في الحلكة والريح والمطر ؟ وفي الحقيقة ، كما يقول ذوو الخبرة ، أن أمضى سلاح يستخدم ضد الضبع ، هو قوة القلب ورباطة الجأش · فالضبع لا يستطيع أن يفترس حيّا ما لم يجرّده من وعيه ويسلبه رشده ، وعندها تبور كل أسلحته ، فيقوده على قدميه الى وكره حيث يأكله بأمان واطمئنان ·

كانت مهمة جدعان ، بعد أن سيطر على أعصابه ، هي أن يزيح الوحش عن طريق البهيم ليتابع سيره · ولكن الوحش أبى الا أن يتعشى ، ويبدو أنه كان جائعا في صدق · فقد أصرّ على أن تكون ضحيته هي البادئة بالعدوان ، وهذه صفة حميدة عند أم الفطائس ، ورفض أن يزيح عن طريق الحمار · ولو كان للدابة مقود ، لسهل الامر · اذ يمكن ارجاعها أو شدها من جانب فتترك الدرب المسدودة ، ولكن حمار جدعان كان طليقا ، ولم يعرف الرسن في حياته ، وهذا معروف لا شك يذكره لصاحبه · ولم يكن أمام جدعان الا أن يستعمل لسانه · فراح يردع الوحش ويشتمه ويهوّش عليه ويبصق : « عوذة يا أم الفطائس ·· تفو يا بنت الملعون · عوذة يا مالة البين · حيدي عن الطريق يا وسخة ، تفو · » وكان يدفع الحمار لدى كل تعويذة · وأخيرا أفلحت الخطة ، وحاد الوحش عن الطريق ، غير أنه لم يستسلم · بل راح يواكب

الطريدتين كشحاذ صفيق · كان يبتعد قليلا ، ثم ما يلبث أن يغير على ساقي الفتى ليوقعه ، فيتعثر هذا ويكاد يسقط ، ولكنه يتشبث بالحمل ، دون أن يتوقف عن التعويذ والتهويش · وهذا اجراء ضروري ، ليثبت للوحش أنه ما زال مالكا وعيه · وقذف الوحش بنفسه مرارا بين قوائم الدابة ، وكان يعيد الكرة مع جدعان ، دون أن يعفّ أو يرعوي · ثم بدأ في محاولة جديدة · شرع يدقّ مؤخرة الشاب بخطمه ، ويتمسّح بفقرات ظهره القطنية ، مما سلب العزم من ركبتي الرجل ومشى الغدر في أوصاله · وأخيرا ، وصل الموكب الى بيادر القرية · وهناك التفت جدعان ظافرا الى الوراء ، ليرى عيني الضبع التي وقفت مهزومة محسورة ، تضيئان بلون أحمر فسفوري غضوب ، فأدرك عندها أنه نجا بأعجوبة ·

لم تترك هذه الحادثة وغيرها ، في حياة جدعان ، أثرا كالاثر الذي تركته مشادة الامس · ولم تجرّعه من الغصص أو تحمّله من المضض ما حمّله احتكاكه ببيت عمه · وهز رأسه ، وقد تراءت له على القرب أضواء بلدة ازرع ، وهو يؤكد لنفسه : وهكذا ·· ان التعامل مع الوحوش أسلم عاقبة من التعامل مع الناس · ودلف القطيع الى سوق المحطة مع شقشقة الفجر ·

توقف جدعان في باحة السوق الكبير يحصي بهائمه ، في حين عكفت فرحة تتلفت حولها في حيرة ودهشة : أين نحن ؟ ما هذه الدنيا الجديدة ؟ هل هذه هي الشام التي يقولون عنها ، أم أنها عالم آخر أكثر فتنة وأشد بهاء ؟ وبهرت عينيها البيوت البيضاء ذات الجدران المستوية وسقوف الدكاكين ذات الابواب الحديدية ، والارصفة والاشجار والارض المسفلتة النظيفة ، وسلب عقلها هدير سيارة جيش عتيقة تعبر الشارع ، فأجفلت مروعة ، وارتمت مختبئة بين قوائم البقرة ، التي راحت تطرف أجفانها ساخرة : لا تخافي يا حيوانة كوني مثلي وافهمي الاشياء ···

واجتمع الجزّارون حول جدعان وقطيعه ، يتأملون المواشي بأعين خبيرة مجربة · يتحسسون ظهورها ، ويزنون أثقال الياتها بأيديهم · وسأل أحدهم في لهجة بدت للبنت غريبة :

ــ قديش حق هذه النعجة ؟

ورد جدعان في عنفوان :

ـ خمسين ليرة ٠

وسأل آخر ساخرا ، وقد بدا له الثمن باهظا :

ـ والحمار ؟

فأجاب جدعان بسلامة خاطر :

ـ الحمار مش للبيع

وسأل آخر غامزا بعينيه :

ـ وهذه البنت الحلوة ؟

ورد الفلاح بطيبة قلب :

ـ لا أبيع الا البقرة والنعاج فقط لا غير ٠

كان قد صمم على بيع الماشية ، آملا في أن يحل المشكلة ٠ وقد اتخذ قراره هذا في أثناء التحقيق ٠ ليصبح غير مطالب بشيء أو حريص على شيء ٠ ضاربا عرض الأفق بالقرار الذي اتخذه منذ حين ، من أن معاملة الناس لا تؤدي الا الى أوخم العواقب ٠

والحق أن قراره هذا كان شاملا وغامضا ، تعوزه الدقة والوضوح ٠ ومهما يكن ، فقد وجد في التخلص من الماشية ، راحة لنفسه وختاما لقضيته ٠ سيأخذ ثمنها ويخبئه ويعود الى قريته دون أن يتعرف على أحد ٠والجزارون بالنسبة اليه أناس غرباء لن يراهم بعدها ابدا ، وخاصة اذا ذبحت الدابة وبيع جلدها ولحمها ٠ ستختفي المواشي من داره الى الأبد ،وعلى الدنيا السلام٠

وعند ارتفاع الضحى ، وجد الفلاح أن الثمن الذي يطلبه مرتفعا ،فراح يتنازل بالتدريج٠ باع ثلاث نعاج هزيلة بمائة ليرة، واثنتين أشد هزالا بخمسين، وواحدة مريضة بعشرين ، والاخيرة بثلاثين ليرة ٠ اما البقرة فقد دارت حولها مساومات طويلة ٠ ورضخ جدعان في النهاية ، فباعها لمن دفع أكثر ، وقبض ثمنها مائتين وخمس عشرة ٠ ثم انكب على احصاء نقوده في تفحص وامعان ، طاويا الاوراق حسب حجمها لا حسب قيمتها ، وكان يخطيء كل مرة بالحساب، ولم يستطع ابدا ان يتوصل الى رقم (اربعمائة وخمس عشرة) ٠ وكانت فرحة ترقب اخاها مفغورة الفم وفي بلاهة مستطيرة ٠ دون أن تدري في دقة بماذا

توحي اليها هذه الاوراق الكثيرة الملونة • ولكنها هتفت على حين غرة وعلى غير انتظار:

ـ جدعان يا أخويا اشتر لي سروالا •• الله يرضى عليك يا أخويا •• ولكن أخاها الذي كان في شغله الشاغل، لم يعرها انتباها • وكان الحمار على مستوى معقول من الواقعية والتفهم • فقد كان يشم الارض، ويتتبع آثارا، ويتفحص الروث •وكان يرفع رأسه كلما مرت بـه جحشة ،فينهق ويرفس، ويحرك ذنبه القصير في عصبية • وقد سعد كثيرا، وكأنه في مهرجان • وقد بدا عليه الاستياء عندما كور جدعان الاوراق في كفه، ونهض يلوي له عنقه في طريق العودة •

ساق جدعان بهيمه، تتبعه فرحة عن بعـد • وبما انها عرفت حاجتها الماسة، فقد تعلقت بها • وراحت تنق طول الوقت بترنيمة رتيبة :
ـ يا اخويا ابوس عينك، اشتر لي سروالا يا اخويا الله يرضى عليك • سروال احمر يا حبيبي يا جدعان •• ابوس يدك يا اخويا سروال احمر •• سروال احمر ••

كانت تبتعد عن أخيها وبهيمه أكثر من مائة خطوة • وكان صوتها يصل الى مسمعليه ضعيفا وانيا • وكان هو يفكر : سأفي ديوني ثمن البذار، سأدفع للبيك ليرات واحتفظ بالارض وسأدخر الباقي • وعلى الرغم من أنهما ابتعدا عن المحطة مسافة طويلة، وأصبحا في الوعر، الا أن فرحة ظلت تردد بلا كلل :
ـ يا أخويا الله يوفقك سروال أحمر • يا حبيبي سروال أحمر •• سروال أحمر يا ابن أبوي •

وكانت أفكار جدعـان ترتل عـلى الوتـيرة نفسهـا : أربعمائـة وخمس عشرة •• أربعمائة وخمس عشرة •• أربعمائة و •• سأسترد السند وأمزقه مزقا صغيرة • ويضغط على النقود المكورة في كفـه، وهو يحس بأنهـا موصولة بقلبه بشرايين دقيقة لا ترى• وعلى حين غرة ـ وكانقد قطع منالطريق أكثر من نصف ساعة، أوقف حماره، وجلس على الارض • ولاول مرة تذكر أخته، فالتفت الى الوراء وأهاب بها :

ـ ولك مالك •؟ تعبانة •؟

فردت من بعيد وهي تحلج وصوتها يسبقها :

ـ يا أخويا الله يخلي لك فهدة ، سروال أحمر يا أخويا ٠٠

فرد عليها بلا غضب :

ـ سروال ٠؟ لماذا ٠؟ ابنة من أنت يا بنت الملعون ٠؟ ابنــة شيوخ حتى ترتدي سروالا ؟ تعالي يا أم القمل ، تعالي ساعديني ٠

واقتربت البنت متابعة :

ـ سروال يا حبيبي ٠٠ أريد سروالا لأجل قاسم و ٠٠

وقاطعها جدعان في حدة :

ـ والله لأفطسك وأفطسه وأحسب أن الله ما خلقكما ، سأريك ٠ تعالي الآن ، أعطني هذا الحجر الصغير ، وذاك أيضا ٠٠

وجمع أمامه بضع أحجار ، ثم راح يفرش الاوراق الماليــة عــلى الارض ويثقلها بها : هذه خمسون ، يجب أن تكون خمسين لانها كبيرة ٠٠ وهذه مثلها ٠ (ووضع فوقها حجرا) ٠ هذه أصفر ، خمس وعشرون ٠٠ وهذه ٠؟ امسكي ٠٠ امسكي بها ٠ لا ٠٠ لا توسخيها بأصابعك يا وسخة ، والله لاكسرن أظافرك ٠ لماذا تحدقين اليها هكذا ٠؟

ولم تدر لماذا راح أخوها يتفرس في وجهها في حنان٠ فاعتراها نوع غريب من الارتباك والدهشة ٠ فلم تعتد في حياتها على مثل هذه النظرة الطيبة ٠ انها نظرة شبيهة بتلك التي يسوقها اليها قاسم عندما يختليان ٠ ولم تستطع أن تجد لها تفسيرا آخر ٠ وأخرجها من ذهولها صوت أخيها ، الذي تنــاهى الى أذنيهــا وديعا لطيفا مفرطا في عذوبته :

ـ ولك ؟ أتظنين أني لا أحبك ؟ لعنة الله عليّ ان كان ذلك صحيحا ٠٠

وكانت ما تزال تمسك بورقة النقد بين أصابعها ، ولكنها في لحظة ذهولها أسقطتها من يدها بلا شعور وتابع جدعان عتابه :

ـ ولك فرحة ٠٠ أكون كافرا اذا ما زعلت عليك ، حتى وأني بكيت أيضا وأنا أراك تتعذبين ٠ تريدين سروالا ؟ على عيني ٠ سأشتريه لك ، أين الورقة ؟ الورقة ؟ الورقة ؟

وهبت الريح ٠٠ وطارت الورقة في العراء ٠ لبث الاخوان لحظة محملقين

من الرعب ، قبل أن يفيقا على الحادث المريع • وانتفضا واقفين ، تتملكهما حيرة رهيبة : هل يلحقان بالورقة الطائرة أولا ، أم ينقذان الاوراق المفروشة على الارض ؟ وراح جدعان يتخبط صائحا مائجا هائجا ، وهو يلتقط المال من الارض :

ــ ولك الحقيها • الحقيها •• قفي ، تعالي أولا •• لا • الحقي الورقة ، طارت الاوراق • طارت المصريات ، المصريات ، المصريات •• يا ويلي ، أنا ابنك يا بوي •

وراح البهيم يهز أذنيه مجفلا على الصراخ المتعالي من الاخوين المفجوعين المتراقصين • وأخذ يرقبهما مسرورا وهو يراهما يبتعدان الى الغرب ، يعدوان وراء ورقة تدوّمها الريح • ولبث ينتظر طويلا ، الى أن اختفيا عن ناظريه وسمعه • وعندها نخر نخرة حزينة ، وقرر العودة وحيدا ••

• • •

هلت السنة الجديدة • وأصبح من المناظر المألوفة أن يقف سكان القرى على السطوح ، يرقبون السماء ، ويرصدون اتجاه الريح • وأخذ العارفون ــ في تلهّفهم ــ يتفقدون آذان البقر ، وذيول الكلاب ، وأعشاش النمل ، علّها تنبيء عن الحدث العظيم • وأقيمت صلاة الاستسقاء في كل مكان ، واضطلع بهذه المهمة رجال دين ذوو قدر وخبرة • وتصاعدت الأدعية حارة ملتهبة ، من القلوب الملتاعة والصدور العارية : « اللهم أغثنا غيثا سحا غدقا وافرا عاجلا •• الخ » وحفظ الناس هذا الدعاء ، وعكفوا على ترتيله كل ساعة آناء الليل وأطراف النهار • وكانوا عقب كل صلاة أو دعاء ، يهرعون الى الارض ، ينبشون ترابها ، ويشقّون أديمها ، ويحفرون فيها الى الاعماق • ثم باتوا ينظرون الى السماء بعيون تغص بالدمع ، ويصغون الى الفضاء بجوارح تفيض بالشوق واللهفة • وكانت آمالهم تنسل من قلوبهم كما تنسل الشعرة من العجين • ثم بدأوا يتساقطون كأوراق الخريف الصفراء ، تعصف بها الريح ، وتذروها الأعاصير • واذا كان الله تعالى قد خلق من الماء كل شيء حي ، فان الحياة تصبح معدومة حين لا يوجد الماء • ولم يكن للماء من مصدر غير السماء • والسماء كانت تجأر في وجه الارض صارخة : أنا أشد منك رمضا وجوها •

كان صالح الذياب أول ورقة خريف تهاوت في قرية الصيرة • وقد يكون الرجل في حالة خاصة ، الا أنه في اليوم التالي للصلاة ، هبّ كأشد ما يكون حماسة وترابطا ورسوخا • وكان من أوائل الفلاحين الذين هرعوا الى الارض يسقونها بعرق جباههم ودم أفئدتهم • وكان آخر من رجع الى داره من الحراثة ، وآخر من شيّع السحابة الى مأواها الاخير • كانت مشكلة الغيث تؤرقه من البداية • ولم تخل أحاديثه ، حتى في لحظات هوسه ، من التعرض لهـذه المشكلة •

وقد يُقال أيضا ، أن الرجل سقط منذ الليلة الاولى ، ليلة العرس • ولكن من الصعب أن يؤخذ بهذا القول • لان ما قام به تلك الليلة لم يكن غير نوع من أنواع الصراع مع النفس ، اتخذ شكلا عنيفا • فلم تكن لدى الرجل مُثل عليا يسير على هديها ، من أجل هذا وجد نفسه يقف وجها لوجه أمام وجدانه • وعرف أن الطريقة الوحيدة لـ (اخراج الشيطان من جسده) هي سلوكه هذا السبيل • الذي ، وان بدا غريبا وخارقا للمعقول ، نجح نجاحا لا بأس به • والدليل على ذلك ، أنه بعد يومين أو ثلاثة من السيطرة على نفسه ، رُؤي ينهض الى فلاحة أرضه مع الفجر حتى ساعة متأخرة من المساء • وأبلغ برهان على أنه نسي الموضوع نسيانا تاما أو مرَضيا ، هو مفاجأته بفرحة عندما جلبت له الخبز • فقد توارت البنت من ذاكرته ، لتحل مكانها فجأة المرأة زينب ، تلك التي فصمت شخصيته ، وأحدثت في ذاكرته ثلما بعيد الغـور •

وكان أن حضر التحقيق بناء على نصيحة المختار وتدريبه ، وفي غضون ذلك التفت اليه ابنه قاسم ليستمد منه العون على الاجابة ، فلم يجده • وعندها صاح الابن في ذعر :

ـ الحقوه ، الحقوه •• لقد اختفى أبي ••

وكان قد شاهده عقب عودتهما من الفلاحة ، يائسا بائسا ، يجدف بكلام غير مفهوم ، ويشتم السماء وما فوقها ، فهدّأ من روعه بقدر استطاعته ، ثم رافقه الى المضافة • وقد يُعتبر أن ما حل بالرجل هو استعداده السابق لعدم تحمّل الهزات ، الا أن موت السحابة تحت أنظاره كانت الطلقة التي أشعلت نار الحرب •

عثر على صالح الذياب مختبئا في كوارة العدس في الحجرة السفلى من داره • وكان ذلك بعد ثلاثة أيام من البحث والتجوال والتحري • دون أن تُترك محطة قطار أو قرية مجاورة أو جحر من جحور البرية • وكان أبعد احتمال فكر فيه الناس هو وجوده في القرية نفسها • أما اختباؤه في داره ، فلم يكن ليدور في خلد أحد • وعلى كل حال ، فقد كان العثور عليه ضربا من ضروب المصادفات • فمخزن الغلال الذي انتصبت الكوارة فيه كان مغلقا ومنسيا في هذه الايام من أيام السنة • ولسبب ما دخلت اليه سليمانة في ضحى اليوم الرابع لاختفاء رجلها ، فزكمت أنفها رائحة خبيثة • وسمعت لذعرها صوتا ينبعث من العمق ، فاستنجدت بالاولياء والصالحين ، وبما تحفظه من أسماء الانبياء والقديسين ، واستُنفر أهل القرية على النداء •

كانت أعصابهم قد هشت فأصبحت كالزجاج • وباتوا يمسون ويصبحون بالشؤم والنكد • وكأنهم ينتظرون صاعقة ماحقة من السماء لا تبقي منهم ولا تذر • واذا عرف أن الكوارة تُشاد عادة من الطين والتبن ، بشكل متوازي المستطيلات ، عريضة السطوح ، مرتفعة الاضلاع حتى تصل فتحتها الى السقف ، أمكن معرفة الطريقة التي يمكن تسلقها لافراغ المحصول في داخلها • ولا يتم ذلك الا بواسطة سلم • وكان السلم الخشبي المعد لهذه الغاية ، مرفوعا عن الارض ومعلقا هناك عند الفتحة بشكل أفقي • وفهم المنقذون ، أن الرجل عند تسلقه السلم ووصوله الى الفتحة ، أراد سحب السلم واخفاءه عنده ليمنع وصول أحد اليه • ولكنه فشل في ادخاله لانه كان أطول من عرض الفتحة ، فظل معلقا على هذه الصورة • وقد تخطر هذه الفكرة لبال طفل يريد العبث ، أما اذا نُفذت من قبل رجل كبير ، فلا شك في أنها تبعث على الريبة وسوء الظـن •

تم انتشال صالح الذياب من الكوارة بعد صعوبة وجهد كبيرين • فقد كانت الكوارة فارغة تقريبا • وكان الوصول الى عمقها يتطلب ذلك الجهد والصعوبة • عدا أن الهارب راح يقاوم منقذيه بأظافره وأسنانه وصياحه الوحشي المرتفع • مما اضطرهم الى كسر الكوارة من أحد جوانبها ، واحداث ثغرة واسعة كافيه لسحبه منها • وقد جربت في البداية طريقة أخرى ، اذ تسلق أحد الشبان جدارها ، ثم هبط الى جوفها كما يهبط الى بئر عميقة • وهناك دخل مع الرجل في معركة عنيفة حتى أفلح في ربطه بالحبل من تحت

ابطيه · ولكن عند الشروع بالسحب ، تحطمت حواف الكوارة ، وتصدع جدارها ·

وحين أُخرج صالح الذياب ، كان في حالة بشعــة من الضعف والوساخــة والتخاذل · وقد بدا زائغ العينين ، غائرهما ، تفوح منه رائحة نتنة ، ولم يكف لحظة واحدة عن الممانعة والتفجع · وعندما بُدىء بنزع ملابسه التي بُللت عن آخرها ــ ويبدو انه قرض على جوعه كمية وافرة من العدس فاحدثت عنده اسهالا ــ راح يعوي باصوات لاتمت الى البشرية بصلة · وظن في هواجسه أنه يُهيأ للذبح · وقال الخجا :

ــ يا ربي أقول لحالي ·· فقد لمحته أثناء التحقيق يرقب سوط الدرك طول الوقت ، وكأنه يخشى أن ينقض على ظهره ·

وعقب آخر :

ــ كان الى جانبي · ورأيته يرتعد ، وتصدر من شفتيه تمتمات غريبة ·· ظننت أنّ به حمى ·ولكنه نهض بصورة مفاجئة ··

وذُكر الفقير في هذه المحنة ، فأُرسل أحدُهم لاستدعائه · غير أنه في عزلته آثر عدم التدخل · وكان قد انزوى في داره عقب مشاحنته مع المعلم ·ولكنه بحث في جرابه عن دواء مناسب وأعطاه للرسول ، شارحا له كيفية الاستعمال · كان الدواءعبارة عن حشائش سوداء تشبه خيوط الليف · وقال أنه يجب أن تُغلى على النار بكميــة من الماء ، ثم يُغسل بها رأس المصاب قبل أن تبرد · وبعد ذلك يُجرعْ منها دفعات كبيرة ويُدفأ ، ويُترك نائما حتى يستيقظ من تلقاء نفسه · ونفذت سليمانة وآمنة هذه التعليمات في رأس ومعدة زوجهما ، وأضجعتاه في فروته ، ثم أهالتا فوقه حملا من الاغطية ·

افاق صالح الذياب بعد اربع وعشرينساعة مخلوقا مختلفا تمام الاختلاف· والواقع أنّ الدواء كان نافذا ورهيبا في الوقت نفسه · فقد نهض الرجل وقد سقط شعره عن آخره ،حتى بدا رأسه كسطح يقطينة طازجــة ملساء · كما اختفى شارباه ولحيته وحاجباه ورموش عينيه · وبالاجمال بدا أمعط تصعب معرفــة شكله الاساسي ــ أو يمكن تصنيفــه في أي زمرة من زمر المخلوقات المعروفة· ولربما كان هذا الدواء قد أفاد في اخماد ثائرة الرجل أو تهدئة روعه، ولكنه لم يفعل ذلك عن نية حسنة ، لانه قتل فيه الاحاسيس كافة ، الباطنية والظاهرة على السواء · فقد أخرق منه البصلة السلسائية ·

ولو قرأ الفقير في كتابه الاصفر : (باب الجنون وعلله وأدواؤه) كما ورد في الباب الثالث عشر ، لوجد أن هذا العقار يستعمل في بعض الحالات المتعلقة في كف أذى المصاب ، وردعه عن اقتراف القتل والسفك والتخريب ٠ وكانت هذه الوصفة آخر مسمار دُقّ في نعش الفقير ٠ وعُدّ الورقة الثانية التي سقطت في القرية ٠ فقد غادرها خلسة في اليوم التالي الى حيث اختفى اختفاء تاما دون أن يفكر أحد بالعثور عليه ٠ ولم ينجم شعور الفلاحين هذا تجاه الرجل عن الكره أو السخط أو الكفر به ، بل لانهم كانوا يفكرون بأنفسهم واذا لم يتساءلوا : اين اختفى الرجل ؟ فلانهم يمهدون طريقهم الى الاختفاء ، هاربين من وجه القحط والمحل والاجحاف ٠

• • •

يعتبر الشهر الثاني من السنة أسوأ مرحلة يمر بها الفلاحون خلال النزع٠ وذلك لان المعجزة وان تحققت لاتفيد شيئا ٠ فالبذاريكون قد اصابه العفن ، ولن تستطيع اية قوة على انمائه ٠ وكانت البلية الحقيقية في أنّ موسم العام الفائت كان سيئا ، لانهم اصبحوا يفتقرون الى اساس يبنون عليه خرابهم ٠ حتى أنّ الكلأ الخفيف الذي جاد به الربيع الضنين اجتثته الحيوانات من جذوره، دون ان يسكت منها جوعا ٠او يرد عنها مسغبة ٠ فاضطر الفلاحون الى ذبح مواشيهم او بيعها بابخس الاثمان للتخلص منها كيلا تنفق ، وهكذا انقطع النسل بعد ان ابيد الحرث ٠ وأحيل الراعي سعدو على التقاعد من بداية الصيف ٠ واتخذه المختار خادما له ٠ وكان الرجل قد اضاع نور عينيه منذ الثالثة عشرة من عمره اثر وباء الجدري الذي عشش فيهما ٠ وأصبح حنينه الى النعيق ٠ لاينقطع ٠ من أجل هذا صار مغرما بترديد الصراخ كيلا تفقد حنجرته قدرتها على الزعيق ٠

كان يشكو من الحالة القائمة في رنة تفيض باللوعة ٠ ولا يفتأ يذرع مسارب القرية بسرواله وقميصه القديمين قدم جلده ، وكأنه يبحث عن بصره ٠ ضاربا الاحجار بعصاته ساخطا لاعنا ، وكأنه يدعوها الى اليقظة والسيرأمامه كقطيع من الماعز ٠ وعندما دري أنّ جدعان العبد اللة باع مواشيه بدا كمن فقد رزمة من ابنائه ٠وطرق باب داره في العصر وتدحرج الى الداخل ناعقا :

ــولك يا جدعان يا كافر ٠٠ /

وردت عليه العجوز :

ـ ها سعدو ·· ما تريدَ في هذا (الليل) يا فأر طويل الذنب ؟

وتوقف في وسط الحوش صارخا في السماء :

ـ لا اريدشيئا من عجوز جرباء ·· انا اتكلم مع الرجال · وهــذه علتي دائما ، كلما ناديت رجلا مدت لي الخنفساء لسانها ·

وضحكت العجوز · وكان صوتهـا قريبـا حيث افترشت الارض بجوار قن الدجاج · وقالت بهينمة مبحوحة :

ـ ولك تعال لاقول لك ·· تعال ، اجلس ، اين يدك ؟ اعطني اياها ·

واقترب الاعمى من الصوت ، حتى لامست ركبتاه اصابع المرأة ،فتشبثت بسرواله وجرته اليها · وسألته بالهينمة نفسها :

ـ قل لي ، أما تريد أن ازوجك ؟

ونهرها سعدو مديرا وجهه الى جانب :

ـلا يا عجوز البين ·· حتى انت يا خنفسه ؟

ـ هس ، لا ترفع صوتك يا نجس · أرى رائحتك غريبة ، قرّب لأشمك مليح ·· ممممم ، أرى أنك تدوّر على انثى يا تيس ·· ألست صادقة ؟ قل بحياة والديك ما هذا الذي تدوّر عليه ؟

وقال الراعي بنفاد صبر :

ـ ولك صحيح أن ابن الفاسقة باع غنمه وسرّح حماره ··

ـ باعها وقلع عين الشيطان ، ولكن قل لي أولا ··

ولم يصغ الى استطرادها بل قال شاكيا :

ـ اذا باع الجميع مواشيهم فماذا أكون أنا ؟ هل أبقى هكذا كالبغل المخصي الذي لا يفيد ؟ سآخذ القطيع بعيدا الى الغرب لأرعاه هناك · يقولون انه توجد عين ماء حولها الكلأ ·

ـ لم يبق فائدة لذلك ، فالجميع يرحلون ، وارحل أنت معهم ··

قال سعدو وهو يهز عصاه :

ـ أنا أرحل ؟ وماذا أفعل هناك ؟ لا يا أختي ·· أنا من أنا ؟ أنا راعي فقط ·· ومن أكون ؟

ـ وأنا مثلك سأبقى هنا · ولكن قل لي ما فعلته لك بيكا ؟

وردعها سعدو مغيظا :

ـ اخرسي يا بنت الكلب · عيب عليك · من قال لك ؟

فضحكت العجوز وردت :

ـ علمت به · قل لي كيف تركتها تضحك عليك ؟

ـ لعنة الله على كل العجائز ، دعينا من هذه القصة ·

ولكن مزنة أصرت وبصوت أقل خفوتا وسألت :

ـ ألم ترها ؟ أعني ألم تسمع صوتها ؟

كان الضريران يقبعان وراء القن متقابلين ، الفم قرب الاذن ، يرفع كل وجهه في اتجاه ، والاجفان وحدها تطرف · وأجاب سعدو متنهدا :

ـ خدعتني ولعبت بعقلي · هذه هي الحكاية ·

وحاول النهوض بعد أن أحس أن الوقت قد تداركه ··

ـ لا ·· اتركيني ، اتركيني · أين جدعان اذن ؟ هم ، هو مع فهدة ، أعرف · وتلك الزانية الصغيرة أيضا مع قاسم · لقد خلا لهم الجو ، أولئك الكفار الفجرة · وتطلبون الرحمة من الله ·· فمهما فعل بنا قليل ·

ونهض الراعي الضئيل ملوحا بعصاه مهددا متوعدا ، ثم مضى الى الخارج ·

• • •

في أواسط شهر شباط ، مر من القرية أبو مسعود البدوي · وقد عرج على الدكان لملء غليونه كالعادة · وهناك التقى ببعض الشبان · وبعد أن تسامروا قليلا وحدثهم من جديد عن فقش رأس التاجر ، ذكر له أحدهم ما حل بصالح الذياب ، وطلب اليه التطوع لمعالجته · ولقيت الفكرة قبولا من الراعي العتيد ، وتنطح على الفور للكشف عليه · وبعد أن فحص جمجمته

في عناية ، وطرق عليها من كل الجوانب ، كما يفعل المرء ببطيخة ليختبر نضجها ، أوعز الى أهل البيت باشعال الفرن ، واحضار لباد كبير مع قضيب من الحديد · وبما أن معجزته بفرحة ما زالت ماثلة في الاذهان ، وان المريض أصبح يُخشى عليه مما هو أدهى وأمرّ ، فقد لُبيت طلبات البدوي بكل سمع وطاعة · غير أن الحديدة لم تعجبه لانها قصيرة ، فقذف بها الى الارض صائحا في حمية وغيرة :

ـ أريد قضيبا طويلا يا بنات آوى ·· قضيبا بطول هذه العصا ··

وطوّح بعصاه المعهودة في وجوههن ، فأجفلن من سطوته · وقام هو بنفسه يبحث عن ضالته · كان حوش الدار يحتوي على : قطعة محراث صدئة ، وعظام منخورة لحيوانات كبيرة فاطسة ، وبقايا أخشاب بالية ، وصفائح ملتوية ملتصقة الجوانب ، وحبال مقطعة ، وقطع ملابس مهترئة ، وبراز آدميين ، وروث جاف ، وحوافر خيل ، وأظلاف وقرون ثيران تاريخية ، ورماد يشكل تلالا منخفضة ، وحفر قديمة العهد ، بالاضافة الى الاحجار السوداء من مختلف الاحجام · وهبط الراعي الى احدى الحفر ، فعثر على : اسطوانة بندقية متربة ، وبعض البزالات والنوابض · انتقى من بينها كرة صغيرة من الاسلاك الشائكة من النوع الذي تستعمله الجيوش في التحصينات · وفكر قليلا ، ضاغطا الكرة بين أصابعه ، ثم هتف :

ـ هذا أفضل شيء لهذه المهمة ·

وقفز الى خارج الحفرة في خفة الجدي ، وراح يخلص الشريط المتشابك حتى صنع منه قضيبا بطول خمسة أمتار · وأخذ يثنيه من جديد ، فشكل منه خوذة كافية لتغلف رأس صالح الذياب · وترك في أحد جوانبها ذيلا ليستعمل كقبضة · ثم هرع الى الفرن ليغمس اختراعه في النار · وصفق بيديه صائحا في حبور :

ـ ها ، أين اللباد ؟ هاتوه الى هنا ، ألا يوجد من يساعدني ؟

وعلى الرغم من أن فناء الدار جمع عددا من المتفرجين ، فلم يعجبه أحد منهم ، بل تناول اللباد الكبير وفرشه على الارض ، ثم هرع الى الحجرة ليحضر المصاب وهو يغمغم :

ـ لا حاجة الى أحد ·

كانت الزوجات ـ على غير المعهود ـ يتصرفن في صمت وتكاسل • ومنذ اللحظة التي أُعلن فيها عن اختفاء زوجهن عقب الاستنطاق ، بدين كراهيات عتيقات في معبد • يدور الشجار بينهن في همس ، وتعمل عيونهن وحدها على التعبير • لم يكن خائفات ولا حزينات ، حتى ولا فرحات ، كان الخطب أفدح من قدرتهن على التحمل • كان أمر جديد معقد قد حدث ، ويحتاج تفسيره والتصرف حياله الى ملكة خارقة من الوعي • وباتت كل واحدة تراقب ضرتها في يقظة وتنبّه • منتظرة أن تبدر منها البادرة الاولى لتبدأ • اما أن تقلدها في الاجراء ، أو تتخذ وضعا مناقضا له كل التناقض • لهذا احتفظت كل منهن لنفسها بمشاعرها الخاصة ، دون أن تبوح حتى الى ذاتها بما تخبئه • وفي غمرة ذلك الحدث ، نسين المشكلة الاساسية ، سواء أكانت مشكلة حقيقية أم مصطنعة ليس لها من مبرر • ولم يبق لجدعان وفرحة وفهدة وقاسم من معنى له دلالة • عاد جدعان الى ما كان عليه قبل أشهر ، قريبا بعيدا لا يذكر له شأن ، واختفى من اعتبار الزوجات كعدو غاشم • واصبحت فرحة العروس النكبة ، بهيمة متشردة ، يلهو بها قاسم كما يلهو سليم الطفل بدواب البيادر • أما فهدة وقاسم ـ أبنا الرجل المتهدّم ـ فهما من أهل الدار • وما راح فقد راح ، ولا مجال الآن لذكره • ويبدو أن الايام القادمة ، لن تسمح أيضا في التذكير به • وعلى مبدأ : « اللهم ربي نفسي » ، باتت كل زوجة تتحين فرصة النبذ ، لتُقذف الى المجهول •

اندفع أبو مسعود الى حوش الدار كلاعب سيرك ، يتنطق بصالح الذياب ، شادا اياه بساعديه الى خصره ، كما يحزم كبشا عنيدا • وكان الرأس الكبير اللامع يتأرجح الى جانب ، كبطيخة مدورة لمدفئة مازوت • ولم يبد على الرجل أية مقاومة ، أو أية ظاهرة تدل على أنه سيقاوم • كما أنه لم يكن مستسلما ، لانه لم يكن غير شيء •• شيء غريب شاذ ليست له صفة محددة • ولكنه كان شيئا حيا ، تعبر سحنته الجرداء عن منتهى السعادة والجذل • ولربما أصبحت سيماؤه العارية عاجزة عن اتخاذ أي تعبير آخر • كان فرحا ، وكأنه يُزف الى عروس مشوقة • و ••• كان حبـل سرواله يتدلى على الارض كذنب طويـل •

ألقى أبو مسعود بالجسد فوق اللباد ، ومدده عى الطرف السميك ، ثم

لفه به لفا ، وذلك بأن دحرجه من الطرف الى النهاية ، دون أن يظهر منه غير كتلة الرأس المصقولة · ومن باب الاحتياط أيضا ، ربط اللفة الطويلة بحبل غليظ ، ثم شدّها شدا محكما ، فبدت كالمومياء المصرية · وكان حريًا بجهابذة التعذيب في العصر الحديث أن يأخذوا بهذه الطريقة الشيطانية ، ليفقدوا ضحيتهم كل ما من شأنه أن يدفعها الى الاعتراض أو المقاومة · فبهذا يكون الجسد مقيّد الرئة والاطراف ، ويصبح بالامكان فلاحة رأسه وزرعه بما يحب الجلاد ويشتهي من صنوف الاذى والمكاره ·

تفتّل أبو مسعود حول مومياءه مرتين ، وكأنه يعرض أعمالا سحرية ، ثم توجه الى الفرن وسحب منه آلته الجهنمية · فخرجت تتوهج قبعتها بالشرر · واقترب من الناس ينخر من بين شاربيه وكأنه سيد الساح والبطاح ، ووقف فوق الرأس الذي كان يلمع كالشمع تحت الشمس · وكان ، بفعل سماكة اللباد ، مرتفعا عن الارض بما فيه الكفاية · ثم ألبسه دائرة السعير من القذال الى الجبين · وعلى عمق الصرخة ، انتفضت شعور الكلاب المنبثة في أطراف القرية· وعلى رائحة الشواء ، ارتعشت آذانها وخياشيمها وهي تنبح نباحا أليما ، وتعدو في سائر الاتجاهات ·

• • •

أعلنت حالة الطوارىء في البلاد · واستدعي مجندو الاحتياط الى الخدمة العسكرية · وقالوا في قرية الصيرة ، ان الشيشكلي أصبح ملكا على الشام ، واستبشروا خيرا عميما ، ما دام الله قد حجب المطر ، فقد تكون قدم (الملوك) رزقا للبشر · وحمل المجند الاحتياط قاسم بن صالح الذياب متاعه وهمس بأذن فرحة العبد الله :

ــ انتظريني غرب القرية · سآخذك معي الى الشام ، وهناك أشتري لك سروالا أحمر ··

كانت البنت قد ملكت اسمها ملكة حقيقية ، وأصبحت اسما على مسمّى· وقد تم ذلك بعد أن ظفرت مع أخيها بالتقاط ورقة النقد الدائرة مع الريح ، وكانت من فئة الليرة الواحدة · أعطاها أخوها تلك الورقة لتشتري بها سروالا · وقد خمّن أنها ذات قيمة منخفضة ، نظرا لصغر حجمها ، وكان

تخمينه صحيحا . لم يستطع جدعان العبد الله أن يفسر شعوره ذاك بالدقة . لم يدر ما حدث له عندما ألفى نفسه في العراء يملك نقودا والى جواره تقرفص أخته المعذبة . لقد عرف في لمح البرق أنها أخته ، وأنها معذبة ، وأنها تساوي كثيرا ، وأنه حقق من ورائها كسبا غير قليل . فها هي ذي (المصريات) . لقد أصبحت له ، وله وحده . هو جدعان العبد الله صار يحمل أوراقا مالية . جعلته هذه الاوراق يصحو على حقيقة لم يكن يحلم بها ، جعلته يحس بأنه مخلوق جديد .. انسان .. انسان حقيقي .

وعندما رجع في الليل الى قريته ، وعلم باختفاء صالح الذياب ، قرر بينه وبين نفسه أن الامر قد انتهى . وسترجع اليه فهدة عاجلا كان الامر أم آجلا . ولم يكن يعلم بالحكمة القائلة : « بأن تاريخ النساء هو أسوأ ضروب الاستبداد في التاريخ ، استبداد الضعيف بالقوي ، وهو الاستبداد الوحيد الذي يدوم » .

ولكنه صار يعرف ، بأن الاستبداد لن يدوم أبدا . ففي ذلك معارضة للعقل ، للسماء ، للارض ، للحياة ، لكل شيء .. لكل شيء .. صحيح أنه بقيت معضلة واحدة هي رهن الارض باسم المرابي ، ولكن هذه المعضلة ستزول أيضا ، فهو أصبح يملك نقودا وسيرفع شارة الرهن حال وصوله الى الشام : يدفع ما يترتب عليه من دين الى ذلك اللص .

وحين وجد أن سكان القرى بدأوا يغادرونها زرافات ووحدانا في الطرق الى المجهول ، دخل على أمه التي ظلت ترفض الرحيل . قال لها في لهجة رحيمـة :

ـ وأخيرا يامه ؟ ما تفعلين لوحدك هنا ؟

وردت الام في اصرار :

ـ سأبقى .. سأبقى وسأبقى .. لن أغادر هذه الدار ، دار عبد الله الجدعان التي عشت فيها خمسين عاما .. الدار التي فقدت فيها بصري .. لن أتركها ، هل تفهم ؟ سأجد عندي قبرا على الاقل ، الى أين تريد أن تأخذني ؟ لأفطس هناك دون قبر يضمني ؟ لا يا ولدي .. اذهبا أنتما . لقد رحلت فرحة

بأمان الله ، وارحل أنت مع زوجتك فهدة ، لقد رجعت اليك ·· خذهـا · أنتما شابان ، تعيشان أينما كان أما أنا ··

وتساقطت الدموع من أجفانها المتورمة · كانت حبات الدموع الاولى لزجة بطيئة الانسكاب ، أما بعد قليل ، فقد جرف السيل كل السدود ، واندفع قويا هاطلا كالمطر · يملأ تجاعيد الوجه ، ثم يفيض على الصدر كالسواقي ·

ـ لن ينساني الله يا ولدي ·· لن ينساني الله ما دام خلقني وتركني عائشة الى الآن · أريد أن أبقى قريبة منه ليأخذ أمانته حين يشاء ، لن أهرب منه ، لاني لست خائفة ، وليس لدي ما أخاف عليه ··

وغمغم جدعان في حزن ، ولكن دون خشية :

ـ لقد نسينا الله جميعا ·· انظري الى الناس كيف يهجرون دورهم ·· انهم يرحلون ، تاركين كل شيء ، ليخلصوا بأرواحهم ··

وردت الام مائلة الى الامام والخلف ، تاركة لدموعها حرية السيل :

ـ أنا أؤمن بالله ، وأنت أصبحت لا تؤمن به · وكلهم لا يؤمنون به ، وسيجازيهم · انه يعرف كيف يأخذ حقه منهم · أولئك المذنبون · هيا خذ فهدة وارحل · سأصوم وحدي ، سأصوم ·· لا حاجة بي الى الطعام · أنـا ضريرة ، ضريرة ، ولا أريد أن أضيع ، أن أتشتت ··

وفكر الابن قليلا ، تمضه الحيرة ، ويعصف به القلق · ثم قال :

ـ اسمعي يامه ·· ان فهدة تنتظرني في البيدر الشرقي ·· وسنركب القطار ، ان معي مصريات كثيرة ·· وسأستأجر لك دارا ·

وتنخمت الام ، ثم بلعت ريقها نائحة :

ـ قلت لك اذهب مع زوجتك ·· اذهبا وحدكما ، لا أريد أن أترك دجاجاتي ، وهناك فرخة تحضن ، وضعت تحتها عشرين بيضة ، أريد أن أرى صيصانها وأطرب لزقزقتها ·· سأعولها وأعول نفسي ·· مع السلامة ، لا ·· لا أريد أن أسمع كلمة أخرى ·· هيا مع السلامة ·· أين أنت ؟ جدعان ·· تعال ·· تعال ·· تعال لأقبل راسك · ائت لي بفهدة أيضا ·· ائت بها هذه

البنت الطيبة ، بنت الحلال ٠٠ هه لا تنس يا جدعان ٠٠ أريد منكما طفلا لا تنسيا ، طفلا قويا مثلكما ٠٠ أحضنه هكذا وأغني له في الليل :

طلعت الشمس على قلبي الحزين   قلبي المعـذب من سنين وسنـين

طلعت الشمس والحزن من قلبي راح   وصار قلبي من الفرح يزغرد لللي

اهـأ اهـــأ اهـــأ ٠٠٠

• • •

الخاتمــة

زحفت من بطن الجبل كتلتان بلون الصخر ، لهما أربع عيون سوداء كبيرة ، أرعشتا أهداب عيونهما في وجه الشمس ، ثم نفضتا عن هيكلهما غبار الرمل ، ودون أية معجزة أو انفعال خاص تحولتا الى آدميين ٠٠

كانا نادرا ما يرفعان رأسيهما ، ولكنهما فعلا هذه المرة ٠ فضرورة الحال كانت تقضي بذلك ٠ فقد أحسا أنهما معلقان في الفضاء والارض تحت أقدامهما غير ثابتة ، وألم برأسيهما دوّار غريب فأغمضا عيونهما وهما يتمثلان الموقف ٠ سأل جدعان في تهيّب كبير :

ـ كيف أصبحنا هنا ؟

ورد شحادة محاولا أن يعطي اجابة صادقة قدر المستطاع :

ـ في الحقيقة ٠٠ لا أدري ٠٠

هالهما أن يريا المدينة الجبارة على هذا الشكل غير الطبيعي ٠ كانت في الماضي تبدو لمداركهما رهيبة غامضة ، أما الآن فقد استحال على عقليهما أن يجدا لهذه الظاهرة الفريدة صفة أو تفسيرا ، وعندما طرح الاول سؤاله ، لم يكن ليعني مدلول الكلمات التي باح بها ، كان يقصد أن يقول مثلا :

(ترى هل في مقدورنا أن نرجع الى أوكارنا ؟) ٠

أو يورد تعريفا نادرا لهذا المحيط الآسر الذي لم يألفه في حياته ، أو تعبيرا خاصا عن شعوره ازاء هذه السرمدية المطلقة ٠ ولكن خانه الفهم قبل

أن يخونه التعبير • وعندما أجاب الثاني بعدم قدرته على التفسير ، كان يدرك جيدا ما كان يقصد رفيقه ، وبما أنه عاني الشعور نفسه ، فقد كان موفقا عندما رد : (في الحقيقة •• لا أدري) •

ان كلا منهما يعرف جيدا كيف وصل الى بطن الجبل • ولم يكن ذلك بفعل أيد سحرية أو قوة خفية • فقد حُمل الاول من باب الجابية على ظهر عربة يجرها بغل ، وتلاه الآخر من الزرابلية على عربة مشابهة ، ثم التقيا هنا دونما سابق خطة أو ترتيب ، وقد انتقاهما متعهد بناء له خبرة واسعة بأصحاب العضلات والهياكل القوية ، ليحفرا بطن الجبل ويستخرجا منه الرمل • وعند الظهيرة استغنى فجأة عن خدماتهما بعد أن قاما بمهمتهما على خير ما يرام ••

كانا نازحين من حوران • من تلك الجموع الزاخرة الهائمة التي هاجمها غول الجفاف سنين متعاقبة فتركت أراضيها للدود واكتسحب طرقات المدينة لتعشش في منافذها وأسواقها الضيقة ، ولتقوم بالاعمال التي تكفل لها سد الرمق ، والمحافظة على استمرار الحياة ، دونما قيد أو شرط أو أي اعتبار من الاعتبارات التي تمس الشخصية والكرامة والطاقة الجسدية • فلم يكن لهذه العناصر – مجتمعة أو متفرقة – أي شأن في حساب أحد ، فهي الرأسمال الوحيد ، الذي يمكن طرحه للبيع دون اعتبار لجدول الارباح والخسائر ••

حين أفاق الفلاحان على آدميتهما ، وطرقا أجفانهما في وجه الشمس • شاهدا السماء بمقلهما المرملة تتلون بألوان تغري بالانطلاق من أي حيز ، وفكر كل منهما في أن يصبح شيئا خارقا لا يمكن تحديده • ولو كانا على قليل من الخبرة ، لآثرا أن يتحولا الى طائرين أو شاعرين أو شيء من هذا القبيل • ولكنهما رجعا الى واقعهما في أقل من لمح البصيرة :

(ينبغي لنا أن نكسب الوقت ونبحث عن مستأجر جديد) •

كانت شمس الظهيرة قد ارتكزت في كبد السماء لا تريم : وكأنما أدركها التعب فتوقفت لينعم بها الكون بأسره • وعلى جميع الابعاد كانت المعالم تذوب بعضها ببعض لتشكل معاني جديدة لم يسبق لأي منهما أن حلم بها • والى الجنوب •• أقصى الجنوب تخيلا الارض ، لم يكن هناك أفق كالافق الذي يعهدانه •• فزرقة السماء لم تكن ممتزجة بسمرة التراب كما يحدث عادة

عندما كانا في الماضي يطلان بعيونهما من وراء المحراث · لم يكن هناك شيء ··

ظلال ·· مجرد ظلال لا ألوان لها · كانت ألوانا لطيفة رائعة ولكنها فارغة لا توحي بالشبع · وفكر كل منهما في صمت :

(أنا ·· من أنا ·· وفي أي مكان أوجد ؟ يبدو أنني عاجز عن أن أقيس نفسي الى هذا العالم ·· الى هذا العدم ·· انني لا أفهمه ·· لا بد أنني عظيم وتافه بآن واحد · ولهذا لا أستطيع أن أعرف أهميتي ··) ·

ولم يدم تفكيرهما هذا غير لحظة قصيرة ، فرضاها استراحة كانا في غنى عنها ، ثم ما لبثا أن نهضا وشرعا في هبوط الجبل · وكان بمقدورهما أن يوفرا الجهد الذي بذلاه من أجل الاسراع فلم يدخل في حسابهما يوما أن يهبطا مرتفعا ، اذ لم يصلا أبدا الى قمة ·· من أجل هذا وجدا نفسيهما يهرولان دون أن يتمالكا أو يحدا من سرعتهما المتزايدة ·· وتجاوزا سطوح المنازل الاولى وهما يضحكان ويهزجان · ثم سقطا في حفرة كالبالوعة فغرت أمامهما بغتة ، وجدا نفسيهما بعدها ينحدران في طريق منسكب هو الجادة السابعة من أحد أزقة المهاجرين ·

وعندما لمحا الترام يهدر في القاع حاولا عبثا السيطرة على اندفاعهما الجنوني ، خشيا أن يفقدا زمام ساقيهما فيجرفهما ذلك الحيوان الرهيب · كانت أنفاسهما تتلاحق ولكن دون جهد وفكر كل منهما : (لا شك في أن الهبوط أسهل من الصعود) ولم تعلف هذه الفكرة على لسان أحد منهما ، فقد عرفا أنها بديهية لا تستحق الجدل ·

وفي تلك اللحظة لاح لأعينهما مشهد يستحق الاهتمام · في منتصف الطريق تقريبا كان رجل يصرخ ويهوي بعصاه على مؤخرة كتلة كبيرة الحجم لها أذنان مميزتان · وقال جدعان : ·

ــ أظنه حمارا ·

ورد شحادة مؤكدا :

ــ لا بد أن يكون كذلك ··

لم يكونا من أنصار الرفق بالحيوان وذلك لسبب بسيط ، هو اعتقادهما بأن لأتفه حيوان منزلة توفر له المعاملة اللائقة ، وتقيه شر الظلم والتعسف ، فضلا عن أن في صدر كل منهما ذكرى مشبوبة لا يمكن تجاهلها • فقد ترك كل منهما هناك بهيما كان صديقه ومعينه الوحيد ، يقضي معه النهار في حراثة الارض ويشكو اليه أفراحه وأحزانه • وعندما غادر الفلاحون قراهم ، سرّحوا بهائمهم لترسم بحوافرها طريق رزقها المقسوم ••

وصحت ظنون الرجلين عندما وصلا الى المكان ، كان هناك حمار حقيقي غائص تحت حمل ثقيل فلم يبرز منه غير الرأس ، تسمّرت قوائمه في الارض ترفض أن تتزحزح انملة واحدة • وقد بدا واضحا أن الدابة قررت قرارا أكيدا لا محيص عنه أن تقف في مكانها • ومن الطبيعي أن هذا التصميم لم يكن قد ارتسم على وجهها ولم تبح به لأحد ، ولكن الدلائل كلها كانت تشير الى صحته • فالحمل الثقيل الباهظ والطريق الصاعدة بشكل عمودي البادية للحيوان كالجدار القائم ، جعلته يتمرد بصورة عفوية وبحسن نية خالصة على متابعة الصعود •

ورفع الحمار الى الفلاحين القادمين رأسه المكدود ، وكأنه اشتم فيهما رائحة خاصة ، ثم شخر شخرة طويلة ، ليحذرهما من مغبة الاتيان بعمل ما أو ليشكو اليهما ، أسفه الشديد على خور قواه وقلة عزيمته •

كانت ساعد الحمال قد كلت ، وبُحّ صوته من فرط الجهد الذي هدره في الشتم والدفع والضرب • وأخيرا لوّح بعصاه المحطمة ثم قذف بها في الهواء وهو يغمغم في حنق :

ــ لا فائدة •• يجب انزال الحمولة •

واعترض رجل كان قريبا من المكان ولعله البقال صاحب البضاعة :

ــ ولكن يجب ايصال الاغراض الى الدكان ••

وهز الحمار رأسه وكأنه يرفض هذا الاحتجاج ، فطارت من أذنه ذبابة فرس ثم عادت الى مكانها دون ابطاء ، فيما شرع يتأمل المخلوقين العجيبين اللذين وقفا يستوضحان المشهد • قال جدعان لائما :

ـ مع أن حميركم تأكل الشعير ٠٠-

وأضاف شحادة بينه وبين نفسه :

(الذي لو توفر لنا نحن الآدميين لكنا في خير حال ٠) ٠

ورد الحمال مدافعا عن حماره :

ـ القصة يا اخوان ليست قصة شعير ٠٠ ان أي حيوان لا يمكنه صعود الجبل بهذه الصناديق الثقيلة ٠

ولسبب ما ندم الحمال على هذه الاجابة برغم ضرورتها ٠ فقد واتته فكرة واضحة وطلب الى القرويين انزال الحمولة ٠ وزفر الحمار في ارتياح وهو يتلفت الى الخلف معبرا عـــن امتنانه لهذين المخلوقين الظريفـــين برمعان متلاحق من خيشوميه الواسعين ٠

وحدث بعد ذلك ما كان يتوقعه الحمال فقد جرت مفاوضة بسيطة بين صاحب البضاعة والمخلوقين العجيبين ختمها الاول بهذه الحكمة البلغة :

ـ سبحان الله ٠٠ لهذا فُضّل البني آدم على الحيوان ٠٠

وضحك الحمار في سره :

(فليكن ٠٠ ان ذلك لن يضيرني) ثم عبر عن سخريته من سائر الحكم بأن رفع جحفلته الى الأعلى وراح يكشّر في وجه الشمس ٠

كان كل من القرويين قد تمنطق بحبل في وسطه قطعة من اللباد يلصقها على جبينه عند رفع الاثقال ٠ وقد برزت من تحت شملته البالية قبصة من الشعر كانت تتخذ على الدوام لون آخر مهمة يقوم بها ٠ وقد أحاطت بقدميه سيور من الكاوتشوك نزعت من اطار عجلة السيارات ٠ أما الهيئة العامـــة فكانت ـ لتنافرها ـ تحض المشاهد على الاعتقاد بأن صاحبها قد تخلى نهائيا عما يسمى بالذوق السليم ٠ وعلى هذا فلا يمكن للانسان العادي أن يشعر بحضرة أمثال هذين المخلوقين بأي حرج ، كما أنه يستطيع ـ بكل بساطة ـ أن يوكل اليهم القيام بأحط الاعمال أو أصعبها دون أن يضيع وقته الثمين في المساومة أو وزن الاعتبارات ٠

وانحنى الرجلان على صناديق الفاكهة والصابون والاشياء الاخرى ، يتقاسمانها الى حصتين فيما كان البقال يسائل نفسه في توجس :

ـ ترى هل بمقدورهما أن ينهضا بها ؟

وبسرعة فائقة ، وبخبرة من له مائة عام ، أحاط كل من الرجلين صناديقه بالحبل ثم جثم وراءها مسندا اياها الى ظهره ، لاصقا قطعة اللباد الى ناصيته و ٠٠ صرخ البقال في عزم :

ـ يا الله ٠٠ يا قوي ٠٠

وكأنه استشعر بالحمولة تنقض على كاهله وتُخمد منه الانفاس ٠ ونهد القرويان برأسيهما الى الامام ثم اندفعا واقفين ، فطقطقت مفاصلهما كما لو أنها تتقصف ومال كل منهما حول نفسه قبل أن يتخذ وضعا تتوفر فيه الراحة للعمل ٠ وما ان حرك قدميه ليخطو خطوته الاولى ، حتى وجد نفسه ينآد الى نصفين ، ليصبح رأسه قريبا جـدا من قدميه ، ولأول مرة لاحظ جدعــان أن ابهام قدمه اليمنى ينزف دما ٠ فتذكر أنه أحس في فترة ما من فترات النهار بألم خاص يأكل ناحية من جسده ، غير أنه ابان انشغاله في حفر الجبل ، نسي الألم وأسبابه ، ولكن الألم لم ينسه ، ظل يلح عليه طوال الوقت حتى أصبح عادة كريهة يصعب التخلص منها ٠ وقال الرجل في نفسه وهو يركز انظاره على الظفر المقلوع :

(سأصب عليه عند عودتي قليلا من البترول وبذلك ينتهي الألم) ومن ثم أقنع عينيه بالنظر الى مكان آخر ٠ وتمنى لو يستطيع أن يرفع رأسه قليلا ليرى الطريق الصاعدة أمامه ، ولكنه فشل ٠ ألفى نفسه مجبرا على أن يظل منحنيا الى الاسفل ٠ وراح يجاهد ضد عاملين قاسيين أشد القسوة ، الطريق الصاعدة على نحو عمودي والحمل الثقيل الذي يهد حيله ٠ وفي لحظة ما ساءل نفسه :

(ترى هل ذلك حقيقة ٠٠ ان الله فضلنا على الحيوان ؟) ٠

ومن سوء الحظ أنه كان يفرض نفسه آدميا ، ودليله الوحيد أنه في الاحوال العادية يمكنه السير على قدمين ، ولكنه الآن يكاد يمشي على أربع ٠٠٠

وانه ليتمنى ذلك بكل بساطة ، علّ السير بهذه الطريقة يصبح أقل مشقة ٠
وانتشله من خواطره صوت شحادة الذي بدا مبحوحا ضائعا وسط الزفير :

ـ أظن أنهم سيعطونني ديّة البنت ٠٠ ألا تظن ذلك ؟

كان هذا قد هبط على المدينة مع بناته الخمس ، فأجّر الكبرى كخادمة وأودع الباقيات زاوية على رصيف النهر في الزرابلية ٠ ومنذ يومين عاد من أحد الاعمال فقيل له ان ابنته الوسطى قد انتشلت جثة من تحت عجلات السيارة ٠ وقد حدّث رفيقه عن القصة خلال وجودهما في بطن الجبل ، وها هو ذا الآن يعود الى استئناف الموضوع الذي يقلق نفسه ٠ كان يتكلم بصوت كالفحيح وهو يهدج بصناديقه الاربعة وفي صدره ينخر كالسوس ألم أسود :

ـ علمت أن سائق السيارة قد أوقف ثم أُخلي سبيله ٠ وقال لي الشرطي أن أقدم دعوى ٠٠ أنا لا أعرف شؤون هذه الدعاوى ٠٠

ولكن لو أعطاني السائق نقودا لحُلّت المشكلة من تلقاء نفسها ٠٠٠

وكان الآخر يفكر على منوال آخر :

(اذا قبضت الآن ربع ليرة) اجرة حمل الصناديق فسيكون معي ليرتان ٠٠

كان تفكيرهما في جميع الحالات يؤدي الى نتيجة واحدة ٠٠ النقود ٠٠ فقد رهن كل منهما أرضه في السنة التالية للجفاف ، وهو الآن يعمل ما استطاع ليوفر قليلا ويحرر الارض من الدائنين ٠ وعاد الاب يستشير صاحبه :

ـ انهم هنا ـ كما علمت يعتبرون قضية الدهس كقضية القتيل ٠٠ أليس كذلك ؟ وعلى هذا سآخذ ديّة كما حدث عندما ذُبح نواف الصالح ٠٠

وفكر الآخر :

(ترى ألا يحس هـذا الرجل مثلي بأنه يكاد ينسحق تحت وطأة الصناديق ؟) ٠

وخلد الاب الى أفكاره :

(ان البنات مفيدات على أي حال ٠٠ على أن لا يمتن ميتة طبيعية) ٠

كان بدوره يشعر بأن الحمل أنقض ظهره ، وكان يعتمل في نفسه خلال الحديث :

(اذا بدرت من صاحبي أية بادرة في الاستراحة فاني سأجلس على الفور ··) ·

ولربما كان الاب يتحدث عن ابنته القتيلة من قبيل التسلية واضاعة الوقت ، ولينسى حالته البائسة التي كان عليها · وعندما يصمت كان يحس بأن الصمت يرهق صدره أكثر مما يفعله الحمل الثقيل ·

كان الرجلان يرقيان المرتفع مكورين على نفسيهما ، وقد ضاعت منهما المعالم الآدمية · كانا عبارة عن كومتين ثقيلتين مكونتين من أشياء يصعب تعريفها ·· أرجل متورمة ، وسروالين مغبرين ، ومواد أخرى مجهولة ومختفية عن الانظار ، تتميز منها أنفاس لاهثة وعيون يأكلها الرمد وقلبان يعتصرهما القلق أكثر مما يؤثر فيهما الكدح المتواصل الشاق ·

وجرض جدعان ذو الاصبع الدامية ريقه في صعوبة · كان يختمر في رأسه المكدود سؤال أو حديث غريب يصعب نطقه · وفي كل مرة كان يؤثر الصمت · انه لا يفهم شيئا · كان يقول في نفسه :

(نحن كنا فلاحين ·· واسمنا فلاحون ·· أما الآن فمن نحن ؟) ·

ولو كان يعرف جيدا أنه سيجد الاجابة عند زميله لصارحه في القضية · ولكنه لم يكن واثقا من ذلك ، فضلا عن أنه في هذه الآونة وجد أن السؤال أو مجرد الكلام يتطلب جهدا فائقا لا ضرورة لمعاناته · وعلى هذا فقد راح يستغرق في أحلام مبهمة ·

وأحيانا يوهم نفسه بأنه يحلم ، دون أن يدري بأنه يفعل ذلك ببلاهة غريبة ·· وظل يتمنى ، ولو لحظة قصيرة ، أن يفلح في تجريد ذاكرته من هذه الحقيقة التي يدعوها جسده · كان يلاحظ ـ وهو يجر قدمه أو يصغي الى زحف أقدام زميله ـ بأن الطريق ثابتة في مكانها لا ترجع الى الخلف كما هي البادرة التي يلاحظها السائر · وخُيّل له لفترة معينة بأنه يسير على شريط يتحرك الى الوراء فلا يصل من يمشي عليه الى أي مكان ··

وهناك بادرة ساءته كثيرا وراحت تعذبه بدأب · فقد لاحظ بأن الكلل بدأ يتسرب الى أعماقه وأرعبته حقيقة بسيطة للغاية :

(ماذا لو بدأت أتعب من الآن ؟ من سيطعمني ؟ وكيف أستطيع أن أفي ديوني وأرجع الارض ؟) ·

وفجأة أحس بظلم فادح يأكل ضميره · فانتفض بقوة ولكن كما تنتفض نملة تحت حجر ـ وتصاعدت من جوفه حشرجة أليمة · في حين كان الآخر ينقب في ذاته عن تلك النشوة التي تملكته عندما وجد نفسه منذ قليل في أحضان الجبل ، يذلل جبروت المدينة الظالمة التي تمضغه بقرف دون أن تتلذذ بطعمه · وأغمض عينيه ليتخيل الأبنية المرتفعة تلعق سيور حذائه المحترق · وغامر ذو الاصبع الدامية بكل رصيده من أفكار وأطلق من جوفه صفيرا غامضا شبيها بنقيق الضفدعة :

ـ انني لا أفهم ·

وفتح الآخر عينيه وأرهف أذنيه برغم عدم استعداده لسماع أي شيء ·· واستطرد الاول قائلا :

ـ ان الفلاحين ·· لهم دائرة أو ما أشبه ذلك ·· على كل حال يوجد في الدولة من يهتم بأمرهم ·· أما نحن فلا أجد ·· أعني ·· لا أدري كيف أعبر ···

وفي تلك اللحظة انطلق من احدى الشرفات صوت نسائي ينادي :

ـ انظري يا بنت ، هل يوجد أحد في الطريق ؟

وردت الخادمة بعد لحظة :

ـ لا يا ستي ·· لا يوجد أحد ···

وكانت الخادمة سليمة النية عندما أجابت · فقد أطلت من الشرفة ولم تر أحدا · لاحظت فقط وجود كومتين مبهمتين تتحركان كالسلاحف · وسفحت المرأة صفيحة الماء من الأعلى · فطار رذاذه على الارض محملا بالغبار والبصاق والنفايات وبكل ما تحمله الاحذية في نعالها ، ثم لطخ وجهين مدفونين تحت الاعماق ولعق الاول شدقيه وهو يغمغم :

ـ أظن ‥ قلبي يحدثني ‥ بأنه سينزل المطر ‥

وبعبع الآخر كالمخنوق :

ـ الله يبعث الخير …

وظل الطريق يمتد صعدا ‥

دمشق ـ ١٩٦٥

٣٠٠٠ ـ ١٩٧٤/١١

مطابع الادارة السياسية

دمشق : ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣م

السعر (٣٠) ل.س

PDP مانس مطابع الادارة السـ